الجامع الازهر

كلية اللغة العربية

مِصْرُ في ظِلالِ الحُكْمِ الإسلامى

تأليف

محمد فخر الدين

أستاذ الجغرافية والتاريخ بدار العلوم

ومدرس التاريخ بكلية اللغة العربية

مطبعة الصاوى

شارع درب الجماميز رقم ١٠٣ بمصر

الجـــــامع الأزهر

كلية اللغة العربية

مصر في ظلال الحكم الإسلامي

تأليف

محمد فخر الدين

أستاذ الجغرافية والتاريخ بدار العلوم

ومدرس التاريخ بكلية اللغة العربية

مطبعة الصاوي

شارع درب الجماميز رقم ١٠٣ بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمدا يوافى نعمه، ويكافىء مزيده، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي العربى، الفاتح لما أغلق، والقائد الى الخير، والمعلن الحق بالحق الصادق فيما بلغ، والمضطلع بما حمل، والامين فيما استودع، وعلى آله وأصحابه، الانجم الطوالع، الذين هاجروا لنصرته، ونصروه فى هجرته ووالوا من والى وعادوا من عادى، وحفظوا عهده وذمته واتبعوا سبيله وسنته، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون

وبعد، فهذه طائفة صالحة من تاريخ مصر فى ظلال الحكم الاسلامى رويتها عمن دونوها من ثقات المؤرخين المسلمين، مصححا بعض الروايات من بعض، مكملا مافات المتقدمين، بما عثر عليه المتأخرون من الزوايا المنسية، والصحف المطوية، معقبا بما يبين الحق حقا والباطل باطلا، متحريا ما كان إلى الصدق أقرب، وبأصول المنطق أمس، وما يصير إلى النفوس أسرع، ويكون بالعقل السليم أنسب فان كنت قد وفقت إلى ما اليه قصدت، وظفرت بالصواب فى كل حجة، واهتديت إلى الحق عند كل شبهة، فذلك الفضل من الله، وإلا فانما الاعمال بالنيات، ولكل امرىء ما نوى

محمد فخر الدين

مقدمات

فى أحوال مصر قبل الفتح الاسلامى

دخلت مصر تحت سلطان الروم بعد زوال ملك البطالسة ، وذلك قبل ميلاد المسيح بنحو ثلاثين سنة ، وكانت فى أول أمرها جزءاً من الاملاك الخاصة بالقيصر لامتممة للامبراطورية ، وصارت أحوالها كاحوال الروم صلاحا وفسادا فلبثت فى نمو باستمرار نحو ٢٠٠ سنة ، تقدمت فيها صناعتها وتجارتها وزراعتها وأنشئت حصونها وطرقها ، وكان واليها يقيم بالاسكندرية ثم يتنقل فى المدن والقرى لجباية الخراج أو الفصل بين المختصمين — ثم قطعت ١٠٠ سنة أخرى في شدة وعناء ، إذ غير ولاتها طريق العدل الى غير العدل ، ففسد مابين الحاكم والمحكوم ، واستيقظت الفتن وحصلت الثورات فى الاسكندرية بين اليهود والاغريق من أهليها ، ثم بينهم وبين المسيحيين من أهل مصر عامة ثم بين المسيحيين أنفسهم من جراء الخلافات المذهبية وتحيزت الحكومة الى فريق دون فريق ، وحصرت المناصب فى طائفة دون أخرى وجعلتها وراثية في ذراريهم وذوى قرابتهم فأدى ذلك كله إلى التحاسد والتباغض ، وضعفت روح التعاون والغيرة على الوطن ، فتعرضت البلاد الى إغارات الأمم المجاورة من الجنوب والشرق

ولما تولى الامبراطورية دقلديانوس سنة ٢٨٤ م ، أقال البلاد من عثرتها وأعاد اليها طمأنينتها وحكم على مقتضى قواعد العدل فيها وأحسن سياستها ونظم جبايتها وقوى حاميتها وتخير ولاتها وعامل الناس بالحسنى ، وهو الذى أقام له الاسكندريون (عمود الصوارى)

غير أنه في الشطر الاخير من حكمه اتخذ لنفسه مركزاً دينيا بجانب مركزه السياسي، وأمر أن يعبد كما تعبد الآلهة ، وتقدم إليه القربان كما كان يفعل قدماء المصريين ، فلم يجد من الاهالى الاً السخط والغضب والمقاومة العنيفة، ولذلك اضطهدهم أعظم اضطهاد ، وقسى عليهم قسوة لامثيل لها فيعشر سنوات متوالية (٣٠١ - ٣١١ م) فكرهوه وصاروا يؤرخون حوادثهم من يوم جلوسه على العرش ويسمون هذا التاريخ تاريخ الشهداء

ويظهر أن نزعة القبط التى سببت هذا الاضطهاد ، لم تك للدين فحسب ، وانما كانت أيضا للتخلص من الحكم الرومى ، بدليل أن الخروج فى وجه الروم، قد اشترك فيه القبط من أهل مصر عامة سواء أكانوا مسيحيين أو على دين آبائهم الأولين . وقد أعدوا الاسباب وخلقوا الظروف

ويقال من ناحية دقلديانوس أنه أمر بنكبة المسيحيين عامة انتقاما من أحد الاساقفة الذين خانوه بإطلاق ابن ملك الفرس وكان قد أسره وسلمه إليه وزعم الاسقف أنه مات واحتفل بتشييع جنازته

على أن اضطهاد المسيحيين بمصر ظل حينا بعد هلاك دقلديانوس إلى أن استولى على عرش الروم قسطنطين بن هيلانه سنة ٣٢٣ م

تنصر قسطنطين ولم يكتف بجعل المسيحية وغيرها فى مستوى واحد وأنه ترك الناس أحراراً فى العقيدة ؛ بل يقال إنه شرع في جعل المسيحية الديانة الرسمية للامبراطورية ، وتحبب إلى المسيحيين وخصهم بمزايا وأوقاف ، وكان يرجو من وراء هذا كله أن يدخل بقية الناس فى هذه الديانة ، حتى تتحد الكلمة ويحدث التعاون الذى يحفظ كيان الدولة وينقطع التحاسد والتباغض، ويحل الوئام محل الخصام .

وما كان أشد فرح المسيحيين من أهل مصر خاصة ، واغتباطهم بقسطنطين وما يعمله قسطنطين من سياسة المجاملة واستعمال الحكمة والرحمة في تنفيذ ما رسمه من الخطط.

ولكنهم ما كادوا يخلصون من عسف الوثنيين من الاباطرة السابقين حتى وقعوا في شر منه وهو اضطهاد الاباطرة المسيحيين وأصل ذلك الاختلافات المذهبية التي جعلت المسيحيين فريقين متعاديين متحاربين : الملكانية ؛ وهم حزب الملك والحكام وهم الاقلية الذين تعضدهم الحكومة والمسيحيون من الاغريق والروم ، واليعقوبية وهم السواد الاعظم من قبط مصر ، وقد قوى هذا الاختلاف والنضال بين الروم والقبط بسبب الاختلاف في الجنس غير أن الخلاف الديني كان أثره أقوى ، بل إنه كان علة العلل فيما جاء بعد ذلك من السنين ، حيث انحلت عرا الروابط بين الاهليين وحدثت الثورات الداخلية فتمكن الفرس من الاستيلاء على مصر في عهد هرقل ، سواء أكانت إغارتهم عليها انتقاما من القيصر فوكاس أم كان ذلك لضعف الروم

أتم الفرس فتح البلاد المصرية نهائياً سنة ٦١٨ م ، فاذا قيل إن المصريين رحبوا بهم فان ذلك يبنى على مالاقوه من الروم في جميع العصور الماضية ، واذا قيل إنهم نظروا اليهم بعين المقت والسخط فذلك لأنهم يكرهونهم أولا من طريق الدين، وثانيا لأنهم في فتحهم سفكوا الدماء وسلبوا الاموال وانتهكوا الحرمات وفرضوا الجزية على الكنائس ، واستصفوا ما كان لها من أوقاف وأرزاق وربما كان ذلك في السنوات الاولى التي قضوها في تمهيد سلطانهم - غير أن الفرس لم يكونوا قط متعصبين لدينهم فلم يرغموا أهل البلاد على اعتناق دينهم ، بل تسامحوا بعد قليل مع المسيحيين حتى أباحوا لهم أن

يستعيدوا كنائسهم التي خربها الفرس في حروبهم ، وكان كسرى نفسه يشهد مجالسهم الدينية ويحرص على إزالة ما بينهم من خلاف إما لغيرته على مصالحهم وقد صاروا من رعاياه وإما لمعالجة أمور الدولة وإحكام سياستها خشية الاضطراب . ولقد جرى عماله بمصر على سنته في هذا الشأن حتى اطمأن الناس اليهم وإلى أعمالهم فلبثوا من جراء ذلك بمصر عشر سنين أو اثنتي عشرة سنة ، وكان أثرهم في البناء بالاسكندرية أعظم مما كان من التدمير بها . وبعد أن استقروا غير منازعين كانت ميولهم الى العدل أقرب ، وجنوحهم الى السلم أكثر وخضع المصريون لهذا السيد الجديد ، بعد أن زال عنهم جبروت السلطان القديم

ضاق هرقل ذرعا بما وصلت إليه الحال في دولته وخيبت الايام آماله حتى اضطر الى طلب الصلح من كسرى فأبى ونظر الى خزائنه فاذا هي خاوية والى أعدائه فاذاهم أقوى منه ، فهم بان يخلع عنه تاجه ، أو ينقل حضرة ملكه إلى قرطاجنة ؛ فحال بينه وبين ما أراد بطريق القسطنطينية ، وعندذلك لمعت له بارقة أمل فاستعد لاثارة حرب صليبية ضد الفرس الوثنيين . ووجد من الروم استعداداً وإقبالا فتأتى له أن يجمع منهم ١٢٠ ألف مقاتل وكان الفرس لا يعرفون إلا الحروب البرية بخلاف الروم فكان هذا من أهم أسباب غلبة الاخيرين

وفي سنة ٦٢٢ م (وهي التي هاجر فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم) خرج هرقل في سفنه وهو يعتقد أنه فارس الصليب فأوقع بالفرس في قبادقيا وغيرها وانتصر انتصارا غريبا في بابه ، فذعر الفرس واستدعوا جنودهم من الاسكندرية وغيرها لينصروهم ، غير أن كسرى هرب من الميدان هروباً مشيناً ، وتمكن هرقل من استعادة صندوق الصليب المقدس الذى كان قد نهبه كسرى من بيت المقدس وانتهى القتال الى صلح بين الدولتين سنة ٦٢٨ ، وكان نصراً عظيما للروم أقاموا

من أجله الاعياد فى أياصوفيا بالقسطنطينية بل والمسيحية وأهلها جميعا إذا أحلوا هرقل من نفوسهم محلا عظيما

وفي سنة ٦٢٩ م خرج هرقل الى الحج لاعادة الصليب الى موضعه في بيت المقدس وفى حمص تلقاه رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتابه الذى يدعوه فيه إلى الاسلام فهل أسلم ؟ وإذا لم يك إسلامه بعيدا فما الذى يدفعه إلى ذلك وهو قائد الصليب ومنقذه وحاميه ؟ أقول : دفعه إلى ذلك أنه مسيحى صحيح الايمان سليم العقيدة مصدق بالانجيل وما جاء فيه من وصف الزعيم العربى الذى لم يعرفه من قبل . وكأنى بك تقول : إن غيرته على المسيحية الحقة هى التى دفعته الى تصديق رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم حينما بلغه كتابه ، ولم يمنعه سلطانه وشدة بأسه ، وانتصاره على الفرس ، أن يخضع إلى مايعتقد أنه الحق ، والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم .

ولما رجع من الحج انصرف الى الاصلاح . وكان من أهم ماعنى به من الامور أمر الدين الذى من أجله اختلف الناس وتفرقوا وكانوا شيعا ، لا من أجل مناهج الحكم ، ولا من جراء اختلاف العصبيات ، وكان من أعز أمانيه أن يوفق بين المذاهب أو يقرب مسافة الخلف بينها حتى يجتمع الناس على كلمة واحدة يحصل بها الوئام ويتم التعاون الذى يثبت عليه كيان الدولة ـ وما يدرينا فلعل ما كان من رواية مسارعته الى الاسلام ، باب فتح له للوصول الى تحقيق هذه الامنية

غير أنه ثبت أنه اتفق مع ثلاثة من زعماء المسيحية وظهر بمذهب جديد فيها لم تقبله طائفة من الطوائف واعتبروه بدعة ، ولذلك تشدد فى حمل الناس عليه ، واستدعى كيروس مطران فاسيس من بلاد القوقاز ، وهو المقوقس ، وولاه بطرقة

الدين في الاسكندرية ، وأمره أن يجمع بين اليعقوبى والملكانى في هذا المذهب الجديد ، وأن يتوسل الى ذلك بما يراه من الوسائل التى تحقق هذا الغرض .

٦ ـ لم يكن المقوقس رئيسا دينيا فحسب، بل كان أيضا حاكما سياسيا فكانت البلاد كلها تحت سلطانه يتصرف فى أمورها كيف يشاء ، وكان جبارا عنيدا فاستعمل سلطتيه في تحميل الناس ما لا يطيقون ، وكان شرما حملوا وأشده عليهم دفعهم بالقوة إلى اعتناق البدعة الجديدة واستعمال ضروب العسف والظلم للوصول الى ما يريد من غير أن يستشير رؤساء المسيحية اليعقوبية بمصر أو يعتد بوجودهم أو حرمتهم أو نفوذهم .

ويظهر أنه لم يك سياسيا ماهرا ، بل كان فظا غليظ القلب مستبدا ، وهذه الاوصاف لا يصح أن تكون في الرجل الذى يعالج المسائل الدينية وحل مشاكلها

جاء المقوقس إلى مصر متظاهرا بالمسالمة الى أقصى حد ، ثم شرع يبين للناس كرئيس دينى حقيقة المذهب الجديد ومزاياه ، فأساء البيان وأساء القوم الفهم ، وكان اليعقوبيون منهم أشد مقاومة وعنادا ، وعدوا أن قبول أى تغيير [ولو لفظيا] في العقيدة خيانة لدينهم وجناية لا غفران لها . فلما رأى المقوقس منهم ذلك استعمل سلطته كحاكم جائر ، وخيرهم بين قبول ما جاء به وبين الاضطهاد الذى لا حدود لاطرافه ، والظلم الذى لا رحمة معه ولا هوادة فيه ، فضرب وجلد وحرق ومثل وغدر ومكر ، وضرب الناس بعضهم ببعض ، فوعد هؤلاء وتوعد الآخرين حتى افتتن كثير من الناس في دينهم تقية ، وصبر فريق فأوذوا أشد الايذاء ، وحتى اضطر بنيامين وهو الاسقف الاعظم أن يفر خفية ، وقد بحث عمال المقوقس عنه ولما لم يعثروا عليه قبضوا على أخيه ميناس وألقوه فى النار حيا حتى

سال دهنه فلم يتزعزع عن عقيدته فحملوه إلى البحر ومنوه بالحياة إن هو نزل على ما يريدون فأبى فألقوه فى اليم فمات غريقا

وبعد فهل التبعة في هذا الظلم على هرقل ؟ الظاهر أنه كان حسن النية ، ولكنه كان سيء الاختيار ، ولو أنه اختار رجلا بصيراً لتحققت آماله ومقاصده وبعد فقد اضطهد المقوقس أهل مصر عشر سنوات متوالية لم تفتر له همة ولا استعمل شيئا من الرحمة ؛ ولذلك عمل القبط على الخلاص منه بتدبير مكيدة لقتله ، ولكنه عرف المتآمرين وأرسل إليهم من قتلهم ، وقد ظل على ذلك حتى بعد موت هرقل

فاذا أضفت إلى ذلك ضروب الظلم الاخرى التى استعملها المقوقس فيهم من الضرائب وفداحتها واطراد الزيادة فيها وتنوعها حتى عمت الارض والماشية والصناعة والتجارة والسفن وأثاث المنازل والرءوس والموتى والسابلة ، وإلى ما فرضه عليهم من إيواء الجند والعمال وإجابة مطالبهم مهما كان شأنها ، وإلى ما كان من حرمان القبط خاصة مما كان للروم كمناصب الحكومة والنيابة في المجالس ، حتى انحطوا إلى الدرك الاسفل فى جميع المرافق وذلوا وافتقروا واضمحلت فنونهم وآدابهم وجهلوا كل ما كان منها حتى كتاباتهم التى نقشوها على آثارهم فظلت سراً غير معروف إلى أن كشف عنها أيام الحملة الفرنسيه

ثم أضفت إلى هذا وذاك ما كان يروى عن حركة رسول الله فى بلاد العرب ثم حركة خلفائه من بعده في فتح الشام والانتصار على جيوش القيصر ، وجدت أن أهل مصر كانوا على استعداد تام إلى الخضوع للمسلمين رجاء أن يكون سلطانهم أخف من سلطان قيصرهم المسيحى وبخاصة حينما علموا أن المسلمين

لا يتدخلون في الديانات ولا يستعملون سلطانهم فى حمل أهل البلاد التى يفتحونها على اعتناق دينهم

ومما تقدم نرى ان أهل مصر كانوا من أهم الاسباب التى سهلت على عمرو ابن العاص فتح مصر ، فضلا عن سوء السياسة التى سلكها الروم معهم ؛ إذ كانت من أهم العوامل فى نفورهم من الروم وقطع أسباب الولاء لهم . و نزوعهم إلى الانفصال والاستقلال كلما سنحت الفرصة، وتطلعهم إلى من ينقذهم من الروم ولو بادخالهم تحت سلطانه ؛ من أجل ذلك كله نظروا إلى حركة المسلمين نظرة الميل والرضا واعتقدوا أن الله قد بعثهم رحمة بالقبط وغيرهم لينتقموا لهم من الروم ، وينقذوهم من الظلم والعذاب الذي يحيق بهم ، فمهدوا لهم طريق الفتح ولم يدخروا وسعا في معونتهم على الروم وإرشادهم إلى الطرق وازالة العقبات التى قد تعترض سبيلهم ؛ ليس ذلك حبا فى دينهم ولكن رجاء الخلاص على أيديهم من ذلك الشقاء الذى نزل بهم على يدى هرقل القيصر وعامله المقوقس فى عشر سنوات متوالية

لاشك أنهم كانوا على بينة من أنهم يعملون على الخلاص من سيد إلى سيد ويستشفون من داء بداء ولكنهم فضلوا التضحيه بوطنهم محافظة على حريتهم فى دينهم ، وربما قدروا أن استقلالهم عن العرب فيما بعد أرجى لهم من استقلالهم عن الروم والله عليم بذات الصدور .

فتح مصر

روى الذهبي أن عمر بن الخطاب كتب الى عمرو بن العاص أن يسير الى مصر فسار ، وروى عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم قال لما قدم عمر ابن الخطاب الجابية قام اليه عمرو بن العاص نخلا به وقال : ياأمير المؤمنين ائذن لى أن أسير إلى مصر ، وحرضه عليها وقال : إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونا لهم وهى اكثر الأرض أموالا واعجزها عن القتال والحرب ، فتخوف عمر بن الخطاب علي المسلمين وكره ذلك، فلم يزل عمرو يعظم أمرها عنده ويخبره بحالها ويهون عليه فتحها حتى ركن اليه عمر وعقد له على أربعة آلاف رجل كلهم من عك وقال له سر وأنا مستخير الله فى مسيرك وسيأتيك كتابى سريعا إن شاء الله تعالى ، فإن أدركك كتابى آمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئاً من أرضها فانصرف، وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابى فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره

فسار عمرو من جوف الليل ولم يشعر به أحد من الناس ، واستخار عمر الله فكأنه تخوف على المسلمين فى وجههم ذلك ، فكتب إلى عمرو يأمره أن ينصرف بمن معه من المسلمين فأدرك الكتاب عمراً وهو برفح ، فتخوف إن هو أخذ الكتاب وفتحه أن يجد فيه الانصراف كما عهد إليه عمر، فلم يأخذ الكتاب من الرسول ودافعه وسار كما هو حتى نزل قرية فيما بين رفح والعريش فسأل عنها فقيل إنها من أرض مصر فدعا بالكتاب وقرأه على المسلمين ثم قال لمن معه : ألستم تعلمون أن هذه القرية من أرض مصر ؟ قالوا بلى . قال فان أمير المؤمنين عهد إلى وأمرنى إن لحقنى كتابه ولم أدخل أرض مصر

أن ارجع ، ولم يلحقنى كتابه حتى دخلنا أرض مصر ، فسيروا وامضوا على بركة الله . انتهى

أما أن كتابا كتبه الخليفة إلى ابن العاص فهذا مما لا مجال للشك فيه — وأما سببه فما سبق من أنه تخوف على المسلمين وجههم هذا بعد أن تروى واستخار الله . ويقال فى سببه أيضا : ان عمرو بن العاص قصد هذا الوجه بغير إذن وسار فى جوف الليل فأخبر الخليفة فكتب اليه يأمره بالرجوع وخشن عليه فى القول ، ويقال فى سببه أيضا : إن عثمان رضى الله عنه دخل على الخليفة فقال له : كتبت إلى ابن العاص أن يسير إلى مصر من الشام ، فقال عثمان يا أمير المؤمنين ، ان عمراً لمجرأ وفيه إقدام وحب للامارة ، فأخشى أن يخرج فى غير ثقة ولا جماعة فيعرض المسلمين للهلكة رجاء فرصة لا يدرى تكون أم لا ، فندم عمر على كتابه إلى عمرو إشفاقا على المسلمين ، فقال عثمان فاكتب اليه إن أدركك كتابى هذا قبل أن تدخل مصر فارجع إلى موضعك وان كنت دخلت فامض لوجهك . وبعد فما كان إذن الخليفة لعمرو مقرونا باستخارة الله إلا إشارة بوجوب التروى قبل الاقدام واحلال الحيطة والحذر مكان التسرع والعجلة ، فان الشاهد يرى ما لا يراه الغائب ، فلما بدا للخليفة أن هذا الوجه قد يكون خطرا على المسلمين كتب إلى ابن العاص بما كتب وهو على بينة من أن الرسول قد يدركه قبل أن يقطع المسافة من معسكره فى قيسارية إلى حدود مصر ، وعلى بصيرة من أنه قد مضى أياما فى الاستعداد إلى هذا الوجه ، فالفرصة فى إرجاعه مازالت سانحة ، أما أنه يأمره بالمضى إن هو دخل مصر أو شيئا من أرضها فوجهة نظره لا تعدو أنه أراد الا يفت فى أعضاد المسلمين ولا يثبط من عزيمتهم بعد أن عاهدوا

الله على الصبر والجهاد فى سبيله بأموالهم وأنفسهم واعتقدوا أنهم لا يحاربون الناس بعدد ولا عدد ، وأقبلوا على مصر وهم يرغبون فى إحدى الحسنيين فاما النصر وإما الشهادة — واما ان عمرا تخلف عن أخذ الكتاب من الرسول فقد بين عمرو نفسه وجهة نظاره ، وقد كان واثقا من أن هذا الوجه أهون عليه وأجدى على المسلمين من كثير من الوجوه ، فاجتهد رأيه لئلا يكون فى الكتاب الأمر بالانصراف عن مصر وهو واثق من أنه لا خوف على المسلمين منه كما كان يتوقع الخليفة ، وقد صدقت فراسته وصح اجتهاده وفتح مصر كلها فى زمن قصير وبعلاج يسير ، على ماسترى

موقعة الفرما

وأقبل عمرو حتى كان بالعريش، ثم تابع حتى وصل إلى الفرما فكان أول موضع قوتل فيه ،قاتله الروم قتالا شديداً نحوا من شهر ثم فتح الله على يديه ويقال إن القبط الذين كانوا بالفرما كانوا يومئذ أعوان عمرو على الروم والمعونه هنا تتبين فى تقديم الزاد ونحوه وفى أنهم كانوا يدلون المسلمين على عورات الروم ، وقد انضم إلى رجال عمرو كثير من بدو طور سيناء رغبة فى الغنيمة ليس غير ، ومع أن الفرما كانت من الحصون فانها اضطرت إلى التسليم وجلا عنها الروم إلى سفنهم وانصرفوا لا يلوون على شيء، ولا بد أن هذا الحصن كان ضعيفا ، وكانت حاميته أقل من أن تحول بين العرب وبين اقتحام البلاد ، وربما كان من عوامل تسليمها فى النهاية الرعب من أخبار انتصار المسلمين على الروم فى بلاد الشام ، والمعروف أن حصن الفرما كان قد هدمه الفرس حين اغارتهم على مصر ، ولم يعد الروم تحصينه ، إذ ما كانوا

يخشون بعد خروج الفرس من أن يغير على بلادهم أحد

ولما بلغ المقوقس قدوم عمرو بن العاص إلى مصر توجه إلى حصن بابليون ليعيده . فكان يجهز على عمرو الجيوش، وكان على الحصن قائد من قواده وكان بالاسكندرية أسقف للقبط يقال له (أبو ميامين) فلما بلغه قدوم عمرو كتب إلى أقباط مصر يعلمهم أنه لا يكون للروم دولة وأن ملكهم قد انقطع وأمرهم بتلقي عمرو — وسبب هذا كله ما كان يقاسيه القبط من الروم من ضروب الظلم والاستبداد والتعصب الديني ، فقد فرضوا عليهم المكوس وزادوا في الضرائب وحرموهم الوظائف الحكومية وصادروهم في عقائدهم ، إذ كان القبط يعاقبة والروم من الملكانيين ، وكأن القبط بمصانعتهم العرب المسلمين يستشفون من داء بداء ، وإلا فما بالهم يقبلون على مساعدة العرب في غير موضع وهم على بينة من أنهم لا يخلصون من سلطان الروم إلا ليكونوا في سلطان العرب ، لعلهم زعموا أن العرب ليسوا في قوة الروم فمن السهل إخراجهم ولو بعد حين ، ولعلهم توهموا أن عقيدة العرب في الله توافق عقيدتهم فيه أو تكاد ، فهم جميعا موحدون أما الملكانيون فهم مشركون فيكون خضوعهم لموافقيهم في العقيدة أولى وأصح من خضوعهم لمخالفيهم —

ثم توجه عمرو لا يدافع إلا بالأمر الأخف حتى نزل القواصر وربما كانت هذه هي قرية العواسجة الآن .

والملحوظ ان عمرا لم يسلك طريق الغرب نصا كما فعل الفاتحون الاولون الذين غزوا مصر كالاسكندر والفرس بل عطف الى ناحية الجنوب والجنوب الغربي . وهذا لأسباب منها

(١) أنه التزم طريق البادية لتكون البادية ملاذه إذا دهمه القوم ، وهو بسلوكها أبصر وعلى اقتحامها أقدر من الروم

(٢) أنه لم يشأ أن يقتحم الى بقاع الخصب من مصر لئلا يحيط به سكانها وكثير ماهم فيأسروه ومن معه أو يقتلوهم أو يقطعوا عليهم خط الرجعة

(٣) لان بحيرة تنيس (المنزلة) إذ ذاك كانت هى والمستغدرات المتصلة بها وكذلك جداول النيل وخلجانه تقف فى طريقه إذا أراد أن يغرب ، وبخاصة لان الجيش كان من الفرسان ولم يك لديهم إذ ذاك ما يتمكنون به من إقامة الجسور على فروع نهر النيل وجداوله إذا اعترضتهم

واقعة بلبيس

ثم تقدم عمرو أيضا لا يدافع إلا بالامر الخفيف حتى أتى بلبيس فقاتل نحوا من شهر حتى فتح الله عليه وسلمت المدينة وكان قائدها هو ارطبون الروم حاكم بيت المقدس الذى فر إلى مصر

وهنا تذكر قصة أرمانوسة بنت المقوقس وأن عمرا أسرها فيمن أسر من أهل بلبيس ولكنه أرجعها إلى أبيها مع أمين من صحبه معززة مكرمة ، فما كان أشد اعجاب المقوقس ودهشته عند ما رأى ابنته ، وما كان أكثر ثنائه على هؤلاء العرب وسمو عواطفهم وأخلاقهم التى لم يعهدها عن العرب من قبل

وإذا صحت القصة فلعل عمرا أراد بذلك أن يبين لقائد مصر الأعظم أنه لم يقصد مصر هو وصحبه طمعا فى مال أو جاء ليمهد بذلك إلى إزالة شىء مما تكون من حدة المقوقس، فتسود حالة سلم بينهما يتمكن الفريقان فيها من

التفاهم فينتهى الأمر فى مصلحتهما من غير أن تراق الدماء ، ولعل عمرا قصد بارسالها فى معية رجل من أصحابه أن يكون الرجل فى أمان حتى يصل بها فيتيسر له أن يدرس احوال الطريق وأحوال المقوقس وجيوشه ، وما عساه قد أحدثه من التحصين وما رسمه من الخطط ، وما هذا على داهية العرب ببعيد

وقد قيل إن أرمانوسة كانت فى طريقها الى زوجها قسطنطين بن هرقل الذى كان قائد قيسارية ؛ فلما فتحها العرب وفر قسطنطين وتحرك عمرو إلى مصر أدركها فى بلبيس

أم دنين

ثم مضى عمرو لا يدافع إلا بالأمر الخفيف حتى أتى أم دنين وكانت على النيل وهى الآن فى قلب مدينة القاهرة ، من حديقة الأزبكية إلى محطة مصر) وكانت حصينة وفى مرفئها سفن كبيرة ، وقد بذل المسلمون فى حصارها قواهم الجبارة واثقين من أن الله معينهم و ناصرهم حتى فتحوها وجعلوها قاعدة حربية وأخذوا سفنها فاستعانوا بها على اجتياز النهر والوصول إلى منف

فقد رأى عمرو أنه يستحيل عليه محاصرة بابليون إن لم يجعل هذا الحصن فى عزلة تامة عما حوله من البقاع ، ومن أجل ذلك قيل إنه أوغل جنوبا وشمالا يستولى على الضياع والقرى حتى صار الحصن فى دائرة إسلامية تنتهى شمالا بنقيوس وجنوبا بضواحى الفيوم ، وفر كثير من قواد الحصون المختلفة فلاذوا ببابليون فصار الحصن بذلك لا يرام منعة وكثرة جند

كان عمرو بن العاص قد أرسل إلى الخليفة يستمده ، وبينا هو فى أعمال الفتح السابقة يترقب المدد من لحظة إلى أخرى إذ جاءه خبر بأن المدد جاء يسارع إلى جهات بابليون لينفذ مارسمه من الخطط فى شأن الحصن ، ولو أن الروم فى هذه الفترة هجموا عليه بمن تجمع فى الحصن فقط لكان للجيش العربى برمته فى مصر شأن غير هذا ، ولكن الله أضلهم واعمى أبصارهم ومن يضلل الله فماله من هاد

عين شمس

لقى المسلمون أمدادهم فى نواحى هذه المدينة وكان المدد أربعة آلاف على كل ألف منهم رجل مقام ألف: الزبير بن العوام وعبادة بن الصامت والمقداد بن الاسود ومسلمة بن مخلد وقد توالت الامداد حتى بلغت أخيرا ١٢٠٠٠ فصار الجيش الأسلامى بها نحو ١٦٠٠٠ ولقد عبر عمرو نهر النيل فى رجوعه على غرة من الروم، والمرجح أن عبوره كان شمالى أم دنين

اتخذ عمرو عين شمس قاعدة حربية ، ثم أحدث مناورة أراد بها إخراج الروم من حصنهم إلى العراء . فخرجوا اليه فسار اليهم بشرذمة من الجند ؛ أعد شرذمة فى أم دنين ، وأخرى فى جهات جبل المقطم سارتا ليلا . فلما التقى الروم بعمرو هوت الشرذمة الأخـــيرة على ساقة الروم فوقعوا بين نارين فانتقضت صفوف الروم فلم يجدوا بدا من أن يغيروا وجهتهم إلى ...ات أم دنين فانقضت عليهم الشرذمة الأولى فتفرق الروم شذر مـذر ؛ ...سارع من نجا منهم إلى الحصن . وملك المسلمون هذه البقعة . وانحصرت ...ى الروم كلها فى الحصن . فوجه المسلمون جيوشهم لمحاصرته لايخشون ...يئاً ؛ وكان من فوائد هذا النصر العزيز أن قادة الروم امتـلأت قلوبهم

رعبا استثمره المسلمون فى الاغارة على بعض القرى شمالا وجنوبا . وأخذ قواد الحصون يهربون منها بل أخذ كثير من أهل البلاد فى الفرار إلى الاسكندرية للاعتصام بها من سيل المسلمين الجارف

حصار بابليون

كان هذا الحصن مشرفا على النيل وأمامه جزيرة الروضة ولا يعرف بالضبط من أنشأه : ألفرس أم الروم . وعلى أى حال فقد كان ذا أسوار منيعة وحصون حصينة . وكان بداخله جملة كنائس وبيع . ربما كانت الكنيسة المعلقة واحدة منها . وكان به مقياس للنيل

تقدم المسلمون لمحاصرته وكان معهم شيء من آلات الحصار غنموه مما فتحوه من الحصون — وكان المقوقس قد وفد من الاسكندرية حينما علم بحركة المسلمين بعد فتح الشام إلى مصر . ولكن قائد الحصن كان الأعيرج من قواد المقوقس . وكان فى الحصن من جند الروم نحو ستة آلاف . وكان القبط معتزلين ينتظرون النتيجه . وما كان اعتزالهم وبهم قوة . بل إنهم كانوا فى غاية الذل والضعف من جراء عسف المقوقس بهم من الناحيتين الدينية أولا والسياسية أو الادارية ثانيا

قاتل عمرو من بالحصن نحو شهر أولا وعلى الرغم من أن الروم كانوا يرمون المسلمين بالمجانيق والسهام فيصيبون منهم أكثر مما يصيب المسلمون من الروم . صابر المسلمون وصبروا حتى يئس الروم واختلفوا فيما بينهم ولما رأوا الجد من العرب والحرص على فتح الحصن تنحى المقوقس وجماعة ممن يثق بهم وخرجوا من الحصن ليلا وتركوا به جماعة يقاتلون العرب . فلحقوا بالجزيرة وأمروا بقطع الجسر الذى يصل بينها وبين الحصن

لم يخرج المقوقس إلى الجزيرة إلا بعد أن استشار أولى الرأى من قادته وحماة قومه ، وكان يتحدث إليهم بأن العرب قد سحقوا جيوش الروم بالشام سحقا، وأنهم بعد ذلك جاءوا لحصارنا ، ولا نرجو وصول مدد من الروم إلا بعد أيام طويلة . ولا بد لنا من معالجة الحال ببذل المال للعرب حتى يرحلوا وتعود مصر إلى الروم ، فاتفقت كلمتهم على أن يخرج إلى الجزيرة ليلا فى جمع . ويبعثوا إلى القائد العربى فيفاوضوه فى الأمر سرا ، حتى لا يفت ذلك فى أعضاد الجند ، وكان رفع الجسر بين الحصن والجزيرة لئلا يتبعه الناس إذا علموا بخروجه ،فأرسل المقوقس إلى عمرو :

«إنكم قد ولجتم فى بلادنا وألححتم على قتالنا. وطال مقامكم فى أرضنا . وإنما أنتم عصبة يسيرة . وقد أظلتكم الروم وجهزوا اليكم ومعهم من العدة والسلاح وقد أحاط بكم هذا النيل . وإنما أنتم أسارى فى أيدينا ، فابعثوا الينا رجالا منكم نسمع من كلامهم ، فلعله أن يأتى الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب ، وينقطع عنا وعنكم القتال قبل أن يغشاكم جموع الروم فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه. ولعلكم أن تندموا إن كان الأمر مخالفا لمطلبكم ورجائكم فابعثوا الينا رجالا من أصحابكم نعاملهم على ما نرضى نحن وهم به من شىء »

فلما أتت عمرا رسل المقوقس حبسهم يريد بذلك أنهم يرون حال المسلمين ثم ردهم ورد معهم :

إنه ليس بينى وبينكم إلا احدى ثلاث خصال : إما أن دخلتم فى الاسلام فكنتم إخواننا وكان لكم مالنا . وإما أن أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، وإما أن جاهدناكم حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين»

فلما جاءت رسل المقوقس اليهم قال كيف رأيتموهم ؟ قالوا رأينا قوماً الموت أحب إلى أحدهم من الحياة ، والتواضع أحب اليهم من الرفعة ، ليس لأحدهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة وإنما جلوسهم على التراب وأكلهم على ركبهم وأميرهم كواحد منهم ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ولا السيد من العبد .

فحلف المقوقس بالذى يحلف به لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها وما يقوى على قتال هؤلاء أحد . ولئن لم نغتنم صلحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل لم يجيبونا بعد اليوم إذا أمكنتهم الارض وقووا على الخروج من موضعهم ـ وإذا كان هذا رأى القائد العام ؛ فما بال الجند !

ثم رد اليهم المقوقس رسله يقول لهم : ابعثوا الينا رسلا منكم نعاملهم ونتداعى نحن وهم إلى ما عساه يكون فيه صلاح لنا ولكم

فبعث عمرو عشرة نفر أحدهم عبادة بن الصامت وكان طوله عشرة أشبار وأمره أن يكون متكلم القوم ، وألا يجيبهم إلى شىء دعوه إليه إلا إحدى هذه الثلاث الخصال

فلما ركبوا السفن إلى المقوقس ودخلوا عليه تقدم عبادة فهابه المقوقس وقال قدموا غيره فقالوا جميعا إنه أفضلنا رأيا وعلما وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا . وإنما نرجع جميعا إلى قوله وقد أمره الأمير دوننا بما أمره وأمرنا ألا نخالف رأيه وقوله ـ فتقدم فى النهاية عبادة وبين للمقوقس أنه لو رأى من وراءه من أصحابه لكان أهيب لهم منه وقال : وأنا قد وليت وأدبر شبابى وإنى مع ذلك بحمد الله ما أهاب مائة رجل من عدوى لو استقبلونى جميعا وكذلك اصحابي ، ثم أخذ يشرح له أغراضهم من الجهاد

وزهدهم فى الدنيا ورغبتهم فى الآخرة. حتى قال المقوقس لأصحابه : إن هذا وأصحابه قد أخرجهم الله لخراب الأرض. وما أظن ملكهم إلا سيغلب على الأرض كلها

ثم أقبل على عبادة وحمد له قوله. ثم هدده بالروم وبأسها ونجدتها وأظهر العطف عليهم من جهة طول الأمد عليهم وضيق ذات يدهم ثم قال : ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين دينارين ولأميركم مائة دينار ولخليفتكم ألف دينار ، فتقبضونها وتنصرفون إلى بلادكم قبل أن يغشاكم مالا قبل لكم به

فقام عبادة وورد عليه ردا قويا . ومن قوله : فلعمرى ماهذا بالذى تخوفنا به ولا بالذى يكسرنا عما نحن فيه ، إن كان ماقلتم حقا فذلك والله أرغب ما يكون فى قتالهم وأشد لحرصنا عليهم لأن ذلك أعذر لنا عند الله إذا قدمنا عليه. إن قتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا من رضوانه وجنته .... ومامنا من رجل إلا وهو يدعو ربه صباحا ومساء أن يرزقه الشهادة وألا يرده إلى بلده ولا إلى أرضه ولا إلى أهله وولده، واما قولك إننا فى ضيق وشدة من معاشنا وحالنا، فنحن فى اوسع السعة ، لو كانت الدنيا كلها لنا ماأردنا منها لأنفسنا أكثر عما نحن فيه ، فانظر الذى تريد ، فليس بيننا وبينك خصلة نقبلها منك، ولا نجيبك إليها الا خصلة من ثلاث ، فاختر أيتها شئت، ولا تطمع نفسك فى الباطل بذلك أمرنى الأمير ، وبها أمره أمير المؤمنين وهو عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبله إلينا .

ثم أخذ عبادة يبين له نتائج كل منها فيما لو اجابوا اليها فان اجابوا الى الاسلام كان لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم وكانوا للمسلمين اخوانا ورجع

المسلمون عن قتالهم. وإن ابوا الا الجزية أدوها عن يد وهم صاغرون. ثم يعاملهم المسلمون على شيء يرضاه الفريقان فى كل عام . ويقاتلون عنهم من ناوأهم إذ يصبحون فى ذمتهم وإن أبوا كانت المحاكمة الى السيف

قال المقوقس : هذا لا يكون ابدا ماتريدون الا ان تتخذونا عبيدا ما كانت الدنيا ؟ فقال عبادة هو ذلك فاختر ماشئت فقال المقوقس : أفلا تجيبونا الى خصلة غير هذه الخصال الثلاث ؟ فاقسم عبادة مالكم عندنا خصلة غيرها فاختاروا لأنفسكم

فالتفت المقوقس الى اصحابه وقال : قد فرغ القوم فما ترون ؟ فقالوا : أو يرضى احد بهذا الذل ... ؟ انترك دين المسيح وندخل فى دين لا نعرفه ، ام نرضى أن يسبونا ويجعلونا عبيدا ؟ الموت ايسر من ذلك . لو رضوا منا ان نضعف لهم ما اعطيناهم مرارا كان أهون علينا

فقال المقوقس لعبادة : راجع صاحبك على أن نعطيكم فى مرتكم هذه ما تمنيتم وتنصرفون ، فقام عبادة وأصحابه ، ومالت نفس المقوقس الى الاذعان معتقدا أن المسلمين الذين انتصروا فى الشام لا بد ان ينتصروا فى مصر وذهبت منه الجرأة ، وهاب الاقدام وهان عليه الاستسلام ، غير ان جند الحصن لم يميلوا ميله، وعزموا على الاستبسال فى ميدان القتال؛ فقال لهم المقوقس: اطيعونى واجيبوا القوم الى واحدة من الثلاث ، فوالله مالكم بهم طاقة ، فقالوا واى خصلة نجيبهم اليها ؟ فقال أما دخولكم فى غير دينكم فلا آمركم به، وأما قتالهم فانا أعلم انكم لن تقووا عليهم ولن تصبروا صبرهم ، ولا بد من الثالثة قالوا : فنكون لهم عبيدا ابدا قال نعم ، تكونون عبيدا مسلطين فى بلادكم آمنين على أنفسكم وأموالكم وذراريكم ، خير لكم من أن تموتوا عن آخركم وتكونوا

عبيداً وتمزقوا فى البلاد مســــتعبدين أبدا أنتم وذراريكم ، قالوا فالموت أهون علينا — وأمروا بقطع الجسر بين الجزيرة وبر الفسطاط

على هذا انتهت المفاوضات ، ولم تقبل واحدة من الثلاث التى عرضهـا الرسل . فعاد العرب إلى الحرب وحاصروا الحصن وبه جمع كثير من القبط والروم . وكان ذلك أيام فيض النيـل ، ولـكن الله أنزل نصره على المسلمين فقتلوا منهم خلقا كثيرا ، وأسروا من أسروا . فقـــال المقوقس لأصحابه : ألم أعلـكم هذا وأخافه عليكم ؟ ومازال يهددهم ويخوفهم حتى أذعنوا بالجزية ورضوا على صلح يعرفونه

قال بعض المؤرخين من الفرنجة : ويظهر أن كبار الروم طلبوا أن يهادنهم العرب شهرا ليروا فيه رأيهم . فأجابهم عمرو : انه لن يمهلهم أكثر من ثلاثة أيام، ولم تنته حتى أخذ أهل الحصن يستعدون للخروج إلى العرب للمناجزة من غـير أن يبعثوا ردا إلى عمرو ، وقد خرجوا فى اليوم الرابع فأخذوا المسلمين على غرة . غير ان المسلمين سارعوا إلى سلاحهم وقاتلوا الروم قتالا شديدا ، وقاتل الروم يومئـذ مستبسلين ، ولـكنهم تراجعوا فى النهاية ودخلوا الحصن لائذين ، بعد أن قتل منهم عدد كبير

وكان المقوقس لايزال على رأيه من التسليم للعرب ، فرأى فى هزيمـة الروم فرصة مناسبة لتنفيذ ما أراد ، وبخاصة حينما أيقن أن الروم بعد هذه الهزيمة لا يعصون له أمرا ، وأنهم جميعاً على رأيه فى أنهم لن يستطيعوا طرد المسلمين من البلاد

فأرسل إلى عمرو : إنى لم أزل حريصاً على إجابتك إلى خصلة من الخصال التى أرسلت إلى بها فأبى على من حضرنى من الروم والقبط ... وقد عرفوا

نصحى لهم وحبي صلاحهم ورجعوا إلى قولى ، فاعطنى أمانا أجتمع أنا فى نفر من أصحابى وأنت فى نفر من أصحابك ، فان استقام الأمر بيننا تم لنا ذلك جميعاً . وإن لم يتم رجعنا إلى ما كنا عليه

فاستشار عمرو أصحابه فأبوا أن يجيبهم إلى شيء، لتكون الأرض كلها فيئا وغنيمة . فذكرهم بعهد أمير المؤمنين عمر . ونبههم إلى ماهم فيه من حيلولة الفيض بيننا وبين ما نريد من قتالهم . وأجاب القوم إلى ما طلبوا ، وكانت الخصلة التى اختارها الروم هى الجزية والتسليم وعلى ذلك اجتمعوا واصطلحوا

(١) على ان يفرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها دينارين دينارين على كل نفس ، شريفهم ووضيعهم ، ممن بلغ منهم الحلم . ليس على الشيخ الفانى ولا على الصغير الذى لم يبلغ الحلم . ولا على النساء شيء

(٢) وعلى ان للمسلمين عليهم النزل بجماعتهم حيث نزلوا . ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين أو أكثر من ذلك كانت لهم ثلاثة أيام مفترضة

(٣) وأن لهم أرضهم وأموالهم لا يتعرض لهم فى شيء منها

(٤) وعلى ان المقوقس له الخيار فى الروم خاصة حتى يكتب إلى القيصر يعلمه بما فعل . فان قبل ذلك ورضيه جاز عليهم ، وإلا كانوا جميعاً على ما كانوا عليه

هذا ما تذكره المصادر العربية فى شأن شروط الصلح بين عمرو والمقوقس عند حصار بابليون . ولكن الباحثين من ثقات المؤرخين المتأخرين من الفرنجة يرون أن الصلح بهذا التفصيل لم يك إلا بعد أن ذهب المقوقس إلى القيصر وعاد إلى الاسكندرية . ويعززون ماذهبوا إليه بأن هنالك شرطا خامساً تذكره المصادر العربية وهو :

(٥) وشرط المقوقس للروم أن يخيروا . فمن أحب منهم أن يقيم على مثل هذا أقام على ذلك لازما له مفترضا عليه ممن أقام بالاسكندرية وما حولها من أرض مصر كلها . فقد جاء فيه ذكر روم الاسكندرية . وفتح الاسكندرية والمقتضى لهذا الشرط وغيره لم يحصل بعد . فصلح بابليون إنما كان عهدا حربيا مؤقتا كما يتضح من الشرط الرابع . وكان لا يمس الا البقعة التى فيها الحصن وما حوله من القرى

والثابت بعد هذا الصلح المؤقت : ان المقوقس أخذ على نفسه عهدا بأن يبعث به إلى هرقل .

وأن الروم والعرب اتفقوا على أن تبقى الجيوش حيث هى الى أن يجىء ردهرقل وأن يبقى الحصن مع الروم إلى أن يقر هرقل الصلح

وقد سافر المقوقس فى النيل إلى الاسكندرية . وبعث إلى الامبراطور بما كان منه . ويعتذر بأن الضرورة هى التى قضت بصلح العرب . ويسأله أن يقر الصلح مراعاة لصالح مصر وأهليها . فحار الامبراطور فى الأمر وأخذ يضرب أخماسا لأسداس، ثم استقر أخيرا على أن يستدعى المقوقس . فلم يجد هذا بدآ من إجابة الطلب على الرغم من إنه لم يوفق فى مصر . لا فى العمل الدينى وهو نشر الملكانية أو بدعة هرقل . ولا فى السياسى لاستعماله العسف بدل الدهاء، مما جر إلى تعاون القبط مع العرب على الجيش الرومى؛ ولا فى الحربى لأنه بتسليمه للعرب يصح اعتباره قد خان الخيانة العظمى — وما كاد يواجه القيصر حتى كان موضع سخطه وغضبه ، فأخذ المقوقس يبين له هول مالقى من العرب وأنه لاسبيل إلى دفعهم وغلبتهم ، وأن الصلح معهم قبل فتحهم الحصن عنوة ؛ خير من أن تصبح البلاد لهم غنيمة ، فاتقد القيصر غيظا

واتهم المقوقس بأنه خان الدولة والملة ، وارتكب مايستحق القتل ، ثم أسلمه إلى حاكم القسطنطينية ثم انتهى أمره بالطرد ، وبالضرورة قد نقض الامبراطور الصلح الذى عقده المقوقس مع العرب ، ووصلت أخباره إلى العرب والروم بالحصن فاستعد الفريقان للحرب كما هو منطوق الشرط الرابع ، ثم حصلت بينهما مناوشات وكثيرا ما كان أهل الحصن يخرجون فيأخذون المسلمين على غرة أو يرمونهم من فوق الحصن بالحجارة حتى شدد المسلمون عليهم الحصار فقل خروجهم ؛ وانحطت عزائمهم ، ثم انتشر الوباء فيهم فقل عددهم ، وتأخر المدد عنهم فأيقنوا بالهلاك . وبينما هم بين الرجاء واليأس إذ سمعوا تكبيرا عاليا من عسكر المسلمين . فلما عرفوا أن سببه وصول الأخبار بهلاك القيصر . سقط فى أيديهم . وازدادوا قنوطا وخورا . وكسر الله بموته نفوسهم فى حين أنه زاد المسلمين قوة وجرأة على مهاجمة الحصن الذى بقى بعد ذلك شهرا لا يسلم

فلما أبطأ الفتح على عمرو . قال الزبير : انى أهب نفسى لله تعالى وأرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين . فوضع سلما إلى جانب الحصن من الجنوب الغربى . وكان ذلك ليلا . ثم صعد وأمرهم إذا سمعوا تكبيره يجيبونه جميعا فما شعروا إلا والزبير على رأس الحصن يكبر ومعه السيف . فتحامل الناس على السلم . حتى نهاهم عمرو . خوفا أن ينكسر السلم . وكبر الزبير تكبيرة فأجابه المسلمون من خارج . فلم يشك أهل الحصن (ويظهر أنهم كانوا نياما) أن العرب قد اقتحموا جميعا الحصن — ولو كان بهم قوة لاستطاعوا أن يرموهم بسهامهم فيقضوا عليهم أو يردوهم على الأعقاب . ولكن شيئا من ذلك لم يكن . وانما الذى كان أن كبارهم اجتمعوا على عجل وخرجوا فسألوا

عمرا الصلح ، وعرض قائد الحصن أن يسلم علي أن يأمن كل من فى الحصن على أنفسهم . اقبل عمرو وفتح القائد الباب فنزل الزبير وخرج من الباب يعترض عمرا فى الاجابة إلى الصلح وقال له لو صبرت قليلا لنزلت من السور إلى داخل الحصن ، ولكان الأمر على ماتشتهى . فلم يلتفت اليه . وكتب عهد الصلح على أن يخرج الجند من الحصن فى ثلاثة أيام . فينزلوا بالنهر ويحملوا مايلزم لهم من القوت لبضعة أيام .

فأما الحصن ومافيه من الذخائر والآلات الحربية . فانه يكون غنيمة للمسلمين . وأما مدينة مصر التى تقع جنوبى الحصن فان أهلها يدفعون الجزية . وكذلك القرى التى كانت فى هذه البقعة من مثل عين شمس

على هذا انتهى تسليم الحصن بعد حصار دام نحو سبعة أشهر (من سبتمبر سنة ٦٤٠ إلى أبريل سنة ٦٤١ م . وهو يوافق سنة ٢٠ هجرية) فمن يقول ان الحصن فتح صلحا فهذا سبيله . ومن يقول إنه فتح عنوة فانما ينظر إلى أن حملة الزبير أدت إلى أن يسلم أهل الحصن ويصالحوا . واذ قد بينا أنه كان هنالك شروط للتسليم . فلا معنى للأخذ بقول بعض المؤرخين من أن المسلمين فتكوا بمن كانوا فى الحصن وأسروا وغنموا . وكان القتلى منهم أكثر من اثنى عشر ألفا . ولعل ذلك كان من الروم فيمن سجنوهم من القبط فى خلال الحصار .

ومما يذكر هنا أن الأسقف المصرى حنا كان يقول : إن فتح المسلمين للحصن لم يكن إلا عقابا من الله على مافعله الروم من الأفاعيل فى القبط .

تسلم المسلمون حصن بابليون . وكان لتسليمه رنة حزن وفزع فى قلوب

الروم . لأن هذه المحلة بمافيها كان لها شأن عظيم . لتوسطها بين إقليمى مصر . ومالك الحصن خاصة يسهل عليه تملك مصر برمتها وبخاصة إذا كان المسلمون بعد حيازته صار فى أيديهم بالفعل النصف الشرقى من بلادالدلتا . وقدزاد فى تمكن المسلمين ان عمرا أمر باقامة الجسر الذى بين برالفسطاط والجزيرة والذى بين الجزيرة و برالجيزة . ورمم الحصن وقواه وجعل فيه مسلحة من المسلمين . عليهم خارجة بن حذافة السهمى

فتح الاسكندرية

ورد أن المقوقس كان قد كتب إلى القيصر بعد صلح بابليون يخبره بما تم ، فكتب اليه يقبح رأيه ويعجزه ويرد عليه مافعل ، ويقول فى كتابه :
«إنما أتاك اثناعشر الفامن العرب . وبمصر من بها من كثرة عدد القبط مالا يحصى . فان كان القبط قد كرهوا القتال وأحبوا أداء الجزية إلى العرب واختاروهم علينا . فان عندك من الروم بالاسكندرية ومن معك أكثر من مائة ألف معهم العدة والقوة . والعرب وحالهم وضعفهم على ما قد رأيت فعجزت عن قتالهم ورضيت أن تكون أنت ومن معك من الروم فى حال القبط أذلاء . فقاتلهم أنت ومن معك من الروم حتى تموت أو تظهر عليهم فانهم فيكم على قدر كثرتكم وقوتكم . وعلى قدر قلتهم وضعفهم — كأكلة فناهضهم القتال ولا يكن لك رأى غير ذلك وكتب القيصر بمثل ذلك إلى جماعة الروم

أما المقوقس فقد علمت أنه ذهب إلى القيصر بعد تفكير وروية . وأما الروم بالاسكندرية فانها استعدت وجاشت . وقدم عليهم جمع عظيم من أرض الروم . وأما عمرو فانه قدفرغ من أمر الحصن وماحوله وكتب إلى

الخليفة بما تم له واستمده ثم قصد إلى الأسكندرية سائرا والضفة الغربية لفرع رشيد

وأول حصن قصداليه مدينة نقيوس وهى على الشاطىء الشرقى لفرع رشيد بين بابليون والأسكندرية . وموضعها الآن (شبشير) . فلما حاذاها عبر اليها ففر منها قائدها . فلم يجد حماتها بدامن الفرار . فدخل المسلمون المدينة بغير قتال وبذلك خلا الطريق إلى الأسكندرية من الحصون .

ثم عاد المسلمون إلى البر الغربى الصحراوى . فاوقعوا بالروم فى جهات طرنوط أوالطرانة بموضع يسمى إلى اليوم كوم شريك (وهو شريك بن سمى المرادى . وكان على مقدمة عمرو) ثم أوقعوا بالروم مرة أخرى فى سلطيس وهى قرية جنوبى دمنهور . ومرة ثالثة بحصن كريون مع استبسال الروم هنا وطول أمد القتال الذى استمر أكثر من عشرة أيام انتهت بهزيمة الروم وفتح المسلمين الحصن نخلا الطريق نهائيا إلى الأسكندرية ولما استراح الجيش سار عمرو بالمسلمين ولم يلق كيدا حتى بلغ أسوار هذه المدينة . وإذا بها حصينة لاترام . ومبانيها السامقة الجميلة تأخذ بالألباب. وتقوى عند المسلمين الاقدام والاستبسال رجاء أن تصبح ملكا لهم ويقولوا هذا ماوعد الله ورسوله . وصدق الله ورسوله

حاصر العرب هذه المدينة العظيمة . على الرغم من أن مسلحتها عظيمة وحصونها عظيمة . والمدد يمكن أن يأتيها لأنها مفتوحة من ناحية البحر وعلى الرغم من أن المسلمين لم يكن لديهم من آلات الحصار شىء يعتد به وكل مالديهم إنما هو قوة العزيمة والصبر وماألفوه من التغلب على حصون الشام ومصر — وقد أمطرهم الروم من فوق أسوار المدينة وابلا من

المقذوفات العظيمة . فلم يسعهم حينئذ إلا أن يوسعوا دائرة الحصار قليلا حتى لا تصيبهم قذائف الرماة . وحتى يكون ذلك محرضا للعدو على أن يخرج اليهم ولكن شيئاً من هذا لم يجد نفعا

وهنا ننوه بأن المصادر العربية كلها تذكر أنه بعد طول الحصار جاء من دل المسلمين على باب ولجوا منه إلى داخل المدينة . وأعملوا السيف فى أهلها حتى فروا فى البر والبحر وملك المسلمون المدينة عنوة

ولكن المحققين من المؤرخين الذين اعتمدوا فى تأريخهم فتح مصر الاسلامى على ديوان حنا النقيوسى. يرون أن عمرا لما علم أنه لن يستطيع أخذ المدينة بالهجوم عول على أن يخلف جيشا كافيا للمرابطة ثم يسير ببقية الجيش فى مصر السفلى . واثقا من أن المرابطين إذا خرج اليهم العدو صبروا كعادتهم وثبتوا وغلبوه . فسار إلى كريون ودمنهور . ثم عبر الفرع الغربي للنيل حتى وصل إلى سخا . وبعد نحو سنة عاد إلى بابليون

ظل المرابطون حول الاسكندرية ، وعمرو بن العاص فى بابليون حتى عاد المقوقس من القسطنطينية بعد أن جرى له هنالك ما جرى. وأخيرا استعاده قسطنطين بن هرقل من منفاه ، ولما هلك قسطنطين تولى بعده أخوه هرقل ابن هرقل، فما زال المقوقس يفتله فى الذروة والغارب حتى أقنعه بوجوب التسليم للعرب . ويظهر أن تمسك المقوقس بالتسليم للعرب لم يك إلا من طريق أنه يئس يأسا تاما من الانتصار عليهم بمصر. وبخاصة حينما علم ما حل ببلاد الشام . أو من طريق أنه طمع فى أن العرب يولونه ـ وقد صالحهم وسعى فى حمـــل الامبراطور على إقرار هذا الصلح ـ أمر الكنيسة فى مصر فلا يكون لأحد فى القسطنطينية أمر عليه ولا نهى

ولما عاد المقوقس إلى الاسكندرية لبث مدة حتى استقرت الأحوال فيها ثم خرج وحده قاصدا بابليون. وهنالك وافى عمرو بن العاص فرحب به حينما قرأ على وجهه أنه طالب صلح وإذعان. وسرعان ما صرح المقوقس بما صدق فراسة عمرو. وانتهى الأمر بينهما على كتابة شروط الصلح الذى يقضى فيما يقضى بتسليم الاسكندرية وهى حاضرة مصر. وبه تم للعرب فتح هذه الديار. ومن هذه الشروط:

(١) أن يدفع الجزية كل من يدخل فى العقد

(٢) أن يكف الفريقان عن القتال

(٣) أن يرحل من يريد الرحيل من جند الاسكندرية على ألا يعودوا

(٤) وأن يبعث الروم من قبلهم رهنا يكونون بمثابة ضمان لا نفاذ هذا العهد

هذا هو فتح الاسكندرية الأول. وهو على ما رأيت كان صلحا. كما يستفاد من الطبرى.

وبعد انتهاء الصلح أرسل عمرو إلى الخليفة بالصلح وتسليم الاسكندرية، فصلى شكرا لله على ما أولى — وأما المقوقس فأنه سارع إلى الاسكندرية لاعلان هذا الصلح، فثار عليه الناس، ولكنه تمكن بمهارة ولباقة من إقناعهم بأن الصلح في مصلحتهم حقنا للدماء واستبقاء للاموال والأولاد.

وانتهى الأمر بدخول جند الاسلام مدينة الاسكندرية (٦٤٢ م) وبذلك دخلت مصر كلها فى سلطان المسلمين

أما بعد، فعلى من تقع تبعة هذه الخسارة الرومانية الكبرى وزوال ملكها فى مصر؟ ولا بأس من الاحاطة بشيء مما قيل فى هذا الشأن:

(١) فمن الباحثين المدققين من يجعل ذلك على المقوقس وحده

أولا لاستعماله العسف مع القبط حتى رأوا أن التعاون معـــه جريمة وساعدوا العرب مساعدة سلبية على الأقل إن لم تك مساعدة فعلية . ولقد بررها بعضهم بأن القبط كانوا يرون العرب موحدين مثلهم وأما الروم فانهم كفرة ـــ

وثانيا . أنه لم يتخذ الاحتياط الذى ينبغى لحاكم مثله أن يتخذه . إذ كان الحزم يقضى عليه أن يقيم الارصاد والربط فى الصحراء إلى العريش حتى يتدارك مالابد للعرب منه. وهو أغارتهم على مصر بعد أن تم لهم فتح الشام . فيعبئ الجيش ويسارع إلى لقائهم عند أول حصن بين الشام ومصر وهو (الفرما) إذا جاءته الاخبار من الارصاد بأن العرب تحركوا . ولكنه لم يفعل. مع أن حصار هذا الحصن استمر شهرا كاملا

وثالثا بطمعه فى جانب العرب حتى يجعلوه رئيسا دينيا منفصلا . أى أنه عمل على فصل بطرقة الاسكندرية عن القسطنطينية بالاتفاق مع العرب ، منتهزا هذه الفرصة لخيانة دولته . وأخيرا اقنع الامبراطور بوجوب إقرار الصلح وتسليم الاسكندرية أو البلاد المصرية برمتها

(٢) ومنهم من يرد ما كان من ذلك إلى حامية الاسكندرية وأهلها ؛ مع أن العرب عجزوا عنها ، وهى أيضا حصينة والمدد يمكن أن يأتى اليها من جهة البحر على الأقل ، ومع هذا كله قبلوا الصلح الذى عرضه عليهم المقوقس أخيرا وأذعنوا لحكم المسلمين . مبررين عملهم : بفساد حكم الروم فى السنين الأخيرة ، وكثرة الضرائب الفادحة التى لاحدود لها ـــ أما العرب فقد أحلوا محل ذلك الجزية وخراج الأرض . وذلك كله ضئيل خفيف محدود

ويأنهم ضعفوا من طول الحرب وسئموا فأصبحوا لاحول لهم ولاقوة يستطيعون بها الهجوم على العرب بالخروج اليهم وطردهم من مصر ولوأنهم الآن فى شىء من ذلك ، ولوان مدينتهم تستطيع الصبر على الحصار مدة طويلة ومنهم من يرد ذلك إلى ضعف الدولة الرومانية نفسها بعد ما أصابها من الخذلان المتوالى والهزيمة المتكررة فى الشام ومصر ، ويضاف إلى ذلك الاضطراب الداخلى الذى عم نواحيها منذ موت هرقل ، فاغفلت من جراء هذا الأمر الهام فى حياتها وهو الدفاع ، فتركت أمر مصر لمن بها من الروم حتى ظهر منهم ماظهر أخيرا وهو تسليم الأسكندرية

وبالتأمل ترى أن تبعة الأمر كله تقع على عاتق المقوقس وضعف سياسته وإدارته وطمعه — نقول هذا للتاريخ وإن كان ماعمله فى صالح الفتح الاسلامى (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا)

وبعد فان فتح الأسكندرية قضى على آمال أهل مصر عامة فى دولة الروم فلم يبق موجب لمدينة من المدن أن تقف فى وجه العرب ، ولذلك يمكن أن نقول : إن بقيه الفتح فى أسفل الأرض وأعلاها تم على وجه سهل وبعلاج يسير ، وإن بلاد الصعيد أذعنت للعرب بعد فتح الأسكندرية بغير قتال ، وقد روى أن العرب ساروا من الأسكندرية إلى رشيد فصالحهم حاكمها وكذلك حاكم البرلس ، ولم يقف لهم حاكم دمياط ، ثم ذهبوا إلى تنيس ففتحوها بعد مقاومة ، كما روى أن الفيوم أقامت مدة والمسلمون لايعلمون بها حتى أتاهم آت فذكرها لهم فأرسل عمرو معه أحد قواده على رأس جند ، فلما سلكوا المجابة لم يروا شيئا فهموا بالانصراف ، فقال لا تعجلوا

سيروا ، فان كان كذبا فما أقدركم على ما أردتم فلم يسيروا إلا قليلا حتى طلع سواد الفيوم ، فهجموا عليها فلم يك عندهم قتال وألقوا ما بأيديهم

تأسيس الفسطاط

لما انتهى عمرو من أمر الاسكندرية ودخلها الجند هم أن يسكنها وقال مساكن قد كفيناها ، فكتب إلى عمر بن الخطاب يستأذنه فى ذلك فسأل عمر الرسول ، هل يحول بينى وبين المسلمين ماء؟ قال نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل ، فكتب عمر إلى عمرو : إنى لا أحب أن تنزل المسلمين منزلا يحول الماء بينى وبينهم فى شتاء ولا صيف ، فتحول عمرو من الأسكندرية إلى الفسطاط . ولما قفل المسلمون من الاسكندرية : قالوا أين نتزل؟ قال : الفسطاط ، الفسطاطه الذى كان خلفه ، كما روى فى قصة اليمامة التى رآها قد باضت عليه حينما هموا بالسير إلى الأسكندرية ، فمنعهم أن يهدموه حتى تفرخ ، فأبقوه حتى عادوا من فتح الاسكندرية فبنوا مدينة الفسطاط حيث كان .

وقد نجد من المناسب هنا أن نقول إن الفسطاط فى اللغة وهو الخيمة ، وهو أيضا كل مدينة ، أو الموضع يجتمع فيه الناس ، ويذهب البعض إلى أن الكلمة أغريقية الأصل، وكانت تطلق على العسكر وأن العرب أخذوها عن الاغريقية وسموا به مدينتهم إلى أسسوها إذ كانت حول حصن بابليون وهو موضع العسكر

هذا وقد انضمت القبائل بعد العودة بعضها إلى بعض وتنافسوا فى الموضع فولى عمرو على الخطط أربعة من رجاله فكانوا هم الذين انزلوا الناس وفصلوا بين القبائل أما الذين تولوا بناء المساكن فهم القبط إذ

أنهم كانوا أدرى من العرب بهذه الحرفة ، وقد ابتدأت الفسطاط صغيرة ، ثم نمت نموا مطردا وفى خلال سنة واحدة صارت عظيمة وكانت تسمى فسطاط مصر ، وظل حضرة مصر الاسلامية إلى أيام ظهور الدولة العباسية واستيلائهم على مصر ، فأنشئت شمالى الفسطاط مدينة العسكر ، وانتقلت اليها حضرة مصر ، ثم فى عهد ابن طولون بنيت القطائع . ولما ملك الفاطميون مصر استحدثوا مدينة القاهرة المعزية التى لا تزال حضرة البلاد المصرية إلى اليوم

وواضح أن اختيار هذه البقعة لتأسيس الفسطاط قد جمع بين رغبة الخليفة وبين ما يراعى فى انشاء الحواضر والمدن الهامة ، فان تأسيسها على رأس دلتا النيل وتجاه الجسرين يسهل الأشراف على أسفل الأرض وأعلاها بمصر

بناء المسجد الجامع

ثم بنى عمرو المسجد المضاف اليه ، وهو أقدم مساجد مصر ، وهو المسجد الجامع ، وجامع عمرو ، وقد اقامه المسلمون فى الموضع الذى حازه أبو عبد الله قيسبة بن كلثوم التجيبي أحد بنى سوم . وكان قد سار من الشام إلى مصر مع عمرو فدخلها فى مائة راحلة وخمسين عبدا وثلاثين فرسا ، فلما أجمع المسلمون على حصار الحصن نظر قيسبة فرأى جنانا تقرب من الحصن فعرج اليها فى أهله وعبيده فنزل وضرب فيها فسطاطه ، وأقام فيها طول حصارهم الحصن حتى فتحه الله عليهم ، ثم خرج قيسبة مع عمرو إلى الاسكندرية ، وخلف أهله فيها . ثم فتح الله عليهم الاسكندرية وعاد قيسبة إلى منزله هذا فنزله ، واختط عمرو داره مقابل تلك الجنان التى نزلها قيسبة ،

وتشاور المسلمون أين يكون الجامع فرأوا أن يكون منزل قيسبة ، فسأله عمرو فيه وقال أنا أختط لك ياأبا عبد الرحمن حيث أحببت ، فقال قيسبة لقد علمتم يا معاشر المسلمين أنى حزت هذا المنزل وملكته ، وإنى أتصدق به على المسلمين ، وارتحل فنزل مع قومه بنى سوم ، واختط فيهم ، وبنى الجامع فى سنة ٢١ فى هذا الموضع بناء ساذجا ذرعه خمسون ذراعا فى ثلاثين وقد وقف على إقامة قبلته ثمانون رجلا من المسلمين ، فيهم الزبير بن العوام والمقداد بن الاسود وعبادة بن الصامت وأبو ذر وابو الدرداء وغيرهم ومع ذلك كانت قبلته مشرقة جدا حتى هدمه قرة بن شريك فى زمان الوليد بن عبد الملك وتيامن بها قليلا — وكان له بابان يقابلان دار عمرو ، وبابان فى بحريه وبابان فى غربيه ، وكان سقفه مطأطئاً جدا ولا صحن له ، وكان الطريق محيطا به من جميع جوانبه — وكان عمرو قد اتخذ منبرا ، فكتب له عمر يعزم عليه فى كسره ويقول « أما بحسبك أن تقوم قائما والمسلمون تحت عقبيك » فكسره عمرو

ثم مازال هذا المسجد يتعهده ولاة مصر فى العصور المختلفة بالزيادة فيه وإحكام بنائه حتى صار إلى ماهو عليه الآن

اختطاط الجيزة وحصنها

لما اختطت القبائل بالفسطاط استحبت همدان الجيزة ، فكتب عمرو إلى الخليفة يعلمه بما صنع الله المسلمين وما فتح عليهم وما صنعوا فى خططهم وما استحبت همدان ، فكتب اليه الخليفة يحمد الله على ما كان من ذلك ويقول له : كيف رضيت بأن تفرق أصحابك ، ولم يكن ينبغى لك أن ترضى لأحد من أصحابك أن يكون بينك وبينهم بحر لا تدرى مايفجؤهم

فاملك لا تقدر على غياثهم حين ينزل بهم ما تكره ، فاجمعهم اليك ، فان أبوا وأعجبهم موضعهم . فابن عليه من فىء المسلمين حصنا ، فعرض ذلك عمرو عليهم فأبوا وأعجبهم موضعهم بالجيزة ومن والاهم على ذلك من رهطهم وأحبوا ما هنالك فبنى لهم عمرو الحصن بالجيزة وفرغ منه سـنة ٢٢ من الهجرة .

خليج أمير المؤمنين

روى أن الناس بالمدينة المنورة أصابهم جهد شديد فى خلافة عمر عام الرمادة فكتب إلى عمرو : سلام عليك أما بعد فلعمرى ياعمرو ماتبالى إذا شبعت أنت ومن معك ، أن أهلك أنا ومن معى ، فياغوثاه ثم ياغوثاه (يردد قوله) فكتب اليه عمرو (أما بعد) فيالبيك ثم يالبيك ، قد بعثت اليك بعير أولها عندك وآخرها عندى والسلام

فلما قدمت وسع بها عمر على الناس ثم كتب إلى عمرو يأمره بحفر خليج من النيل حتى يسير فى بحر القلزم ، وقال : فهو أسهل لما نريد من حمل الطعام إلى المدينة ومكة فان حمله على الظهر يبعد ولا نبلغ معه ما نريد ، فبعد أن عرض ذلك على أهل مصر فاستثقلوه وتخوفوا منه على طعامهم وانصرف إلى العمل وجمع الفعلة واحتفر الخليج الذى فى حاشية الفسطاط الذى يقال له خليج أمير المؤمنين (وفى موضعه الآن شارع الخليج المصرى) فساقه من النيل الى القلزم ، فلم يأت الحول حتى فرغ منه وجرت فيه السفن ، فحمل فيه ما أراد من الطعام إلى المدينة ومكة ، فنفع الله بذلك أهل الحرمين ، وليس فى مصر خليج إسلامى غيره . وكان حجاج البحر يركبون فيه من ساحل تنيس يسيرون فيه ثم ينتقلون بالقلزم إلى المراكب الكبار

ويظهر أن الصلة بين النيل وبين القلزم كانت قديمة ثم أهمل أمرها ففسدت فاستعادها عمرو ، وبذلك يعلل لسرعة إنجازها فى سنة

ويقال إن عمرا أراد أن يحفر خليجا آخر يتفرع من خليج أمير المؤمنين عند بحيرة التمساح إلى بحر الروم ؛ ولكن الخليفة أبى عليه ذلك وأنكره وقال :

إنه يمكن الروم من الوصول إلى بحر القلزم وقطع السبيل على من يريد الحج

أساليب عمرو بن العاص فى حكمه بمصر

(١) فى الأمور الدينية — كان القبط قد نفس عنهم بفتح مصر الاسلامى وزوال حكم الروم الذين كانوا يصادرونهم فى عقيدتهم ويحملونهم بالقوة على اعتناق مذهب يرونه كفرا صريحا ، ومع ذلك فان عمرا لم يتحيز فى حكمه إلى فريق دون فريق ، بل سار فى حكمه على سنة المساواة والتسامح بدليل أن عددا من الملكانيين ظل مقيما بمصر أياما طويلة بعد الفتح ، آمنين مطمئنين فى ظلال الحكم الاسلامى العادل من غير قيد ولا شرط إلا دفع الجزية الذى كان شرطا عليهم وعلى غيرهم من أهل الذمة

(٢) فى الأمور السياسية والادارية — لم يرسم المسلمون خطة سياسية أو إدارية فى مصر بعد فتحها ينقضون بها ما كان العمل جاريا عليه ، بل تركوا إدارة ذلك كله إلى من كانوا يزاولونه من الروم حتى تركوا أعمالهم مختارين وهاجروا فأحل المسلمون محلهم رؤساء القبط ، حتى جاء وقت كان عمال البلاد جميعا من المسيحيين ليس بينهم واحد من المسلمين . ولكن

ذلك كله تحت مراقبة شديدة تتفق مع الذكاء العربي و الاحتياط الذى يدعوهم دينهم اليه عند معاملتهم من يخالفونهم فى الدين ويظهر أن المسلمين اضطروا إلى ذلك اضطرارا ، إذ لم يكونوا قد حذقوا فنون الحكم

ولم يك لديهم مايصح إدخاله على النظام المقرر لشعب راق عريق فى التمدين وضعت له نظم ثابتة متينة الأساس ، يقوم بتنفيذها مهرة العمال الذين شبوا واكتهلوا فى المران على الاجراءات السياسية والادارية حتى برزوا فيها . من جراء ذلك تخلى المسلمون عن مزاولة المسائل الادارية فى مصر وتركوها وما هى عليه وتخلوا عنها للتفرغ إلى أمور دينهم وحروبهم ، حتى لقــد جعلوا جباية الخراج والجزية فى جماعة من أهل كل بلد على نفس النظام الذى كان يتبعه الروم فى الخراج وحده دون الجزية ، اذ جزية المسلمين على القبط كانت محدودة معلومة ، أما الخراج فقد كان يتبع حال الفيض وحال الزراعة معا ، روى أن زعماء الناس فى القرى كان عليهم أن يجتمعوا لينظروا فى حال الزراعة ويجعلوا جباية المال مناسبة لذلك . فاذا اجتمع من ذلك المـال شيء فوق مافرض على قريتهم أنفق فى إصلاح احوالهـا ، وكانت تجعل فى كل بلد قطعة من الأرض يخصص ريعها لاصلاح الأبنية العامة وصيانتها كالكنائس ، وكذلك كانوا يقدرون مايفرض على الناس من المـال لضيافة العرب كما جاء فى شروط الصلح .

ولم يك للمسلمين غير الجزية والخراج عند القدرة عليهما أما ضرائب الروم فكانت فوق الطاقة ، ولا تتقيد بالقدرة على أنها لم تك عادلة إذ كانوا يفرضونها على فريق ويعفون منها فريقا آخر ، أما العرب فجعلوا الناس سواسية فيما فرض عليهم ، ولذلك ساد السلم بين الناس ولم يتمعض منهم إلا الفريق الذى فرض

عليه شيء من ذلك من جديد وكان الروم قد أعفوه منه

ولا يخفى أن عدم تحديد الخراج كالجزية وتقييده بحال الفيض والزرع يجر غالبا الى شيء من التصرف السيء والاجحاف بالناس فعمرو بن العاص مثلا كان يتساهل قليلا رأفة بأهل البلاد ، ودقق عبد الله بن سعد بعده فزاد الخراج ، وفي هـــذه الاشارة مايغني عن الاسهاب والله لا يضيع أجر من أحسن عملا

وقد ظل عمرو بن العاص في الفسطاط مع جنده مرابطين مستعدين للطوارىء لا يفارقونها إلا أيام الربيع فيقول لهم إنه قد حضر الربيع ، فمن أحب منكم أن يخرج بفرسه يربعه فليفعل ، ولا أعلمن ماجاء رجل قد أسمن نفسه وأهزل فرسه،فاذا حمض اللبن وكثر الذباب وقرى العود فارجعوا إلى قيروانكم ، يعني الفسطاط

ويروى أنه قال فيهم ... واعلموا أني معترض بالخيل كاعتراض الرجال فمن أهزل فرسه من غير علة ، حططت من فريضته قدر ذلك ، واعلموا أنكم في رباط إلى يوم القيامة ، لكثرة الأعداء حولكم ، وتشوف قلوبهم إليكم وإلى دياركم معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية — وأمر مناديه أن يخرج إلى أمراء الأجناد يتقدمون إلى الرعية بأن عطاءهم قائم ، وأن رزق عيالهم سائل ، فلا يزرعوا . وقد استقل شريك بن سمى عطاءه واستأذن في الزرع عمرا فأبى ، فزرع شريك من غير إذن فشكاه عمرو إلى الخليفة فقال ابعث إلي به فقال له عمر لأجعلنك نكالا لمن خلفك ، قال أو تقبل مني ماقبل الله من العباد ؟ قال وتفعل ؟ قال نعم ، فكتب الخليفة إلى عمرو : إن شريك بن سمى جاءني تائبا فقبلت منه

وهذا مما يدل على أن الخليفة وافق عامله بمصر على ترك الأعمال الاداريه إلى أهلها وتفرغ الجند إلى ماخرجوا من أجله وهو الجهاد فى سبيل الله لاعلاء كلمة الله لا لأمر آخر .

وقد بقى عمر بن الخطاب حيا بعد فتح مصر ثلاث سنين ، قدم عليه فيها عمرو قدمتين استخلف فى ثانيتهما ابنه عبد الله . وكان الخليفة قد ولى عبد الله بن سعد على الصعيد وعلى الخراج ، فلما قتل عمر وتولى عثمان قدم عليه وسأله عزل ابن سعد فامتنع وعزل عمرا عن مصر وعقد لابن أبى سرح على مصر كلها مضافة للصعيد وغيره بعد أن لبث ابن العاص واليا على مصر أربع سنين واشهرا

الفتح

لما تم استيلاء المسلمين على البلاد المصرية ، تطلع عمرو بن العاص إلى جعلها قاعدة حربية يرسل منها الجنود إلى ما يجاور مصر من الأقاليم جنوبا وغربا ، وقوى فى نفسه هذا الأمر عوامل أهمها :

(١) أن جند الروم عاهدوه على أن يخرجوا من مصر ولا يعودوا

(٢) كثرة من تحت يده من جند المسلمين الذين وفدوا عليه تباعا لمعونته على فتح مصر

(٣) أنه قد فرغ من وضع نظام الحكم فى مصر على الوجه الذى يضمن الطمأنينة ، ويكفل استقرار الامور وانصراف الناس إلى أعمالهم المعاشية آمنين فى ظلال هذا الحكم الجديد ، وبخاصة فى الاسكندرية التى سلمت أخيرا .

١ — فتح برقة وطرابلس

فأول ما كان من عمرو فى هذا الشأن أنه سار على رأس جيش من الاسكندرية مغربا سنة ٢٢ هجرية حتى وافى برقة فسالمت إليه صلحا على جزية سنوية معلومة مقدارها ثلاثة عشر ألف دينار يحملونها إلى مصر بأنفسهم من غير أن يحتاجوا إلى من يدخل عليهم بلادهم من أجنادنا ، ولهم أن يتخذوا من الوسائل ما يكفل الوفاء بها ولو كان ذلك ببيع ذراريهم

ولما فرغ من أمر برقة سار إلى طرابلس : وهى على نحو الاسكندرية فى مناعتهـا وحماتها من الروم — فلما أشرف عليها أقفلت أبوابها فى وجهه فحاصرها مدة طويلة حتى أجهدهم الحصار . ولكنهم لم يسلموا إلى أن استدل فريق من العرب على ناحية من جهة البحر اقتحموا منها الأسوار ودخلوا المدينة على أهلها فذعروا وعمدوا إلى أمتعتهم فحملوا ما أمكن أن يحملوه منهـا وفروا إلى سفنهم وهربوا فيها ، وكان من الهاربين حراس الأبواب فتركوها فدخل بقية الجيش الاسلامى المدينة .

ثم أسرع عمرو إلى مدينة سبرة فأخذ أهلها على غرة ولكنهم قاوموا ففتحها عنوة

ثم كتب إلى الخليفة يستأذنه فى فتح أفريقية فلم يأذن له وقال له إنها مفرقة لأهلها مشيرا إلى أنها كثيرة العصبيات . وقلما يستطيع المسلمون أن يستقر لهم حكم فيها ـ على أن فتحها يجشم المسلمين أكثر مما يرجى من الفائدة منها ولهذا سارع عمرو إلى العودة بجيشه ظافرا منصورا سالما غانما .

ب — فتح النوبة أو بلاد الاتيوبيين

كان أهل النوبة وهم سكان وادى النيل فيما وراء أسوان يهددون مصر بالاغارة كلما اسنحت لهم فرصة ، طمعاً فى مصر وخيراتها ، إذ بلادهم غالبا صحراوية ماحلة ، ولأن تاريخهم يذكرهم بأنهم قد ملكوا مصر حينا

شعر عمر بهذا العدو المتحفز فأرسل اليه عسكراً غير أن النوبيين كانوا أرمى من العرب وأكثر اصابة للهدف ، ولذلك انهزم العرب أمامهم وعادوا على غير العادة مخذولين وظل أمر النوبة على هذا الحال إلى أن تم بينهم وبين المسلمين الصلح على تبادل المنافع فى خلافة عثمان وولاية ابن أبى سرح على مصر

انتقاض الاسكندرية وفتحها الثانى

قيل إن أول من حرض اهل هذه المدينة على نقض العهد والخروج على المسلمين رجل من حكام بعض القرى الذين فصلوا اجاء فقال لعمرو كالمتحدى أخبرنا ما على احدنا من الجزية فقال له : لو أعطيتنى من الركن الى السقف ما اخبرتك ، انما انتم خزانة لنا ، ان كثر علينا كثر عليكم ، وان خفف عنا خفف عنكم ، فغضب نخرج الى الروم بالقسطنطينية فقدم معهم، فلما هزموا أسر ذلك الرجل وجيء به الى عمرو ، فقال له الناس اقتله ، قال لا ، وأمر به فألبسه سوارين وكساه ، وقال له مستهزئا بل انطلق فجئنا بجيش آخر من جيوش الروم .

وروى فى سبب انتقاض أهل الاسكندرية ان عمر بن الخطاب لما ولى عبد الله بن سعد الخراج وجاء عثمان فعزل عمرا وجعل لابن سرح أمرها كله، زاد فى خراج اهل الاسكندرية فأثر ذلك فى نفوس أعيان المدينة وكتبوا الى الامبراطور يطلبون إليه أن يخلصهم من المسلمين وبينوا له أن حامية المدينة

ضعيفة لاتستطيع الدفاع فما هو الا ان انتهز الامبراطور هذه الفرصة وأعد العدة سرا وسيراسطولا الى الاسكندرية بقيادة منويل لم يشعر المسلمون به حتى ألقى مراسيه فى الميناء ودخل المدينة الروم ، واعملوا السيف فى مسلحتها فقتلوهم إلا من استطاع الفرار من وجوههم وملكوا المدينة وقيل ان عمرا كان يومئذ بمكة وقيل انه كان لا يزال بمصر ، وعلى اى حال فان عثمان أمره ان يتولى حرب الروم بناء على الحاح اهل مصر ففعل ، وكان على الاسكندرية سورها ، فحلف عمرو بن العاص : لئن أظفره الله عليهم ليهدمن سورها ، حتى تكون كبيت الزانية يؤتى من كل مكان ، فقال خارجة ابن حذافة لعمرو ، ناهضهم القتال قبل أن يكثر عددهم ، ولا آمن أن تنقض مصر كلها فقال عمرو ، لا ، ولكن ادعهم حتى يصيروا إلى ، فانهم يصيبون من أهل القرى ، وأخذ يستعد . أما الروم فقد أضاعوا هذه الفرصة وعكفوا على ملاذهم وشهواتهم ولم يسارعوا إلى بابليون وتهاونوا حتى استتم عمرو ما شرع فيه من الاستعداد التام ؛ ثم تحركوا ومعهم من نقض من روم الأسكندرية ومن أهل القرى المجاورة ، فجعلوا ينزلون القرية فيشربون خمورها ويأكلون أطعمتها ، وينهبون ما مروا به ، فلم يتعرض لهم عمرو حتى بلغوا نقيوس

وهنالك لقيتهم طلائع العرب واشتد القتال وأصاب النشاب يومئذ فرس عمرو فعقر فنزل عنه وحارب راجلا ، ثم أنزل الله نصره على المسلمين فانهزم الروم وطلبهم المسلمون حتى ألحقوهم بالأسكندرية فدخلها فلول الروم وأقفلوا أبوابها فحاصرها المسلمون إلى أن تقدم أحد البوابين إلى المسلمين بأن يؤمنوه على نفسه وأهله وماله ويفتح لهم الباب فأجابوه

ففتح الباب ودخل المسلمون منه واعملوا السيف فى أهل المدينة حتى توسطوها فأمرهم عمرو أن يكفوا فكفوا ولاذت طائفة من الروم بالسفن فهربوا فى البحر بعد أن قتل كثير منهم وبينهم منويل ، وسبي كثير من النساء والذرارى فكانوا فيئا للمسلمين وهدم سورها كله ، حتى سواه بالأرض ، وكان القبط فى خلال هذا كله يبذلون للمسلمين المعونة ويقيمون لهم الجسور ويمدونهم بالأدلاء ويبرهنون أنه لا شأن لهم فى ثورة الاسكندرية وكان ذلك بتحريض بطريقهم الأكبر بنيامين الذى ذهب إلى عمرو فعرض عليه مساعدة القبط بشروط

(١) ألا يبذل للروم من شروط الصلح مثل ما بذل للقبط

(٢) ان يجازى القبط على ولائهم بأن تحسن معاملتهم لأن النقض لم يأت من قبلهم

(٣) أن يدفن إذامات فى كنيسة عينها

وبالتأمل ترى أن الروم هم الذين نقضوا من جانبهم هم والامبراطور فقد قبلوا الصلح وأقره الامبراطور ، فاذا فتحها المسلمون بعد ذلك وأعملوا السيف والنار فيها فان حجتهم فى ذلك كله واضحة وتبرير اعمالهم مع ما كانت عليه من قسوة لاغبار عليه ، على أن عمرا أرسل بفريق من أسرى الروم إلى عثمان فعفى عمن اشترك فى الثورة منهم ، وردهم إلى ذمة المسلمين على الجزية التى فرضت ، وكأن المدينة قد فتحت صلحا لا عنوة . ولما استتم عمرو فتح الأسكندرية وهزم الله الروم أراد عثمان عمرا أن يكون على الحرب وعبد الله بن سعد على الخراج فقال عمرو : أنا إذاً كماسك البقرة بقرنيها وآخر يحلبها ! وخرج من مصر فلعب دورا هاما فى الفتنة التى أدت إلى قتل

عثمان ، ثم فى انضمامه إلى معاوية بن أبى سفيان ، ثم فى دعوة أصحاب على بن أبى طالب إلى التحكيم ، ثم فى المسير إلى مصر وفتحها فتحا إسلاميا جديدا وانتزاعها من محمد بن أبى بكر وعودة عمرو إلى ملك مصر ثانية سنة ٣٨ هجرية

مكتبة الإسكندرية

وقبل أن ننتقل إلى بحث آخر نشير بهذه الكلمة إلى حريق مكتبة الإسكندرية التى نسب إحراقها إلى عمرو بن العاص بإشارة من أمير المؤمنين عمر معتمدين فى ذلك على النتائج التى وصل إليها بحث المستشرقين من النصارى باعتبار أنهم أهل الملة الأخرى الذين لا يدخرون وسعاً فى تلمس ما يسيء سمعة المسلمين ويسجل عليهم الجهل والحمق

كان بالإسكندرية مكتبة للبطالسة عنوا بها حتى صارت عظيمة جدا وهذه بقيت إلى ما قبل المسيح بنحو ٤٨ سنة ، وفى هذه السنة كان يوليوس قيصر محصورا فى الإسكندرية فأحرق السفن التى فى الميناء ، فامتدت النار فأحرقت المكتبة وما فيها

ثم أنشئت مكتبة أخرى بقيت إلى سنة ٣٨٩ بعد الميلاد ، وهذه أيضا أحرقها المسيحيون من أهل مصر انتقاما من الوثنيين وكتبهم

وعليه فلما كانت أيام الفتح الاسلامى لم يك بمصر مكتبة تسمى مكتبة الإسكندرية وبعد هذا الفتح مرت ستة قرون كاملة لم يقل فى خلالها مؤرخ من أى دين إن عمرا أحرق مكتبة الإسكندرية ، فمن أين جاءت هذه الفرية .

من المدهش حقا أن نقول إن مصدرها رجل مسلم هو عبد اللطيف البغدادى صاحب كتاب الافادة والاعتبار ، المتوفى سنة ٦٢٩ هجرية فقد قال فى

شأن دار العلم التى بناها الاسكندر « وفيها كانت خزانة الكتب التى حرقها عمرو بن العاص باذن عمر بن الخطاب »

ويظهر أنه كان يتلقف الأخبار من تراجمة الآثار فيصدقها على علاتها من غير تمحيص ولا رجوع إلى كتب التاريخ ، وما ظنك به وهو يقول : إن الفار بمصر يتولد من طينتها !

ثم جاء من بعده القفطى المتوفى سنة ٦٤٦ هجرية فوضع كتابه تاريخ الحكماء ونقل عبارة البغدادى وشرحها وأدخل فيها ما عساه يطفىء ثورة تعصبه وجاء المؤرخون من بعدهما كالمقريزى وابن العبرى ، فالأول يقتبس عبارة البغدادى والثانى ينقل عبارة القفطى

ومما يسقط هذه التهمة إسقاطا تاما أن القفطى يذكر فى هذا الشأن ما كان من صداقة يحيى النحوى أو حنا الجراماطيقى لعمرو بن العاص وأنه طلب من عمرو أن يعطيه شيئا من كتبها فاستشار الخليفة فأمره باحراقها ، هذا الرجل ثبت أنه هلك قبل الفتح الاسلامى بزمن طويل

ولو أن شيئا من إحراق المكتبة أو إتلافها حصل من العرب ماسكت عنه كاتب من أهل العلم كان قريب العهد من الفتح وهو يوحنا النقيوسى بل كان على الاقل يشير إليه ولو فى سطور قليلة

والنتيجة بعد هذا أن قصة إحراق العرب مكتبة الاسكندرية أصبحت بعد طول البحث والتنقيب حتى من أعداء المسلمين قصة خرافية ملفقة ، وربما اشتبهت على مصدقيها أو واضعيها بقصة أحراق كتب المجوس بالعراق فى عهد عمر

الحوادث المهمة فى عهد عبد الله بن سعد

هو عبد الله بن سعد بن أبى سرح العامرى عامر لؤى أو عامر قريش ولى مصر بعد عزل عمرو من قبل عثمان وظل أميراً عليها طول مدة خلافته وكان يكتب للنبى صلى الله عليه وسلم فزين له الشيطان فلحق بالكفار فأهدر رسول الله دمه فيمن أهدر يوم فتح مكة ، فلاذ بعثمان إذ هو أخوه لأمه ، فشفع له عثمان عند رسول الله فشفع ، وقد شهد فتح مصر واختط بها وكان صاحب الميمنة فى الحرب مع عمرو فى فتح مصر وله مواقف محمودة فى الفتوح

١ - غزوة أفريقية

وفى السنة الثالثة من إمارته أمره الخليفة عثمان بغزو أفريقية وشجعه على الاقدام بأن جعل له خمس الخمس من الغنيمة اقتداء بعمر فيما صنعه مع جرير ابن عبدالله البجلى وقومه حين أغزاهم العراق ، فسار عبدالله بن سعد ومعه العبادلة : عبد الله بن عمر ، وعبدالله بن عمرو ، وعبد الله بن الزبير ، وكان المسلمون فى عشرين ألفا ، وجرجير صاحب أفريقية فى مائتى ألف فافتتح المسلمون سهلها وجبلها . وقتلوا خلقا كثيرا من أهلها ومنهم جرجير ، وفتح الله عليهم وغنموا مغانم كثيرة ثم اجتمع أهلها على الطاعة والاسلام وأخذ ابن سرح خمس الخمس من الغنيمة وبعث بأربعة أخماسه إلى عثمان ، وقسم أربعة أخماس الغنيمة فى الجيش ، فأصاب الفارس ثلاثة آلاف دينار والراجل ألف دينار وفى السنة التاسعة من إمارته وهى سنة ٣٣ هـ نقض أهل افريقية العهد فغزاهم حتى أقرهم على الاسلام والجزية .

٢ - غزوة ذات الصوارى

لم يكتف قسطنطين القيصر بأنه نقض العهد وسير الجيش البحرى إلى

الاسكندرية فملكها ، وبأن جيشه هذا انهزم واستعاد المسلمون هذه المدينة وأعملوا فى أهلها السيف والنار معا — فأعاد الكرة على مصر ناكثا وإنما نكث على نفسه ، إذ كان المسلمون بعد فتح الاسكندرية قد أعدوا السفن للغزو البحرى وما كان لهم أيام اغارة منويل من سفينة سار . قسطنطين نفسه فى سبعمائة سفينة أو أكثر ، والتقى بسفن المسلمين وهى مائتان أو أقل ، وربطوا السفن الأمامية بعضها إلى بعض ، وحصل القتال على ظهورها فانتصر المسلمون وهزم الروم ، وفجعوا فى أسطولهم إذ أصابت سفنهم الخلفية زوبعة من أعاصير البحر المتوسط فدارت وغرقت فى اليم بمن فيها فلم ينج منها إلا عدد قليل سار فى واحدة منها قسطنطين حتى وصل إلى صقلية فيقال إن أهلها قتلوه لأنه أذل الروم بانهزاماته المتكررة ، وعاد عبد الله بن سعد ظافرا منصورا

تدخل مصر فى أمور الخلافة

لما عاد عبد الله من ذات الصوارى فى سنة ٣٥ هـ بلغه خبر من ثار على عثمان وأن جماعة منهم دخلوا مصر ؛ وكان فيها طائفة من أبناء الصحابة يؤلبون الناس على عثمان وعلى ابن سرح ، وكان لهم نظائر فى بقية الأمصار من البصرة والكوفة

وأصل هذا إجمالا سخط الناس على الخليفة وعلى عماله الذين اختارهم من أقاربه ، وعزل شيوخ الصحابة وأحلهم محلهم ، ومن ذلك عزل عمرو عن مصر وتولية ابن سعد وعزل أبى موسى الأشعرى عن البصرة وتولية عبد الله بن عامر وهو ابن خال عثمان وله من العمر ٢٥ سنة وعزل سعد بن أبى وقاص عن الكوفة وتولية الوليد بن عقبة بن أبى معيط وهو أخو

عثمان لأمه

واتفق أنه ظهر رجل من أهل اليمن هو عبد الله بن سبأ يهودى تظاهر بالاسلام فى الحجاز ورجا من وراء ذلك المال أو الجاه فلم يؤبه له هنالك فرحل إلى البصرة وأظهر الطعن على عثمان ورجاله فطرده عبد الله ابن عامر فرحل إلى الكوفة فأحدث فيها مثل ذلك، فطرد إلى الشام ولكنه لم يجد من أهلها من يصغى إلى قوله لأنهم كانوا لا يعدلون ببنى أمية أحدا لكثرة ما أغدق عليهم معاوية

ولكن بعث أباذر على معاوية إذ قال له : معاوية يقول المال مال الله وإنما هو مال المسلمين ، فكلم أبوذر معاوية فى هذا الشأن وما زال به حتى قال : أقول المال مال الله ، وكتب إلى عثمان فى شأنه ثم سيره اليه فلم يلبث أبو ذر أن طلب إلى عثمان الاذن فى الخروج من المدينة فأذن له فذهب إلى جهات الربذة ، وهنالك لقى ربه رضى الله عنه وكانت حكاية أبى ذر فى حله وترحاله قد ألبسها الناقمون على عثمان ثوبا غير ثوبها الحقيقى فكانت من أسباب الثورة

قالوا : نفى أباذر ؛ وغرب أباذر ، وأهان صاحب رسول الله .. . إلى غير ذلك مما هو منه براء

ثم فر ابن سبأ إلى مصر فوجدها صالحة لبث ما يدعو اليه وكان فصيحا مؤثرا فقال برجعة رسول الله صلى الله عليه وسلم مستدلا بقول الله تعالى (إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) ثم انتقل من ذلك إلى الطعن فى عثمان واستخلافه وأنه انتهب الخلافة من وصى رسول الله على ابن أبي طالب فالتفت عليه جماعة من الرعاع فكانوا شيعة لعلى وأخذوا

يكاتبون نظائرهم ممن سمم عقولهم ابن سبأ فى البصرة والكوفة ، واتفق له وجود محمد بن أبى حذيفة ومحمد بن أبى بكر الصديق بمصر ، جمعهما السخط على عثمان لأنه لم يولهما كما ولى عبد الله بن عامر والوليد بن عقبة ، ثم وصل اليهم بعد قليل عمار بن ياسر ، أرسله عثمان ليتعرف أسباب السخط عليه فانضم إلى هؤلاء فى رأيهم لأنه كان فى نفسه من عثمان شيء - ومازال أهل مصر يعملون ويكاتبون المنحرفين بالمصرين حتى اتفق الجميع على الخروج إلى عثمان وسارت ركائبهم سنة ٣٤ وجمهورهم من أهل الكوفة .

أما أهل مصر فخرجوا فى ستمائة راكب فى صفة معتمرين فى شهر رجب وساروا إلى المدينة وأمرهم إلى عمرو بن بديل بن ورقاء الخزاعى وعبد الرحمن التجيبى ، وأقبل معهم محمد بن أبى بكر وأقام بمصر محمد بن أبى حذيفة يؤلب الناس ويدافع عن هؤلاء ، فكتب ابن سعد إلى عثمان بقدوم هؤلاء منكرين عليه فى صفة معتمرين ، فوقع لهم مع عثمان أمور يطول شرحها إلى أن سألوه عزل ابن سرح وتولية ابن أبي بكر عليهم فأجابهم إلى ذلك فرجعوا وبينما هم فى الطريق وجدوا بريديا يسير فأخذوه وفتشوه فاذا معه فى أداوة كتاب كتبه مروان بن الحكم كاتب عثمان وابن عمه ، والكتاب على لسان عثمان فيه الأمر بقتل طائفة منهم وصلب آخرين وقطع أيدى آخرين منهم وأرجلهم — وكان على الكتاب طبع خاتم عثمان والبريد أحد غلمانه على جمله ، فرجعوا إلى المدينة وداروا بالكتاب على الناس فكلم عثمان فى أمر الكتاب فقال إنه دلس عليه ، وحلف ما كتبته ولا أمللته بشيء من ذلك . والخاتم قد يزور على الخاتم ، فصدقه من صدق وكذبه من كذب واستمر عبدالله بن سعد على عمله على كره من المصريين إلى أن

خرج من مصر متوجها إلى عثمان بعد أن استخلف عليها عقبة بن نافع الفهرى ، وبلغه وهو فى الطريق أن عثمان قتل فعاد إلى مصر فمنعه محمد بن أبى حذيفة من دخولها فعاد من حيث أتى فمات بفلسطين أو غيرها .

أما شأن محمد بن أبى حذيفة فأنه انتزع مصر انتزاعا من عقبة بن عامر خليفة ابن سرح وملكها من غير ولاية من خليفة ، ثم دعا الناس لخلع عثمان وصار يعدد أفعاله بكل شىء يقدر عليه ، فاعتزله الموالون لعثمان وقاتلوه وهم معاوية بن حديج وخارجة بن حذافة السهمى وبسر بن أبى أرطاة ومسلمة ابن مخلد فى جمع كثير من الناس وبعثوا الى عثمان بذلك

وبينما هم ينتظرون الخبر قوى أمر ابن أبى حذيفة وحضر سعد بن أبى وقاص ليصلح الأمر ويتألف الناس ، فخرج اليه جماعة من أعوان ابن أبى حذيفة وكلموه وخاشنوه : قلبوا عليه فسطاطه وشجوه ونهبوه ، فركب من وقته وعاد راجعا

وأراد بن أبى حذيفة أن يعد جيشا لمقاتلة عثمان ، وبينما هم يستعدون إذ ورد الخبر بقتل عثمان فثار الموالون لعثمان وعقدوا لمعاوية بن حديج وبايعوه على الطلب بدم عثمان — فهم العثمانية — وساروا إلى الصعيد فبعث اليهم ابن أبى حذيفة جيشا فهزموه وساروا إلى جهة برقة ثم عادوا إلى الاسكندرية فبعث اليهم جيشا آخر والتقى الجمعان بخربتا فى رمضان سنة ٣٦هـ فانهزم أيضا ، وأقاموا بخربتا إلى أن قدم معاوية من الشام إلى مصر فخرج اليه ابن أبى حذيفة فى أصحابه ومنعوه أن يدخل الفسطاط ، ثم اصطلحا على الكف عن الحرب على أن يقدم ابن أبى حذيفة رهنا وخرج معهم فى عدة من قتلة عثمان . فلما وصلوا إلى معاوية قبض عليهم وحبسهم وسار إلى دمشق فهربوا

فتبعهم أمير فلسطين حتى ظفر بهم وقتلهم

فلما بلغ الخبر أمير المؤمنين على بن أبى طالب وكان قد استخلف ، ولى على مصر قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى الخزرجى ، فدخلها ومهد أمورها واستمال العثمانية بخربتا ورد عليهم أرزاقهم وقدموا عليه بمصر فأكرمهم وأنعم عليهم ، وكان ذا رأى ومعرفة ودهاء ، فعظم على معاوية وعمرو ولايته لمصر ، فانه كان من حزب على ، واجتهدا كثيرا ليخرجاه منها فلم يقدروا حتى عمل معاوية على قيس من قبل على وأشاع أن قيسا من شيعته وأنه يبعث اليه بالكتب والنصيحة سرا ولازال يظهر ذلك حتى بلغ عليا فأنكره ولكن محمد بن أبى بكر لحبه مصر وطمعه فى إمرتها ، وعبد الله بن جعفر ، مازالا بعلى حتى عزل قيسا وأمره بالقدوم عليه وولى محمد بن أبي بكر فتلقاه قيس بن سعد المعزول وقال له ياأبا القاسم ، انك قد جئت من عند أمير لارأى له وليس عزله اياى بمانعى أن أنصح لك وله ، وأنا من أمركم هذا على بصيرة ، وإنى أدلك على الذى كنت أكيد به معاوية وعمرا وأهل خربتا فتكيدهم به ، فانك إن كايدتهم بغيره تهلك ، ووصف له المكايدة فاستغشه وخالفه فى كل ما أمره به وفتك فى المصريين وهدم دور العثمانية ونهب أموالهم وهتك ذراريهم فنصبوا له الحرب وحاربوه ثم صالحهم على أن يسيرهم إلى معاوية فسار فريق منهم وظل أهل خربتا على عثمانيتهم إلا أن شيعة على كانوا أكثر منهم ولذلك كان معاوية يهاب مصر من أجلهم وأراد أن يستعين بأخذ مصر على حرب فى الفترة التى كانت بين قبول التحكيم واجتماع الحكمين إذ لم يشرط على على معاوية فى ضمن ماشرط عدم التعرض الى مصر : فاستشار عمرو بن العاص فى أمر مصر وانتهيا إلى

وجوب استفتاح مصر بقيادة عمرو بعد أن كتب على إلى العثمانية كتابا يثنى عليهم ويقول . هنيئا لكم بطلب دم الخليفة المظلوم وجهادكم أهل البغى فاثبتوا فان الجيش واصل اليكم

ووصل كتابه إلى مسلمة بن مخلد ومعاوية بن حديج وهما بخربتا يقيمان فى عشرة آلاف فكتبا اليه : اما بعد فعجل علينا بخيلك ورجلك فان أعداءنا قد أصبحوا لناهائبين ، فان أتانا المدد من قبلك ، يفتح الله علينا — وكانوا قد باينوا محمد بن أبى بكر إذ لم يحسن معاملتهم ، فلذلك انتقضت عليه الأمور وعلم على فعزله بالأشتر النخعى وكان قد رده إلى عمله بالجزيرة بعد صفين فاستقدمه وأخبره بما جرى لابن أبى بكر بمصر وقال ليس لها غيرك فاخرج رحمك الله فاني إن لم أوصك اكتفيت برأيك ، فخرج الأشتر وعلم معاوية من جواسيسه عند على — ان الأشتر متى قدمها كان أشد عليه ، فعمل على قتله فقتل مسموما بالقازم ، وظل محمد بن أبى بكر على عمل مصر

سار عمرو بن العاص إلى مصر وودعه معاوية وأوصاه بالرفق والتؤدة والعفو ودعوة الناس إلى الصلح والجماعة ، ولما وصل إلى مصر اجتمعت عليه العثمانية فكتب إلى محمد بن أبى بكر أما بعد : فنح عنى بدمك فانى لا أحب أن يصيبك منى قلامة ظفر — والناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك وهم مسلموك ، فاخرج منها فانى لك من الناصحين — فطوى محمد الكتاب مع كتاب تهديد جاءه من معاوية وأرسلهما إلى على وفى ضمنها يستنجده ويطلب منه المدد والرجال فكتب اليه يوصيه ولم يمده بأحد ، ومن أين يمده

وكتب محمد بن أبى بكر كتاباً إلى معاوية وعمرو يخشن لهما فيه ثم خطب فى الناس يحرضهم على جهاد من ساروا اليهم فخرج مع كنانة بن بشر

نحو من ألفى رجل وخرج محمد بن أبي بكر فى ألفين آخرين فأحيط بكنانة حتى قتل فلما رأى أصحاب محمد ذلك تفرقوا عنه فهرب إلى خربة آوى اليها وبذلك تيسر لعمرو دخول الفسطاط ، وخرج معاوية بن حديج بجماعة من العثمانية فى طلب محمد بن أبى بكر فاستدلوا على مكانه ودخلوا عليه وأخرجوه وقد كاد يموت عطشا ؛ فأقبلوا به على الفسطاط فوثب عبدالرحمن بن أبى بكر إلى عمرو فقال : أيقتل أخى صبرا ؟ فأرسل عمرو إلى معاوية بن جديح يأمره أن يأتيه بمحمد بن أبى بكر ، كرامة لأخيه عبد الرحمن فقال معاوية أيقتل كنانة بن بشر وأخلى أنا محمدا ؟ هيهات هيهات ؛ فقال محمد اسقونى ماء ،فقال معاوية لاسقانى الله إن سقيتك قطرة ، إنكم منعتم عثمان الماء ثم ثم قتلتموه صائما ، فتلقاه الله بالرحيق المختوم ؛ والله لأقتلنك يا ابن أبى بكر فليسقك الله من الجحيم ، ثم قال له ، أتدرى ما أصنع بك ؟ أدخلك فى جوف حمار ثم أحرقه عليك بالنار . ثم أخذه وألقاه فى جحيفة حمار منتن ثم حرقه بالنار

ولما بلغ عائشة قتل أخيها وجدت عليه وجدا عظيما وأخذت أولاده وعياله وتولت تربيتهم

ولما بلغ عليا ما كان من الأمر بمصر وتملك عمرو لها واجتماع الناس عليه وعلى معاوية قام فى الناس فحثهم على الجهاد وواعدهم الخرجة بين البصرة والكوفة ثم خرج اليهم من الغد على زعم أنهم يوافونه فلم يخرج إليه أحد

وبعد، فهذا ما كان من المصريين من الحركة فى سبيل قتل عثمان وما أحدثه فريق منهم من التشيع إلى عثمان وتمكين معاوية وعمرو بن العاص من

خذلان عمال على وتسهيل الأمور على عمرو حتى دخل مصر عاملا عليها من قبل معاوية ، ولله الأمر من قبل وبعد

أما بعد، فلنا كلمة في الكتاب الذي كان على لسان عثمان في شأن محمد ابن أبي بكر ومن معه لا بأس ببسطها

هذا الكتاب لا يبعد أنه افتعل افتعالا ، وأنه لا من عثمان ولا كتبه مروان

وأن الذي كتبه إنما هو فريق من أهل المدينة الناقمين من عثمان وقد لعبوا دورا في هذه الرواية المتنوعة الفصول، فكتبوا كتبا وبعثوا بها إلى الآفاق ليزيدوا الطين بلة ويقووا بها حفيظة الثوار حتى يقدموا على ارتكاب الفظائع اعتماد على أن هذه الكتب إنما بعثها الصحابة، وهم على مرأى ومسمع من عثمان ، ومما يرتكبه عثمان ، وعمال عثمان .

ولاشك ان هذه الكتب قد دبرتها يد ماهرة خفية قوية إما بالمدينة وإما بالأمصار وإما من المنحرفين من أهل الأمصار أنفسهم وقد طعن الخليفة على الكتاب المنسوب اليه بالتزوير ولكن من الذي سمع منه . بل ومن الذي قام من الصحابة فيهم فاقتنعوا بقوله ؟ لقد قال لهم على هذا امر دبر بليل ، فقالوا له ضعوه كيف شئتم لاحاجة لنا فى هذا الرجل ، واذا كان الكتاب الذى عاد به اهل مصر من الطريق قد أحفظ أهل المدينة فلم يبق منهم أحد إلا حنق على عثمان أو زاد غضبا على غضب حتى أسلموا عثمان وكانوا بين خاذل له ومعين عليه فما بالك بكتاب مثله يصل إلى أهل الأمصار وهم على ماهم عليه من كراهة عثمان وعمال عثمان ، ويظهر أن المجال لم يتسع للبحث في أصل هذه الكتب ومصادرها لأن الثوار كانوا فى المدينة كالغازين

الذين يحجرون على الحرية اللسانية او القلمية إلا أن تكون فى ناحية مايريدون ، على ان من اعيان الصحابة من كان يريد الخلافة له او لواحد من قومه فاتخذ من وجود الثوار وما اختلقوا من الكتب ومحاصرتهم عثمان فرصة مناسبة للوصول الى ما يريد وهذا على بن ابي طالب يقول - حينما قال له زيد بن ثابت يا أبا الحسن إن الناس يرون أنك لو شئت رددت الناس عن عثمان - والله ما أمرتهم بشيء ولا دخلت فى شيء من شأنهم

وقال له حسان بن ثابت انك تقول ما قتلت عثمان -ولكن خذلته - ولم آمر به ولكن لم تنه عنه ، فالخاذل شريك القاتل والساكت شريك القائل

وقال سعد بن ابى وقاص وقد سئل من قتل عثمان ؟ قال قتله سيف سلته عائشة وشحذه طلحة وسمه على . قيل فما حال الزبير فقال : أشار بيده وصمت بلسانه

نخلص من هذا إلى أن ما كان من الكتب فى قضية عثمان كان مختلقا لا أصل له . غير أن الظروف كانت مناسبة جد المناسبة لشيوع هذه الكتب وتصديقها من غير نظر أو بحث عميق فيها لتعرف حقيقتها ، وتبين ان كان صادرة عمن نسبت اليهم حقا اومختلقة والله اعلم

ولاة مصر فى عهد الامويين والعباسيين

لما دخلت مصر فى سلطان المسلمين صارت كبقية الولايات الاسلامية يولى عليها الخليفة من يختاره . وكان أحيانا يجمع له بين صلاتها وخراجها ، وأحيانا يعهد إلى واحد بصلاتها ، ويعهد لآخر بخراجها ، ويكون الأول صاحب الحرب وله الاشراف على الثانى غالبا

وقد تولى مصر اثنان وسبعون أميرا ، أولهم عمرو بن العاص فى

المرة الأولى سنة ٢٠ من الهجرة ولاه عمر بن الخطاب صلاتها وخراجها ثم عهد إلى عبد الله بن سعد فى أواخر خلافته بخراجها

وآخرهم كافور الأخشيدى أو أحمد بن على الأخشيد سنة ٣٥٨ ومتوسط مدة هؤلاء الأمراء نحو أربع سنوات ونصف ، ولم ينفرد بملك مصر أحد منهم ويستغل خراجها لنفسه سوى أحمد بن طولون فى خلال ولايته عليها (٢٥٥ — ٢٧٠)

أما عمرو بن العاص فقد وليها بعد انتزاعها من محمد بن أبي بكر سنة ٣٨ نائبا عن معاوية ، ولكنها كانت طعمة له ولأبنائه من بعده كما هو نص الاتفاق بينهما إذا انضم معه على على بن أبى طالب ، وقد لبث عمرو فى هذه المرة نحو خمس سنوات آخرها سنة ٤٢ . وتعرض إلى القتل غيلة كما تعرض كل من معاوية وعلى ، ولكنه نجا هو ومعاوية وقتل على ، أما معاوية فضربه الخارجى فلم تؤثر فيه الضربة ، وأما عمرو بن العاص فعرضت له علة فى الليلة الموعودة منعته عن الخروج إلى الصلاة ، فناب عنه خارجة بن حذافة ، فوثب عليه الخارجى يظنه عمرا وقتله ، فأخذ وادخل على عمرو ، فقال له : أما والله ما أردت غيرك ، فقال عمرو : ولكن أراد الله خارجة ، فصار مثلا (أردت عمرا وأراد الله خارجة) وأقام عمرو بعد ذلك سنتين ثم مات سنة ٤٣ .

ولما مات عمرو صارت مصر ولاية أموية فولاها معاوية أخاه عتبة ابن أبى سفيان وهكذا تداولتها ولاة الخلفاء الأمويين إلى أن زالت دولتهم سنة ١٣٢ وأمير مصر عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير من قبل مروان بن محمد بن مروان

وعدد الذين تولوها من لدن عتبة إلى نهاية الدولة ٣٠ واليا منهم من تولى مرتين وثلاثا ، وأطولهم مدة عبد العزيز بن مروان وهو السادس منهم ٢٠ سنة ومسلمة بن مخلد وهو الثالث منهم ١٥ سنة وقرة بن شريك وهو الثامن منهم ٦ سنوات والوليد بن رفاعة وهو السادس عشر منهم ٩ سنوات ونصف سنة ، والباقى لبث أقل من خمس سنوات ، والملحوظ أنهم كانوا جميعا من العرب

ولما دخلت مصر فى قبضة بنى العباس سنة ١٣٢ ه تولاها عن السفاح صالح بن على بن عبد الله بن العباس ثم مازالوا يولون الولاة عليها ، فتولى فى عهدى السفاح والمنصور تسعة ، ومثلهم فى عصر المهدى ، وواحد فى عهد الهادى وسبعة عشر أيام الرشيد ، واثنان فى عهد الأمين ، وثلاثة عشر فى عهد المأمون وثمانية فى عهد المعتصم ، وأربعة فى عهد المنتصر وثلاثة فى عهد المعتز كان رابعهم أحمد بن طولون سنة ٢٥٤ ثم تولى ذريته من بعده فكانوا أربعة ، ثم عادت مصر إلى الدولة العباسية فتولاها واحد فى عهد المكتفى وأربعة فى عهد المقتدر وثلاثة فى عهد القاهر ، وكانت فى أيام الراضى ولاية بنى الاخشيد من سنة ٣٢٣ إلى سنة ٣٥٧ تولى مصر خمسة من بينهم كافور الاخشيدى ، ثم دخلت مصر فى قبضة الفاطميين على يد جوهر القائد سنة ٣٥٨ . والملحوظ فى ولاة بنى العباس فى وجه عام

(١) أن مدتهم بمصر كانت أقصر من مدة الولاة من بنى أمية

(٢) أنهم كانوا فى الصدر الأول غالبا من العرب والموالى وكثير منهم كان من رجال البيت المالك وقد ظل الحال على ذلك إلى أن تولى عنبسة بن إسحق الضبى سنة ٢٣٨ فكان آخر وال عربى بمصر وآخر أمير صلى بالناس

في المسجد الجامع ، وقد ولاه المنتصر بن المتوكل على الصلاة ، ومن بعده تقريبا كان الخلفـــاء يقلدون أمر مصر من أحبوا من الموالى والاتراك ، فيقيمون فى بغداد ويستخلفون على مصر من يحكمها بالنيابة عنهم ويرسل إليهم الخراج إلى أن كان منهم أحمد بن طولون الذى استخلفه بكباك على مصر سنة ٢٥٤

ويحسن بعد هذا ذكر شيء من أحوال الولاة من بنى أمية :

(١) لما تولى سعيد بن يزيد الأزدى بعدمسلمة بن مخلد فى عهد يزيد ابن معاوية تلقاه أهل مصر ، فقال أحدهم لما رآه : يغفر الله لامير المؤمنين أما كان فينا مائة شاب كلهم مثلك يولى علينا أحدهم ، ثم دخلوا معه فلم يزالوا على الشنآن له والاعراض عنه والتكبر عليه حتى توفى يزيد ، ودعا عبد الله ابن الزبير الناس بمكة لبيعته فقام أهل مصر بدعوته وسار اليه كثير منهم فبعث إلى مصر أميرا من قبله هو عبد الله بن جحدم فدخلها سنة ٦٤ واعتزل سعيد هذا . ودعا ابن جحدم لعبد الله بن الزبير وكانت الفتن ثائرة بين ابن الزبير وبين الأمويين ، كما كانت الأحوال مضطربة فى المغرب بخروج كسيلة البربرى واستفحال أمره

ولما تم الأمر لمروان بن الحكم أعد جيشين لأخذ مصر تولى قيادة أحدهما . وولى ابنه عبدالعزيز قيادة الثانى ، وسار مروان فى الطريق الساحلى وأمر ابنه أن يدخل من طريق أيلة — فلما سمع ابن جحدم استعد للحرب وخندق ، وسار مروان حتى نزل عين شمس

وهنالك التقى الجمعان فاستحر القتال إلى ان انتهى بالصلح على ان يقر مروان أمير مصر ابن جحدم ويدفع اليه مالا وكسوة وبذلك دخل مروان

مصر سنة ٦٥ فدعا النـــاس إلى بيعته فاجابوه إلا نفرا من المعافرة فضرب أعناقهم وكانوا ثمانين رجلا ثم خرج إلى الشام وولى ابنه عبد العزيز صلاة مصر وخراجها فلبث واليا عليها من سنة ٦٥ إلى سنة ٨٥ وذلك نحو ٢٠ سنة وقد جعل له أبوه خراج مصر فكان يجبيه من أهلها وينفقه فيهم ، طورا فى اطعامهم وتارة فى اقامة مساجدهم أو ترميمها ، وإصلاح جسورهم أو إنشائها ، وكان يقول . واعجبا من مؤمن يوقن أن الله يرزقه ، ويوقن أن الله يخلف عليه ، كيف يدخر مالا عن عظيم أجر وحسن سماع!

وفى سنة ٧٠ حصل طاعون بمصر ، فخرج عبد العزيز إلى حلوان واتخذها سكنا وجعل بها الحرس والأعوان ، وبنى بها الدور والمساجد ، وعمرها أحسن عمارة وغرس نخلها وكرمها

وهو أول من أشار على أخيه عبد الملك وهو خليفة بعد أبيه بضرب الدراهم والدنانير ، وأول من شدد فى أمر الوزن ، وخلص الفضـــة أبلغ تخليص وله غير ذلك من الآثار الحسان . وكان للبعثة التى أرسلها بحرا إلى مكة سنة ٧٢ لقتال ابن الزبير — وكان نحو ثلاثة آلاف — أثر هام فى قطع دابر هذه الفتنة ، وقد قتل أحد رجالها — وهو عبد الله بن يحنس — عبد الله بن الزبير ، ففرض له فى الشرف ، وعرف على موالى تجيب

ثم مات عبد العزيز بحلوان ولم يخلف إلا هـذه المدينة وما فيها من دوره وثيابا كان بعضها مرقوعا وخيلا ورقيقا

وحمل بعد موته إلى الفسطاط ودفن بمقبرتها سنة ٨٦ وكتب على قصره بحلوان

أين رب القصر الذى شيد القصـــر وأين العبيد والأجناد

أين تلك الجموع والأمير والنهى وأعوانهم وأين السواد

وبالتأمل ترى أن سياسة عبدالعزيز فى مصر كانت مؤسسة على البذل وأن طول مدته فيها من غير حوادث خطيرة كان من جراء حب الناس له وتعاونهم معه والتفافهم حوله وثقتهم بعدله وطمعهم فى ماله

وربما كان شر ولاة بنى أمية قرة بن شريك ، فقد كان سيء السياسة والتدبير ، على الرغم من أنه بنى جامع عمرو وزاد فيه ، لكنه كان إذا انصرف الصناع من البناء دعا بالخمور والطبول والزمور ؛ فيشرب الخمر فى المسجد طول الليل . ويقول لنا الليل ولهم النهار . حتى تحالف جماعة على قتله فعلم فقتلهم ، وكان عمر بن عبد العزيز يعتب على الوليد أنه ولى قرة هذا بلاد مصر

وبمناسبة عبد العزيز وقرة نقول : ربما كانت سياسة عبدالعزيز التى اتبعها مع أهل مصر حتى أخلصوا له فأطاعوه ولم يحدثوا ما يكره ، نتيجة حرصه على سمعة الدوله أيضا لأنه من البيت المالك . وإن الذى حمل قرة على سياسته الخرقاء أنه كان رجلا نفعيا لا يهمه أمر الدولة قدر ما يهمه أمر نفسه لأنه لا تجمعه ببنى أمية لحمة النسب ، لكن ذلك لم يك قاعدة مطردة ، فقد تولى بعد عبد العزيز مباشرة عبد الله بن عبدالملك بن مروان من قبل أبيه ، فأمره أن يعفى آثار عمه ، فاستبدل العمال بعمال غيرهم والأصحاب بأصحاب أخر وكان فيه شدة وبأس ، ثم استخلف الوليد فاقره ، ثم امر أن تنسخ دواوين مصر بالعربية (وكانت تكتب بالقبطية سنة ٨٧) فكان من وراء ذلك أن العرب حلوا محل القبط ، غير أن القبط إزاء هذا عكفوا على تعلم العربية بل واعتنق كثير منهم الاسلام وصاهروا المسلمين حتى أمكنهم أن ينتظموا فى سلك عمال الدواوين

ثم اتفق أنه حصل بمصر غلاء فى الاسعار فى هذه السنة من جراء انخفاض النيل فاستشام الناس بكعب هذا الوالى مع ما كانوا يقاسونه من جوره، إذ كان يرتشى، ويأخذ الاموال من الخراج وغيره، حتى اضطر الوليد إلى عزله نهائيا سنة ٩٠ فخرج من مصر بجميع أمواله، واستصحب معه الهدايا والتحف إلى أخيه. فلما وصل الى الاردن أحيط به وصودر فى جميع ما كان معه، فاين هذا من عبد العزيز؟

وهذا مسلمة بن مخلد الخزرجى تولى مصر من قبل معاوية وليس من أهل الخليفة، فغزا برا وبحرا وانتصر وهدم جامع عمرو وبناه وجعل له منارا وهو أول من جمع له معاوية الصلاة والخراج والمغرب

وكان آخر من ولى مصر من ولاة بنى أمية عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير سنة ٩٣، فخرج فى أيامه عمرو بن سهيل بن عبد العزيز بن مروان، على مروان الحمار ودعا لنفسه، واجتمع عليه جمع من قيس فى الحوف الشرقى من أعمال مصر، فبعث إليهم عبد الملك هذا بجيش فلم تقع بينهم حرب، وبينما هم فى ذلك، إذ قدم عليهم الخليفة مروان من الشام فارا من جنود بنى العباس، فوجد أهل الحوف الشرقى والاسكندرية والصعيد قد صاروا مسودة، أى من أعوان بنى العباس على مقاتلتهم، وبينما هو على ذلك، قدم صالح بن على بن عبدالله بن العباس ومعه أبو عون عبد الملك بن يزيد فى طلب مروان. فلم يثبت مروان، وفر إلى بوصير بالجيزة، ومعه عبد الملك صاحب مصر وغيره من حواشيه وأمرائه وأقاربه من بنى أمية. فلحقه صالح وهزمه وقتله وعاد برأسه الى الفسطاط فى المحرم سنة ١٣٣ ثم بعث برأس مروان الى العراق وزالت دولة بنى أمية، دولة العرب والعزة العربية، وتوالت

مكانها دولة بنى العباس دولة العجم والشعوبية ،ولله الأمر من قبل ومن بعد

* * *

وبعد فاننا نكتفى بهذه الامثلة من ولاة بنى أمية ثم نقول :

ان تنصيب ولاة مصر فى عصر بنى العباس الى ايام الرشيد كان على هذا النحو ، غير أن ولاتها من رجال البيت المالك كانوا كثيرين وربما كان الغرض من ذلك أن تكون غيرتهم على الدولة أشد . فتكون سياستهم أسد . وحكمهم أعدل ، واحتياطهم أشمل ، ومع هذا فان منهم من طمع فى الخلافة على ماسترى

وأول من ولى مصر من ولاة بنى العباس صالح بن على بن عبد الله ابن العباس ، ثم القائد الكبير أبو عون . وكان مع صالح فى طلب مروان وفى أيامهما بنيت العسكر سنة ١٣٤ ، وصارت منزلا لأمراء مصر إلى عهد أحمد بن طولون ، الذى رآها تضيق بجنده فأنشأ القطائع بجوار العسكر من الشمال الشرقى سنة ٢٥٤ فلما دالت دولة بنى طولون ، عاد الامراء العباسيون الى العسكر ، حتى قدم جوهر القائد سنة ٣٥٨ ..وبنى القاهرة فصارت حضرة البلاد المصرية الى الوقت الحاضر

ومن خير ولاة العباسيين بمصر يزيد بن حاتم المهلبى . ولاه المنصور على صلاة مصر وخراجها . فبر وعدل ، وعف وبذل حتى مال الناس اليه ، وقصده كثير من الشعراء ، ومنهم محمد بن عبد الله بن مسلم الذى يقول فى يزيد

واذا تباع كريمة أو تشترى فسواك بائعها وأنت المشترى

وقد ضم له أبو جعفر برقة على مصر ، وأمره بالتحول عن العسكر

إلى الفسطاط ، وأن يجعل الدواوين فى كنائس قصر الشمع ففعل ، وأقام واليا سبع سنين

وأول من وليها من الموالى : واضح بن عبد الله المنصورى الخصى من قبل المهدى وهو من موالى صالح بن أبى جعفر ، وكان فيه شدة فشكوا منه فعزله الخليفة إذ كان فيه ميل للعلويين ، وهو الذى حمل إدريس بن عبد الله بن الحسن على البريد إلى المغرب كما سلف . ومكنه بذلك من انشاء دولة الأدارسة هناك

ومن الولاة ابن ممدود ، وهو يحيى بن داود ، وهو تركى من أهل خراسان أو نيسابور ، ولى مصر من قبل المهدى

وكان من خير الولاة وأجل الأمراء لولا شدة فيه ، قدم إلى مصر فوجد السبل مخيفة لكثرة المفسدين وقطاع الطريق ، فجد حتى أقمعهم ، وما زال حتى قطع دابرهم ، فعظمت حرمته ، وتزايدت هيبته فى قلوب الناس وكان يمنع الناس من غلق الدروب والأبواب والحوانيت ، حتى جعلوا عليها شرائح القصب والشباك لمنع الكلاب فقط من دخولها ليلا ؛ وكان ينادى بمصر : من ضاع له شىء ، فعلى أداؤه . ومنع حراس الحمامات من أن يجلسوا فيها حتى كانت مصر على عهده فى غاية الأمن

غير أنه آثر عظمة الترك وتطرف فيها حتى كلف الفقهاء والأعيان والأشراف أن يدخلوا عليه بالقلانس الطوال فى يومى الاثنين والخميس بلا أردية ، ولكنه لم يقصر فى طريقة الحكم العادل ، فكان مع ذلك أشد الولاة حرمة ، وأعظمهم هيبـــة ، وأقدرهم على سفك دماء الخارجين ، وأنهكهم عقوبة للمفسدين ، ولعل ما رسمه من هذه (التشريفات) كان

لئلا يتعاظم عليه أحد من العرب ، فلا تكون هيبته عامة

وكان من أمراء البيت المالك المعدودين على بن سليمان بن على ولاه المهدى ثم أقره الرشيد ، وكان عادلا وفيه رفق بالرعية ، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر . منع فى أيامه الملاهى والخمور ، ولكنه اشتد فى معاملة القبط من الناحية الدينية ، فهدم الكنائس بمصر وأعمالها فتكلم القبط معه فى تركها وأن يجعلوا له فى مقابلة ذلك خمسين ألف دينار ، فامتنع واستمر فيما شرع فيه حتى فرغ منه

ولكنه استثمر ميل الناس اليه فأظهر مافى نفسه من أنه يصلح للخلافة ، وطمع فى ذلك ، وحدثته نفسه بالوثوب . فكتب بعض أهل مصر إلى الرشيد فى شأنه . فسخط عليه وعاجله بالعزل سنة ١٧١ ، وولى مكانه موسى ابن عيسى بن موسى بن محمد بن على . فأذن للقبط فى بنيان الكنائس مستشيرا فى ذلك الامام الليث بن سعد فوافق محتجا فى صحة هذا الاذن بأنها لم تبن إلا فى الاسلام فى زمن الصحابة والتابعين

وقد حدثت موسى نفسه بالخروج فعلم الرشيد ، فأمر جعفر بن يحيي البرمكى أن يعزله بأخس من على بابه ليعرفه مكانته ففعل . ومع ذلك فان الرشيد أعاده إلى مصر ثانية . ويظهر أن ذلك كان من جراء اعتذاره اليه وتوبته وإنابته

ومن المتطرفين من ولاة البيت العباسى : اسحق بن سليمان بن على ولاه الرشيد صلاة مصر وخراجها . فلما جاءها أخذ فى اصلاح أمرها ولكن لم يرض بما كان يأخذه الأمراء قبله من الخراج . فزاد على المزارعين زيادة أفحشت بهم . فسئمه الناس وكرهوه . وخرجوا عليه فلم يقدر على

دفعهم فعزله الرشيد بهرثمة بن أعين فتلقاه المصريون بالطاعة وأذعنوا له حينما رأوا كثرة جنوده

لم يقتصر خروج ولاة مصر عن طاعة الخليفة على الأمراء من البيت العباسى فان عبد الله بن السرى الضبي حدثته نفسه بالخروج عن دولة المأمون فارسل اليه عبد الله بن طاهر الخزاعى على رأس جيش فلما قرب مصر استعد اليه ابن السرى وخندق . ثم تقدم والتقى الجمعان واقتتلا قتالا شديدا ثبت فيه كل من الفريقين حتى تمت الهزيمة أخيراً على ابن السرى فاتجه نحو مصر وتبعه ابن طاهر وضيق على جنده المهرب . فسقط أكثرهم فى الخنادق . ودخل ابن السرى مصر وتحصن فيها . فحاصره ابن طاهر حصارا شديدا حتى أشرف على الهلاك . وطلب الأمان بشروط . وبعث اليه بتقدمة من جملتها ألف وصيف ووصيفة ومع كل وصيفة ألف دينار فى كيس من حرير ، وبعثهم ليلا . فرد عبد الله بن طاهر ذلك كله وكتب اليه : لو قبلت هديتك نهارا قبلتها ليلا . (بل أنتم بهديتكم تفرحون. ارجع اليهم ... الآية] فطلب ابن السرى الامان بلا قيد .فأمنه فخرج اليه وأذعن وسلم له الامر سنة ٢١١

وفى أيام المأمون حصل جديد فى أمر تولية الولاة ألا ذلك هو الاستخلاف فقد ولى هذا الخليفة أخاه المعتصم مصر بعد عزل ابن طاهر فأناب عنه على الصلاة عمير بن الوليد التميمى فخرج عليه القيسية واليمانية . ووقع بين الفريقين قتال شديد إنهزم فيه عمير وقتل . ووليها آخر فانهزم فطلب المأمون أخاه وندبه للخروج الى مصر وقال له : امض إلى عملك وأصلح شأنك . وكان المعتصم شجاعا مقداما . فخرج فى أربعة آلاف من أتراكه وقاتل القيسية واليمنية

وهزمهم ، وقتل أكابرهم ، ومهد البلاد ، وأباد أهل الفساد ثم مكث بالعسكر حتى أصلح الأحوال . وخرج أتراكه سنة ٥١٢ ومعه كثير من الاسرى فى ضر وجهد شديد ، مشاة حفاة امام الخيالة وولى عليها عبدويه بن جبلة فخرج عليه من بقى من القيسية واليمانية ولكنه هزمهم وقد رسم المعتصم هذه السنة للموالى من الاتراك مثل أشناس وإيتاخ وبكباك فان هؤلاء جميعا تولوا مصر ، فظلوا فى بغداد خشية على مراكزهم من أبناء جلدتهم ، واستخلفوا حتى ولى بكباك أحمد بن طولون

واعلم أن آخر من ولى مصر من العرب عنبسة بن اسحق من قبل المنتصر ومن بعده كان الولاة من الاتراك والأرمن إما بالاصالة وإما بالنيابة عن بعض أمراء الأتراك ، وكان عنبسة عادلا حازما أمر برد المظالم وانصف الناس غاية الانصاف ، وأظهر من الرفق والعدل بالرعية والاحسان اليهم مالا يسمع بمثله فى زمانه وكان يتوجه راجلا إلى المسجد الجامع من دار الامارة بالعسكر — ثم حصل فى أيامه ان أغار الروم على دمياط ونهبوها واستباحوها وذلك أنه فى يوم عيد النحر سنة ٢٣٨ أراد ختان ولديه ، فاستدعى حامية دمياط وغيرها ليجمع بين العيد والفرح فانتهزها الروم فرصة وأغاروا على البلد بثلثمائة سفينة فقتلوا وسبوا فلما علم ركب اليهم فلم يدركهم وأصلح شأن دمياط وعاد ، ثم لبث إلى أن كتب اليه المتوكل بالدعاء للفتح بن خاقان الذى ولاه مصر بالنيابة عن ابنه المنتصر ، فصار عنبسة نائبا عن النائب عن والى مصر

وإذ قد انتهينا من سرد بعض الولاة فى الدولتين الأموية والعباسية وبينا أن منهم من كان عدلا حازما ومنهم من كان شديدا جائرا ، فقد حدث

من جراء ظلم من ظلموا جملة ثورات كانت من القبط أولا ثم كانت من أهل مصر عامة — ولنبين شيأ من ذلك على سبيل الاجمال والمثال :

(١) كان أول انتقاض للقبط فى سنة ١٠٧ أيام هشام بن عبد الملك، كتب اليه صاحب خراج مصر بأن مصر تحتمل الزيادة ، فزاد على كل دينار قيراطا ، فانتقض بعض الكور وعامة أهل الحوف الشرقى ، فبعث اليهم الحر بن عبد الله والى الصلاة بأهل الديوان فردوهم إلى الطاعة ؛ بعد أن قتلوا منهم خلقا كثيرا — وكانوا بعد ذلك يخرجون لهذا السبب فيجرد الوالى عليهم حتى يردهم إلى الطاعة وتأدية ما يفرض عليهم

(٢) وكذلك كان شأن القبط فى عهد بنى العباس إلى أن انتقضوا مع من انتقض سنة ٢١٩ فى عصر المأمون ، فسار هذا الخليفة الى مصر ومعه الافشين ، فأوقعوا بالثائرين عامة . والقبط خاصة ، حتى نزل القبط على حكم أمير المؤمنين . فحكم عليهم حكما قاسيا يقضى بقتل الرجال وبيع النساء والاطفال (وكان هذا فى ناحية البشرود) فبيعوا وسبى أكثرهم . ومن حينئذ أذل الله القبط فى جميع أرض مصر وخذل شوكتهم فلم يقدروا على الخروج فأخذوا يخادعون ويمكرون ويكيدون ، ثم أخذوا يتهافتون على الدخول فى الاسلام زمرآ زمرآ حتى قيل : ان عصر المأمون كان عصر انتشار الدين الاسلامى بمصر ، اذ كاد يكون مظهرها إسلاميا صرفا — وبهذه الوسيلة تمكن القبط وقد أسلموا من بعض وظائف البلاد . وبعد فلا بأس من دراسة الامور الآتية على ضوء ماسبق

(١) أن والى مصر منذ فتحها كان أحيانا يولى من الاحداث فيحدث من جرا ذلك ما يحدث ، ومن ذلك ما كان من تعيين عبدالله بن سعد بعد عمرو بن العاص.

وكان صغيرا عن عمرو ، فامتعض منه القوم وكرهوه وضعف روح التعاون بينه بين فريق منهم ، فكان ذلك من أهم العوامل فى اشتراك فريق من أهل مصر فى الفتنة التى أدت الى قتل عثمان ووثوب محمد بن ابى عتبة على ولاية مصر بغير تولية من خليفة ووقوفه فى طريق ابن سرح وقد أراد دخول مصر بعد خروجه لنجدة عثمان . ولما ولى يزيد بن معاوية سعيد الازدى نفروا منه أيضا حتى كان من نتائج ذلك أنهم لبوا دعوة عبدالله بن الزبير وذهبوا اليه فولى عليهم عبدالله بن جحدم وصارت مصر ولاية تابعة للحجاز الى ان فتحها مروان بن الحكم وولى عليها ابنه عبدالعزيز كما سلف

(٢) يلاحظ أن تعين واليين على البلاد بعهدين من الخليفة يكون احدهما على الصلاة وثانيهما على الخراج ، كان له فى بعض الأحيان نتائج سيئة ، نعم إن وجهة النظر صحيحة من ناحية توزيع العمل حتى يكون خفيفا على كل منهما ، ولكن النظام بطبيعته يؤدى الى التصادم والتنافس والتحاسد اذا تدخل مثلا والى الصلاة (بماله من حق الاشراف العام) فى اعمال والى الخراج دفعا لما عسى أن يحدث من الثورات ؛ فاذا رضى عامل الخراج وإلا ساء التفاهم بينهما وعمل كل منهما على الخلاص من الآخر وقد ينتهى الأمر بعزل احدهما وهو الامثل الاصلح ، فتخسر البلاد من جراء ذلك عاملا قائما بعمله خير قيام

لقد بدأ ذلك منذ الفتح باشراك عبدالله بن سعد مع عمرو بن العاص وأخيرا باستعمال ابن المدبر على الخراج وتولية ابن طولون بقية الاعمال

(٣) كان استبقاء الوالى مدة طويلة خيرا من عزله بعد زمن قصير ، إلا اذا حدث منه مايستوجب عزله لسوء تصرفه أو عسفه فيكون على من ولاه

تبعة سوء الاختيار ، أما المبدأ وهو طول المدة فله أثره فى الولاية نفسها وفى الدولة برمتها

فطول مدة الوالى تمكنه من درس أحوال الأهلين دراسة تؤهله الى رسم الخطط الموفقة فى حكمهم وسياستهم ، فيجمع بين المحافظة على القوانين وبين مراعاة مقتضى الحال عند تنفيذها - ويكون مارسمه من ذلك درسا صالحا لمن يلى من بعده ، فيطرد التوفيق فى حكم البلاد ، ولا يشعر الناس بشئ من التغيير فى التشريع وأن تغير الوالى . ولا ينزعون الى الثورة

على أن طول أمد الوالى يمكنه من إجراء ما يريده من الاصلاح المؤدى إلى زيادة الثروة ؛ وامتلاء أيدى الناس بالاموال . وهذا يؤدى إلى الزيادة فى الخراج بطبيعته ، ومن ذلك قيامه بشق الجداول وإنشاء الطرق ، وبناء القناطر وإقامة الجسور وإصلاح الارض الجرز لتقرير الخراج عليها ، كما يمكنه من اختيار الاكفاء من العمال الذين يقدرون له هذا الاختيار فيعملون باخلاص فى إدارة الاعمال على ما رسم لهم من خطط ، أو تبين من حق وهذا يعود على جميع المرافق بالنتائج المحمودة

أما إذا شعر الوالى بأن مدته لن تطول كما هو الحال فى عهد بنى العباس فانه لا يتمكن من شىء مما بيناه ، وقد يكون ذلك سببا فى أنه يشتط فى الحكم لعدم احاطته ، ولا يشرع فى تدبير مفيد لعلمه أنه لا يتم فى عهده ، بل أنه قد ينتهز فرصة ولايته ويجعلها وسيلة إلى تحصيل دنياه : فيكون وبالا على أهل البلاد ، وشرا مستطيرا على الدولة وعمالها فى الآفاق ، على أن كثرة العزل والتولية تنفر الرجال الاكفاء من طلب الولاية أو ترشيح أنفسهم اليها ، فيتولاها الجهال والنفعيون وفى هذا من البلاء مافيه

(٤) واعلم أن العرب منذ أول الفتح كانوا بمصر هم المقاتلة لا غير وكان لهم عطاء سنوى يقتطع من الجباية ، فى نظير انقطاعهم للجهاد والمرابطة ولذلك نهو عن الاشتغال بالزراعة وغيرها لئلا ينسوا أعمال الحرب ، وملكة القتال ـ غير أن عبد الله بن الحبحاب استأذن الخليفة هشام بن عبد الملك فى أن ينقل قيسا إلى مصر ، فأذن على أن لا ينزلوا الفسطاط ، فأنزلهم بلبيس وأمرهم بالزرع ، ونظر إلى الصدقة من العشور فصرفها اليهم ، فاشتروا إبلا فكانوا يحملون الطعام إلى القلزم ، وكان يصيب الرجل فى الشهر عشرة دنانير أو أكثر ، ثم أمرهم بشراء الخيل ، وليس عليهم مئونة فى علف إبلهم وخيلهم ، لجودة مرعاهم ، فأثروا وبلغ ذلك عامة قومهم فتحملوا اليهم تباعا حتى صار فى بلبيس ألف وخمسمائة أهل بيت من قيس

ولما نزلوا مصر وسكنوا أريافها ؛ اتخذوا الزرع معاشا وكسبا ، وخالطوا القبط واطمأن أحد الفريقين إلى الآخر للجوار ، ولما حصل من المصاهرة وبخاصة بعد دخول جمهرة من القبط فى الاسلام ، إما رغبة . وإما فرارا من الجزية ، اختلطت أنسابهم بأنساب العرب ، وعملت العاطفة النسبية عملها فى تقوية روح التضامن والتعاون بينهم ، حتى صار مايؤلم أحد الفريقين يستفز الآخر . ولذلك كان يجمعهم النفور من زيادة الخراج ، فيعقدون الخناصر متحدين لدفع هذا الظلم بالقوة إن لم يرفع عنهم

هذا وقد انضم إلى قيس جماعة من المقاتلة أصحاب الأعطيات السنوية حينما وفر عددهم وزادوا عن الحاجة فصاروا أهل زراعة ، ولما أمر المعتصم باخراج العرب عامة من الديوان وحرمانهم من العطاء وإحلال أتراكه محلهم اضطر العرب إلى تحصيل معاشهم وانضموا إلى المزارعين ، ولا شك

أنهم مرنوا على الحرب والاعمال الحربية ، ولذلك كانوا من أقوى العوامل فى الثورات التى كانت تحصل ؛ لأن الجندى لايحتمل من الضيم مايحتمله غيره .

كان شأن العرب أن يشقوا عصا الطاعة للسبب الذى من أجله كان يخرج القبط ، وهو الزيادة فى الخراج ، أومسح الأرض بالتطفيف ونقص القصبة أصابع ، فاما أن يخرجوا وحدهم كما حدث أيام الرشيد سنة ١٧٨ فيحاربوا ويهزموا ويؤدوا مافرض عليهم كائنا ماكان ، واما أن يخرجوا مع القبط كما حصل سنة ٢١٦ أيام المأمون ، فجاء مع الافشين وقضى على الثورة بعد أن سخط على الوالى وحل لواءه ، وقال له : لم يكن هذا الحدث العظيم الا من فعلك وفعل عمالك ، حملتم الناس مالا يطيقون ، وكتمتنى الخبر حتى تفاقم الأمر واضطرب البلد .

وهذا يدل دلالة واضحة على أن أسباب الثورات بمصر فى عهد الدولتين كانت غالبا من جراء الخراج ، ولو كان محدودا كالجزية ، أوجرى العمال فيه على سنن عمرو بن العاص ، لسادت السكينة على مصر مدة الدولتين فان طبيعة مصر تطبع فى سكانها الميل إلى السلم ، والخوف حتى من شبح الحرب وإن كانو أكثر أهل الدنيا مالا

استذكار

(١) كان للروم الوثنيين نظر فى اضطهاد مصر المسيحية فما بال هذا الاضطهاد استمر وقد صار الجميع مسيحيين ؟

(٢) ماقصة الكتاب الذى كتبه الخليفة إلى عمرو . وهو فى طريقه إلى مصر ؟ رد على من يقول ان فى الكتاب ترددا لا ينبغى من مثل عمر

(٣) ماأهمية الاستيلاء على أم دنين وكيف حصلت موقعة عين شمس

(٤) لم يتيسر للمسلمين محاصرة الحصن إلا بعد عزله عن القرى والحصون المجاورة اشرح كيف كان ذلك

(٥) ماالذى جرى بين المسلمين وبين من فى الحصن فى غيبة المقوقس وهل كان استيلاء المسلمين على الحصن عنوة ، وماشأن الزبير بن العوام فى الموضوع ؟

(٦) كيف سار عمرو إلى الاسكندرية وما الجهات التى استولى عليها فى الطريق وما أهميتها ، وهل فتح الاسكندرية ؟

(٧) كيف نقض روم الاسكندرية الصلح، وما الذى كان من عمرو فى هذا الشأن ، وهل فتحها عنوة ، وما الذى أحدثه فيها بعد الفتح؟

(٨) كيف تدخل المصريون فى أمور الخلافة أيام عثمان ؟ وما الأسباب التى حملتهم على هذا التدخل ؛ وكيف آل أمرهم ؟

(٩) كيف فتح عمرو بن العاص مصر مرة ثانية، وماذا كان مصير أميرها من قبل على بن أبى طالب

(١٠) ما للفوائد أو المضار التى تنشأ من العهد إلى واليين أحدهما على الصلاة والآخر علي الخراج ؟ اضرب أمثلة

(١١) ما أسباب دخول مصر فى مملكة عبدالله بن الزبير وانفصالها عن الأموية وكيف استمادها الأمويون؟

(١٢) حصلت بمصر فى عهد ولاة الأمويين والعباسيين ثورات استدعت حروبا داخلية فما أسبابها وهل كانت من القبط وحدهم ؟

الدولة الطولونية

سنة ٢٥٤ — ٢٩٣ هجرية

تعتبر هـــذه الدولة من الأمثلة الواضحة لأمرين مهمين ظهرا فى الخلافة العباسية بعد أن انتهى عصرها الذهبى بموت المعتصم بن الرشيد سنة ٢٢٧ أو ابنه المتوكل على الأكثر سنة ٢٤٧ ، وأول هذين الأمرين : مبلغ نفوذ الموالى من الأتراك وانفرادهم بالحل والعقد واستبدادهم بالخلفاء وما إلى هذا من الأمور الخاصة بالبيت المالك ورسم الخطط التى يرون أنه يجب أن يسير على مقتضاها ، أو الأمور العامة التى تختص بالتشريع والتنفيذ والحرب والسلم ، وثانيهما نزعة عمال الأطراف إلى الاستقلال بما فى أيديهم من الولايات والانفصام عن دولة الخلافة

أصل الاتراك فى دولة الخلافة

كان المعتصم قد عنى أشد العناية باقتناء الترك ليستغنى بهم عن أهل عصبيته من العرب الذين ينافسونه فى الخلافة ، وعن الفرس الذين لا يزالون يذكرون ما كان لهم من دولة وصولة وسلطان ، ويحاولون بقدر ما يستطيعون الحصول على استعادة شىء من هذا ، وقد وصلوا بالفعل فى عصر الرشيد إلى أكثر مما كانوا يتمنون حتى لقد كانت دولة عربية بالاسم فارسية بالفعل وقد فطن إلى هذا الأمر فنكب البرامكة ، وجاء من بعده المأمون فنكب بني سهل . وكأن كلا منهما قد لفت المعتصم إلى رسم خطة يستغنى بها عن العرب والعجم ؛ فنظر إلى الترك الذين لا يشاركونه فى النسب فلا ينازعونه

فى الخلافة والذين لا ملك لهم قد أزاله العرب فيعملون على استرداده من أيديهم وبعث إلى سمرقند وفرغانة وما وراءهما من بلاد آسيا الوسطى وما يجاورهما من أرض الخزر والديلم وكلها مواطن الترك . وبذل الأموال الكثيرة لعمال هذه الأطراف فى سبيل مشترى فتيان الترك ليكونوا ذادة دولته وحماة ملكه وحرسه ومادة جنده ؛ وقد أخلص النخاسون فى هذا السبيل إخلاصا جعلهم يحسنون إلى الناس بغداد وما يلاقيه الترك فيها من السعادة والنعيم ويضربون لهم الأمثال بمن سبقوا إلى هذه المدينة العظمى من أسرى الحرب وما صاروا اليه من المراتب بعد انتظامهم فى خدمة الخلافة ، ومن أجل أن حالة القبائل فى آسيا الوسطى إذذاك كانت سيئة من كل وجه ، رغبوا رغبة شديدة فى سعادة بنيهم وذويهم واتخذوا هذه فرصة مناسبة لانقاذهم من غليظ العيش إلى رفيقه فباعوهم إلى النخاسين الذين أوفدوهم أفواجا أفواجا إلى بغداد ، وعنى بهم المعتصم فعلمهم تعليما حربيا وألبسهم أنواع الديباج ومناطق الذهب ، حتى لقد كان الواحد منهم يرى أن فك رقبته بالعتق غضب من الخليفة عليه ، وأن بقاءه عبدا فى هذه السعة من العيش هو السعادة بعينها

بالغ المعتصم فى الاستكثار من هؤلاء الموالى حتى ضاقت بهم بغداد وضواحيها ، إذ كانوا ثمانية عشر ألفا ، وكان لا يكاد يسمع الشكوى فيهم ، ولو اعتدوا ليجعل لهم هيبة ويخيف الناس منهم حتى يخشوهم . ولكنهم بالغوا فى العدوان وتعرضوا لأعراض الأهلين فضجوا بالشكوى الى المعتصم ، فرأى من الحزم أن ينقلهم الى سر من رأى التى أعدها اليهم وتم بناؤها سنة ٢٢١ ثم كان من هؤلاء الأتراك بعد قليل عظم جيشه وقواده وأكثر عماله وأمرائه .

وكان أمر مصر فى عهده إلى أمير منهم يسمى أشناس المعتصمى وهو مملوك خزرى، يولى عليها من يشاء من قومه أوغيرهم، وكان يدعى له على منابرها، ثم جعلت إلى مملوك آخر إسمـــه إيتاخ يولى عليها أيضا من يشاء درج على هذا العمل بقية أيام المعتصم وأيام ابنه الواثق هرون بل إن المتوكل وهو جعفر بن المعتصم جعل لإيتاخ أمر الكوفة والحجاز وتهامة مع مصر، ثم جعل مصر وحدها لابنه المنتصر محمد ثم عاد فجعلها أوجعل أمرها للفتح بن خاقان وزيره، فقتل مع المتوكل سنة ٢٤٧، فقتلهما الاتراك بايعاز ابنه المنتصر محمد ومعاونة وصيف وموسى بن بغا وباغر وهذا الأخير أول من ضرب المتوكل بالسيف ثم أخذته سيوف الباقين حتى هلك، فلما رآه الفتح قتيلا، قال: ألحقوني به فقتلوه ولفوهما فى بساط، ثم دفنوهما من غير تغسيل فى قبر واحد، وأشاعوا أن الفتح قتل المتوكل فقتلناه به فكان هذا مبدأ فتك الاتراك بالخلفاء وصيرورة الخلافة العباسية ألعوبة فى أيديهم وصار الخليفة معهم كالأسير، إن شاءوا أبقوه وإن شاءوا خلعوه أوقتلوه، وولوا من يقع اختيارهم عليه

هؤلاء هم الذين كان المعتصم يرى أن يكونوا حماة سلطانه وحفظة دولته، وقد خاب ظنه فيهم لأنهم صاروا أقوى المعاول فى هدم كيان الخلافة وأسرع العوامل فى التعجيل بها وذهاب ريحها وصدق فيه وفيهم قول من قال

أعلمه الرماية كل يوم فلما اشتد ساعده رماني
وكم علمته نظم القوافى فلما قال قافيـة هجانى

ولما مات المنتصر بعد ستة أشهر، قالوا: لانولى أحدا من أبناء المتوكل لئلا يطالبنا بدم أبيه، وأجمعوا أمرهم بينهم على استخلاف المستعين أحمد بن

محمداً بن المعتصم وقالوا : هو ابن ابن مولانا ، وإذا بايعناه لم تخرج الخلافة من ولد المعتصم

وبهذا الاجراء ونحوه صارت بغـــداد ميدانا للفوضى والارهاب واستولى الأتراك على كل شيء ، وبعد قليل خلعوا المستعين وعادوا إلى أبناء المتوكل فولوا المعتز وكانت أمه تسمى قبيحة ، وأحدر الأتراك المستعين إلى واسط وخيروه فيمن يرافقه فاختار أحمد بن طولون ، وقد أوعزت قبيحة اليه أن يقتل المستعين فأبى وله بقية حديث

ولى المعتز أمر مصر مزاحم بن خاقان أخا الفتح فتشدد فى التشريع إلى أهليها فخرجوا عليه فقاتلهم وانتصر عليهم وظل حتى مات فخلفه ابنه أحمد بن مزاحم نحو شهرين ، ولما حضرته الوفاة استخلف على مصر أرخوز التركى صاحب شرطة أبيه مزاحم فأقره عليها المعتز وجعـــل اليه إمرتها وأمرها جميعه

ثم هجم الأتراك على المعتز وطلبوا منه مالا فاعتذر فلم يقبلوا عذره واتفقوا على خلعه ، ثم قبضوا عليه وضربوه وأخيرا جعلوه فى بيت وسدوا عليه بابه حتى مات سنة ٢٥٥ بعد أن أشهدوا عليه بأنه خلع نفسه ؛ وولوا بعده المهتدى بن الواثق ثم خلعوه وولوا المعتمد بن المتوكل وكان هو وأخوه الموفق طلحة كالشريكين فى الخلافة : للمعتمد الخطبة والسكة والتسمى بأمير المؤمنين . ولأخيه الموفق : الأمر والنهى وترتيب الوزراء والأمراء والمرابطة والحرب والصلح — وفى عهدهما صرف أرخوز عن مصر وولى عليهــا الأمير أحمد بن طولون

أحمد بن طولون

هو الأمير أبو العباس أحمد بن طولون التركى أمير مصر الذى تولاها وعمره أربع وثلاثون سنة . كان أبوه طولون (ترجمته : البدر الكامل) مولى نوح بن أسد السامانى عامل بخارى وخراسان ، فأهداه إلى الخليفة المأمون فيما كان موظفا عليه من الرقيق والمال والبراذين وغير ذلك فى كل سنة ، وكان طولون قد أخذ أسيرا فى بعض الوقائع وجىء به إلى نوح ، وهو من جيل تركى يسكن أرضا واسعة على حدود الصين فى خيام كالبادين من الأعراب ويعرفون بالطغرغر ، ولما أرسل إلى المأمون أعجب به لجمال خلقه وقوة بنيته فألحقه بحاشيته وصار يرفع رتبته إلى أن جعله رئيس الحرس وأمير الستر

وقد لبث فى هذا العمل نحو ٢٠ سنة فى ثنايا أيام المأمون والمعتصم وقد ولد له ابنه أحمد سنة ٢٢٠ ومات طولون سنة ٢٤٠ ففوض اليه الخليفة المتوكل ما كان لأبيه ، إذ كان قد نشأ على مذهب جميل : حفظ القرآن وتعلم العربية وتفقه على مذهب أبى حنيفة وطلب العلم وأكثر من الدرس حتى صار من النوابغ المعدودين ، وكان من أطيب الناس صوتا بالقرآن الكريم ، ولما ترعرع تزوج من ابنة عمه خاتون بنت يازكوج التركى وهو من أكابر رجال الخلافة العباسية

ولنشأته فى جو من الدسائس والخيانة كان بصيرا بالسياسة خبيرا بما جريات الأمور ولكنه كان ينكر على الأتراك ما يحدثونه فى أمر الخلافة والخلفاء ، وما يرتكبونه من المخالفات والمفاسد ، ويعيب عليهم . ويمقتهم ويشدد فى عتابهم ويرميهم بأن حرمة الدين عندهم متروكة ثم يقاطعهم ولا

يتدخل فى عمل من أعمالهم ، ثم ضاق ذرعا من الاقامة فى دار الخلافة مع مايرى ويسمع من طغيان بنى جلدته وعدوانهم ، فوسط صديقا له يسمى احمد بن محمد بن خاقان ليسأل الوزير عبيد الله بن يحيى بن خاقان ، أن يحول أرزاقهما إلى الثغور ليكونا فى جهاد متصل وثواب دائم ، فقبل الوزير فخرجا إلى طرسوس ، ورأى ابن طولون ماعلية أهل تلك الاطراف من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فسره مارأى وطابت له الاقامة وأخذ يطلب العلم فى مسجد المدينة ويسمع الحديث . وعرض لصديقه أن يرجع إلى سر من رأى فاستقبلته أم ابن طولون بالبكاء على زعم أن ابنها مات ، فطمأنها كثيرا مؤكدا أنه فى عافية ، ولما رجع إلى طرسوس قال لابن طولون : إن كنت أردت بمقامك فى هذه البلاد وجه الله وتدع أمك كذلك ، فقد أخطأت . فاستعد ابن طولون إلى العودة وخرج مع صاحبه فى فصيلة من الجيش عددها نحو خمسمائة رجل ، ومعهم خادم للخليفة المستعين ومعه ثياب قيمة مثمنة من عمل الروم . فلما وصل الركب إلى الرها ، قيل أن جماعة من قطاع الطريق على انتظاركم والمصلحة دخولكم حصن الرها حتى يتفرقوا ، فقال ابن طولون : لا يرانى الله فارا وقد خرجت على نية الجهاد وعمل حتى شجع الركب على مصادمة هؤلاء اللصوص فانتصروا عليهم وإذ ذاك زادت هيبته فى أعين الناس

علاقته بالمستعين

ولما وصلوا إلى سر من رأى تحدثوا بشجاعة ابن طولون وتحدث الخادم الى المستعين بأنه لولا ابن طولون لذهبت هذه الثياب طعمة للصوص، فوهب له ألف دينارا سرا وجارية ولدت له ابنه خمارويه ، وكان إذا دخل على هذا

الخليفة مع الأتراك فى الخدمة أومأ اليه من بينهم بالسلام

ولما تنكر الأتراك للمستعين وخلعوه وأحدروه إلى واسط قالوا له من تختار أن يكون فى صحبتك فقال : ابن طولون ، فبعثوه معه فأحسن صحبته ، ثم كتبوا اليه بايعاز أم المعتز أن يقتله ويولوه واسطا فكتب اليهم : لارآنى الله قتلت خليفة بايعته أبدا ، فبعثوا إلى المستعين من تولى قتله . ولما عاد ابن طولون إلى سر من رأى زاد محله عند الاتراك ، وأكبروا فيه الامانة والوفاء بالعهد والاعتراف بالجميل

ولايته مصر

ولما وجهت ولاية مصر إلى أحد عظماء الاتراك المسمى بكباك لم يترك مركز نفوذه فى حضرة الخلافة بل أقام واستخلف أحمد بن المدبر — وكان من دهاة الناس — على الخراج — ثم أشرك معه أحمد بن طولون ، وقسم بينهما عمل مصر فكان ابن المدبر للجباية وابن طولون للجند والادارة على أن بكباك خص ابن طولون بأعمال القصبة وهى الفسطاط . لا يدخل فى ذلك الاسكندرية ولا غيرها من أقاليم مصر . ولما وصل ابن المدبر إلى مصر واشتغل بجبـاية الخراج أحدث بها أنواعا من المظالم فأخذ الأهالى يسعون للايقـاع به ، وأحس الامر فاتخذ لحراسته مائة غلام من مولدى الغور . لهم تمام خلق وبأس فى أنفسهم ، ومعهم مقارع تامة مقمعة بالفضة يقفون بها فى مجلسه فيكون له بهم هيبة ، ولما دخل ابن طولون مصر سنة ٢٥٤ خرج ابن المدبر ، ومعه عامل البريد شقير خادم قبيحة ، واستقبلاه ومعهما هؤلاء الحرس ، وأهدى اليه ابن المدبر من المال والرقيق والدواب ماقيمته عشرة آلاف دينار ، فرد ذلك كله . فتنبه ابن المدبر ودخل الرعب فى قلبه وقال لكاتبه : أكتب لى

كتابا إلى الوزير تعلمه فيه ان هذا الرجل لا ينبغى أن يتقلد إلا بحضرة السلطان أو ماقرب منها ، فقال له ولم ذاك ؟ قال همة ترد ماقيمته عشرة آلاف دينار لاتؤمن على طرف من الأطراف

وبعد حين بعث ابن طولون اليه : كنت بعثت الينا بهدية ذات قيمة فرددناها عند وقوع الاستغناء عنها ،وأنا أسألك أن تعوضنى عنها مائة غلام عندك من مولدى الغور . فقال لكاتبه : قد ظهرت فى هذا الرجل علامة أخرى وهى أنه يردا عراض والأموال ويستهدى الرجال ، فلم يحر جوابا فوجههم اليه ، فنقصت هيبة ابن المدبر وثقل على قلبه ابن طولون

ولايته على مصر كلها

ولما مات المعتز وبويع المهتدى سنة ٢٥٥ ثم قتل ، وقتل بكباك وهبت مصر لياركوج حمى أحمد بن طولون ؛ فاستعمل صهره على مصر كلها منفردا سنة ٢٥٧ بتقليد من الخليفة وضم إلى عمله الأسكندرية والجهات الأخرى وكتب اليـــه : تسلم من نفسك لنفسك ، فعظمت لذلك منزلة ابن طولون واشتد قلق ابن المدبر وغمه . ودعته ضرورة الحال إلى ملاطفة ابن طولون والتزلف إليه ، وفى الوقت نفسه أخذ يدس الدسائس ويشى بابن طولون فى حضرة الخلافة ولكن ابن طولون كان قد اتخذ العدة لقطع هذا الطريق على ابن المدبر وغيره ، بدهائه وماله ، وكان قد درس الرجال فى الحضرة وعلم أن ضمائرهم تشترى فاتخذ منهم أعوانا أغدق عليهم حتى كانوا يوالونه أولا فأولا بما يجرى فى شأنه فيحتاط للامر قبل وقوعه ، وكان فى هذه الخطط موفقا كل التوفيق

كان عامل البريد فى الحضرة من صنائع ابن طولون ، ومن أجل

ذلك كان يرد عليه الكتب التي ترد من مصر للايقاع بابن طولون ، فيعرف أصحابها ويراقبهم مراقبة دقيقة ثم يفتك بهم ، ومازال على هذا الحال حتى طهر مصر من عداته واطمأن

وكان التجار فى الحضرة عندهم من أموال ابن طولون ماجعله وقفا على رشوة العظماء والقواد ، حتى إذا وكل اليهم المبادرة إلى ابن طولون بالجيوش تعلق بهم هؤلاء التجار وقالوا للقائد اقض ديوننا أولا فانه لا يرجى قفول من حارب مائة ألف عنان، ثم يتلطف التاجر مع القائد ويقول له : ماينبغي أن تفسد مابينك وبين أحمد بن طولون ، وقد حمل اليك أمس كذا وكذا وقال لك ياأخي وابن عمي مايغمني فى عسكر السلطان غيرك ، فينبسط القائد وتزول عنه فكرة أذية ابن طولون

ولكن من أين كان لابن طولون الجيش المؤلف من مائة ألف ؟ كان احمد بن عيسى بن الشيخ الشيبانى يتقلد جندى فلسطين والأردن ؛ فلما مات وثب ابنه على الأعمال واستبد بها ، وبعث ابن المدبر من مصر سبعمائة ألف وخمسين ألف دينار فقبض ابن الشيخ عليها وفرقها فى أصحابه ، وكانت أمور الخلافة مضطربة فطمع فى التغلب على الشامات وأشيع أنه يريد مصر ولما بويع المعتمد لم يبايع هو ولا أصحابه ولم يدع له حتى كتب اليه يقلده أرمينية زيادة على مابيده من بلاد الشام . وفسح له فى الاستخلاف عليها والاقامة على عمله : فدعا حينئذ للمعتمد ، غير أن المعتمد كتب إلى ابن طولون فى التأهب لابن الشيخ وضبط أعماله وكتب لابن المدبر أن يطلق له من المال مايريد ، فانتهزها ابن طولون فرصة سانحة لتأليف جيش كثيف واشترى العبيد من الحمران (الروم) والسودان وغيرهم مايبلغ أكثر من سبعين ألفا

فاذا ضموا إلى حامية البلاد الاصلية كان له بهم نحو مائة ألف

ثم استعد ابن طولون إلى ابن الشيخ وبعث اليه يدعوه إلى طاعة الخليفة ورد ماأخذه من المال ، فأجابه بجواب قبيح فخرج ابن طولون فى جيشه حتى وصل إلى العريش وهنالك جاء كتاب من الحضرة بالعودة إلى مصر فعاد ، وواضح أن أمره بالعودة كان نتيجة الخوف من أن يستولى ابن طولون على الشام أيضا — وقدم ماجور التركى بجيش فحارب ابن الشيخ وقتل ابنه وهزم جنده واستولى على دمشق ولحق ابن الشيخ بارمينية وتقلد ماجور أعمال الشام كله

ولما علم بأمر ابن طولون وباستعداده وكثرة جنده : خافه فكتب إلى الحضرة : إنه قد اجتمع ابن طولون مالم يجتمع لابن الشيخ وإنه يخشى سورته على هذه النواحى ، وأنه قد غلب على مصر فجاءت ابن طولون الكتب باستدعائه الى الحضرة ليدبر أمر السلطان والمملكة ، فعلم أن هذا تدبير عليه ، فأقام وأنفذ كاتبه وكان بغداديا وولى فى الحال بدله كاتبا مصريا . وقيل له فى ذلك فقال : أصلح الاشياء لمن ملك بلدا أن يكون كاتبه منه . وأن يكون شمل الكاتب فيه

عود

ولما ثبت مركز ابن طولون بمساعدة يازكوج حميه زاد خوف ابن المدبر منه فكتب إلى أخيه ابراهيم بن المدبر يسأله التلطف له فى الصرف من مصر ، فورد عليه كتاب بتقليد خراج فلسطين فقبل مرتاحا وتلطف حتى خلص من يد أحمد بن طولون ، إذ صانعه بأن وهبه ضياعا كان قد ملكها بمصر . وخرج إلى عمله الجديد فشيعه ابن طولون . وبعد ذلك أنفذ المعتمد

نفيسا الخادم بتقليد ابن طولون خراج مصر والخراج بالثغور الشامية وكتب اليه باعفائه من أموال كان قد طلبها منه

ولا شك فى أن تعيين ابن المدبر فى فلسطين له مغزاه عند من ولاه فانه إذ ذاك يكون على مقربة من ابن طولون ، فيعرف أمره ويكشفه لأعدائه فى حضرة الخلافة أولا فأولا ، وهذا ضرب من ضروب السياسة له خطره

علاقته بالموفق واستقلاله

كان المعتمد قد عهد من بعده إلى ابنه المفوض لله ، ومن بعده لأخيه الموفق ، وكتب بينهما كتابا وقسم بينهما الدولة فجعل قسمها الغربي لابنه ونصفها الشرقى لأخيه ، وتقدم إلى كل منهما ألا ينظر فى عمل صاحبه وأن تكون النفقة على كل قسم من خراجه . وخلد هذا الكتاب الكعبة فأخذ الموفق يعالج فى قسمه أمر الثورات فاحتاج إلى الأموال ، وتأخرت أموال مصر لأنها كانت تحمل إلى المعتمد سرا فكتب الموفق على لسان المعتمد إلى ابن طولون فى حمل الأموال والطراز والرقيق والشمع . وكتب اليه المعتمد سرا : ان الذى كتب اليك هو الموفق وأنه جعل الرسول بالكتابة اليك عينا عليك ، وكتب معه إلى سائر قواده بالتضرب (الحركة العدائية) عليك — فلما ورد الرسول أنزله ابن طولون منزلا يليق به وتلطف حتى أخذ الكتاب . ثم حمل معه ألف ألف ومائتى ألف دينار ورقيقا وخيلا وطرازا وجميع ماجرى الرسم به وخرج مشيعا له إلى العريش . ومعه العدول ليسلم ذلك إلى خليفته ماجور

كان المعتمد بعد أن ولى ابنه القسم الغربى من الدولة قد استخلف عليه موسى بن بغا . فتقدم اليه الموفق ليصرف ابن طولون عن مصر ويقلدها

ماجور فامتثل موسى وكتب إلى ماجور كتاب التقليد . ولكن ماجور توقف عن انفاذ الكتاب عجزا من مناهضة ابن طولون — فخرج موسى ابن بغاواستعد ابن طولون إلى حربه وحصن الجزيرة وقدر أن يجعلها معقلا لحرمه وحرم جيشه وذخائرهم . ثم وصل موسى إلى الرقة وأقام بها عشرة أشهر حتى اضطرب الاتراك بمقامه وطلبوا منه أرزاقهم . فلما اشتد عليه أمرهم اضطر إلى العودة ولم تطل أيامه فمات ، وسطا ابن طولون على أصحابه بمصر واحتاز أموالهم

استقل الموفق ما حمل اليه ابن طولون من الأموال وذكر أن الحساب يوجب عليه أضعاف ماأرسل به وكتب اليه يعنفه ويهدده . فكتب اليه ابن طولون كتابا طويلا يذكر له فيه أنه مفتات فى طلبه هذا ، متدخل فى عمل غير عمله . فأحفظه ذلك الكتاب وأخذ يعمل الحيل فى الانتقام من ابن طولون فلم يفلح

واتفق أن ماجور مات واستخلف ابنه عليا . فحرك ذلك ابن طولون على المسير وكتب إلى ابن ماجور أنه سائر اليه وأمره باقامة الانزال والميرة فأجاب جوابا حسنا — ثم خرج ابن طولون فى سنة ٢٦٤ واستخلف ابنه العباس حتى بلغ الرملة فتلقاه بها واليها ابن رافع . وأقام له هنالك الدعوة . ثم قصد دمشق فتلقاه فيها ابن ماجور وأقام له الدعوة فأقام بها . ثم مضى إلى حمص فتسلمها . وبعث إلى سيما الطويل وهو على أنطاكية يأمره بالدعاء له فأبى فسار اليه وحاصره ورماه بالمجانيق ودخل المدينة فى سنة ٢٦٥ وقتل سيما واستباح أمواله ورجاله ومضى الى طرسوس . ثم بلغه أن ابنه العباس قد خالف عليه فأزعجه ذلك وسار اليه ، فخاف منه العباس وسارع الى الاسكندرية ثم الى برقة فأنفذ

الأمير اليه القاضى بكارا فأبى فعاد القاضى وسار العباس إلى إفريقية فأفسد فيها فاجتمع عليه أهلها وقاتلوه ونهبوا ما معه فعاد إلى برقة ، فعقد له الأمير على جيش وبعث به اليه ثم خرج بنفسه فى عسكر عظيم وأقام بالاسكندرية وأرسل فصيلة إلى برقة فهزموا جند العباس وأسروه ، وأعاد بالأمير إلى الفسطاط ووفدت الاسرى مع العباس فألقى الاسرى من حالق وبعد ذلك خرج الأمير إلى الشام واستخلف ابنه خمارويه وأخذ العباس معه مقيدا

مسألة المعتمد والموفق

وبينا كان أحمد بن طولون فى الشام ورد عليه كتاب من المعتمد بأنه قادم عليه ليلتجىء اليه فخرج كالمتصيد من بغداد وتوجه نحو الرقة فبلغ الموفق مسيره ، فعمل حتى أعاده إلى سامرا ووكل به جماعة وعقد لاسحق ابن كنداج الخزرى على مصر ، فبلغ ذلك ابن طولون فكر راجعا إلى دمشق وأحضر الفقهاء والقضاة وكتب إلى مصر كتابا قرىء على الناس بأن أبا أحمد الموفق نكث بيعة المعتمد وأسره فى دار أحمد بن الخصيب وأن المعتمد قد صار من ذلك إلى مالا يجوز ذكره وأنه بكى بكاء شديدا ، فلما خطب الخطيب يوم الجمعة ذكر ما نيل من المعتمد ، وقال:

اللهم فاكفه من حصره ،وظلمه. وخرج من مصر القاضى بكار وجماعة وقصدوا دمشق وقد حضر أهل الشامات والثغور ، وأمر ابن طولون بكتاب فيه خلع الموفق من ولاية العهد ، لمخالفته المعتمد وحصره إياه ، وكتب فيه أن الموفق خلع الطاعة وبرىء من الذمة ، فوجب جهاده على الأمة — وشهد بذلك جميع من حضر إلا القاضى بكار فانه قال لم يصح عندى ما فعله أبو أحمد ولم أعلمه وامتنع من الشهادة والخلع

بلغ الموفق ما صنع ابن طولون فكتب إلى عماله بلعن أحمد بن طولون على المنابر فلعنه الخطباء بما صيغته : اللهم العنه لعنا يفل حده ويتعس جده، واجعله مثلا للغابرين إنك لا تصلح عمل المفسدين — ثم مضى أحمد ابن طولون إلى طرسوس فنازلها وكان البرد شديدا ثم رحل عنها إلى أذنة وسار إلى المصيصة فنزلها وهنالك نزلت به علة الموت فكر راجعا إلى مصر وبلغ الفرما ومنها ركب النيل إلى الفسطاط فدخلها سنة ٢٧٠ وتزايدت به علته حتى مات ليلة الأحد لعشر خلون من ذى القعدة من هذه السنة

فلما بلغ المعتمد موته اشتد جزعه عليه ورثاه بأبيات منها :

شكت دولتى فقده وكان يزين الدول

خمارويه

هو الأمير أبو الجيش خمارويه أو خمار بن أحمد بن طولون السامرى المولد المصرى الدار والوفاة ملك مصر والشام والثغور بعد موت أبيه بمبايعة الجند له فى العاشر من ذى القعدة سنة ٢٧٠

وأول ما بدأ به حياته أن أحضر أخاه العباس لمبايعته فامتنع ، فأدخله منزلا من الميدان وكان آخر العهد به

ثم عقد لأبى عبدالله أحمد بن محمد الواسطى ، بعد أقل من شهر من ولايته ، على جيش سيره إلى بلاد الشام وأردفه بجيش آخر ، ثم بجيش بحرى فى السفن لتقيم بسواحل الشام

نزل الأول فى فلسطين وهو خائف يترقب فتك الأمير به لأنه الذى أشار عليه بقتل أخيه العباس ، فأراد أن يحتاط للأمر فكتب إلى الموفق طلحة

أو إلى ابنه أحمد وهو المعتضد يحرضه على المسير إلى خمارويه ويصغر من شأن هذا الأمير . فأقبل أحمد من بغداد وضم إليه من القواد من ضم ونزل الرقة واتخذها قاعدة حربية ومنها شن الغارة على قنسرين والعواصم وكانت كلها وكذلك جميع سواحل الشام داخلة فى سلطان خمارويه — ثم سار أحمد موغلا فى بلاد الشام يقاتل أصحاب خمارويه ويهزمهم حتى دخل دمشق.

ولما وصل الخبر إلى خمارويه خرج فى صفر سنة ٢٧١ من مصر حتى نزل فلسطين والتقى مع ابن الموفق بنهر أبى فطرس المعروف

وكان خمارويه فى سبعين ألفا ، وابن الموفق فى نحو أربعة آلاف ولما التقى الجمعان انهزم خمارويه واحتوى ابن الموفق على عسكره بما فيه وولى خمارويه منهزما إلى مصر

غير أن أحد قواد خمارويه ، وكان يسمى سعدا الأعسر خرج فى كمين كان له . وكان لم يعلم بهزيمة أميره ، فأخذ ابن الموفق ومن معه على غرة فهزمهم شر هزيمة وأرجعهم اثنى عشر ميلا . ثم مضى إلى دمشق ؛ ولكنه استهان بخمارويه وغيره وطمع فى الاستقلال ببلاد الشام واستولى على دمشق لأن أبا العباس أحمد بن الموفق عجز عن فتحها وفتحها أهلوها لسعد

وصل خمارويه إلى مصر ولا علم له بما حصل من سعد ولكنه لم يلبث أن خرج قاصدا دمشق وما وصل إلى فلسطين حتى حصلت أمور اضطر معها إلى العودة ، ثم خرج مرة ثالثة سنة ٢٧٢ فقاتل سعدا وهزمه ثم ظفر به وقتله ودخل دمشق وملكها، وفى اول سنة ٢٧٣ سار لقتال جند العراق فهزمهم ومازال يتتبعهم حتى كاد يدخل سر من رأى ، وعند ذلك عظم أمر خمارويه وهابته الناس

ومع هذا فانه كتب إلى الموفق طلحة فى الصلح فأجابه من فوره ، وكتب إلى خمارويه بولايته على مصر والشام جميعه والثغور ثلاثين سنة وقدم بالكتاب بعض خدام الموفق إلى الشام وعرف خمارويه أن المعتمد والموفق وابن الموفق كتبوا هذا الكتاب بايديهم تعظيما لخمارويه ، وعند ذلك عاد إلى مصر مسرورا مطمئنا وأمر بالدعاء إلى الموفق بعد المعتمد وترك الدعاء عليه الذى كان قد استحدثه أحمد بن طولون منذ خلعه من ولاية العهد كما سلف بهذا العمل حصلت الطمأنينة وانقطع خروج الجيوش إلى الشام فأخذ خمارويه فى إصلاح سلطانه غير أنه خرج وقت بلغه مسير أحد قواد العراق إلى أعماله بمصر فلحقه بثنية العقاب قرب دمشق وثبت له حتى هزمه أقبح هزيمة وعاد إلى مصر ظافرا منصورا

وبعد قليل ورد عليه الخبر بموت الموفق ثم موت الخليفة المعتمد وبيعة أبى العباس أحمد بن الموفق وقد لقب بالمعتضد — وعند ذلك صانعه خمارويه وأرسل اليه الهدايا والتحف وتقدم اليه بأن يزوج ابنته قطر الندا لولده المكتفى بالله . فقال المعتضد : بل أنا أتزوجها ، فعقد له عليها سنة ٢٨١ ودخل بها فى بغداد — وقد أصدقها ألف ألف درهم . وهذا الزواج سياسى كما يفعل ملوك أوربا الآن لايجاد رابطة يحدث من ورائها السلم أو التحالف أو غير ذلك من الأغراض . ولذلك يقال إن المعتضد أراد بزواجها أن يفقر أباها فى جهازها ! وقد تم له ذلك . فان خمارويه جهزها بجهاز عظيم يتجاوز الوصف . حتى قيل انه دخل له فى جهازها ألف هاون من الذهب وهذا الى غيره من أقراط الذهب وقلائد الحجارة الكريمة مما لم ير مثله ولم يسمع به ولما فرغ من جهازها أمر فبنى لها على رأس كل منزلة تنزل فيها قصرا فيما بين

مصر وبغداد ثم خرج بها عمها خزرج فى أصحاب خمارويه فكانوا يسيرون بها سير الطفل فى المهد ولذلك لم تعان شيئا من ألم السفر على بعد الشقة ، وكانها فى منازلها المختلفة لم تغادر بيت والدها ولما دخل بها المعتضد أحبها لجمالها وآدابها.

وبهذا الصهر زالت الوحشة بين خمارويه وبين المعتضد وصار بينهما مودة كبيرة ، وولاه المعتضد من الفرات إلى برقة ثلاثين سنة وجعل اليه الصلاة والخراج والقضاء وجميع الأعمال ، على أن خمارويه يحمل إلى المعتضد كل سنة مائتى ألف دينار عما مضى وثلثمائة ألف دينار عن المستقبل — وقدم بعد ذلك رسول المعتضد بالخلع إلى خمارويه وكانت اثنتى عشرة خلعة وسيفا وتاجا ووشاحا

بهذا صفا الجو لخمارويه بالديار المصرية وأمن ناحية الخلافة نهائيا فتفرغ إلى الاصلاح بهذا القطر وترسم طريقة والده وخطاه ؛ وأتم القصر وزاد فيه وحول الميدان إلى بستان زرع فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر وكسا أجسام النخل نحاسا مذهبا ، وجعل بين الغطاء النحاسى وأجسام النخل ميازيب من الرصاص أجرى فيها الماء بتدبير محكم كان من أجله يتفجر عيونا ويجرى إلى فساقى ثم يفيض منها إلى البستان فترويه ، وكان من ريحان البستان ما يهندم بالمقاريض إلى نقوش وزخارف وآيات من الكتاب العزيز واضحة لا يشكل منها شىء على القارىء ، وهذا إلى ما بناه من البروج التى جمع فيها كل بلبل صداح كما سرح فى البستان كل ما حسنت صورته من الطواويس ودجاج الحبش ، ثم إلى دار الذهب التى بناها لتكون مجلسا له مع محظيته بوران وقد طلى حيطانها بالذهب واللازورد ونقش على جهات

من جدرانها صورا بارزة له ولحظاياه ومغنياته وعلى رءوسهن أكاليل الذهب المرصعة بالجواهر وفى آذانهن الأخراص (حلقـــات الذهب) الثقال — وكان هذا المجلس من أعجب ما بنى فى الدنيا ، ومما أمر به أن يكون فكان : بركة الزئبق — اشتكى إلى طبيبه الأرق فأشار عليـــه بالتكبيس ، فأنف وقال لا أقدر على وضع يد أحد على ، فقال الطبيب : تأمر بعمل بركة من زئبق فعملت على هيئة مربع طول ضلعه خمسون ذراعا ، وملئت من الزئبق وجعل فى أركانها سككا من الفضة بزنانير من الحرير ثم جعل له فرش من جلد يملأ بالهواء فينتفخ ثم يحكم رباطه ويلقى فى البركة ويربط بزنانير فى حلق من الفضة ثم ينزل خمارويه فينام على هذا الفرش فلا يزال يرتج بحركة الزئبق مادام عليه

وكان يرى لهذه البركة فى الليالى المقمرة منظر عجيب إذا تألف نور القمر بنور الزئبق

وهذا العمل باب من أبواب الاسراف الذى لا مبرر له ولو أن ما أنفق فى هذا العمل استخدم فى شق الجداول أو إنشاء الطرقات أو الملاجىء أو المدارس أو نحو هذا لكان مصلحة عامة ينتفع بفوائدها أهل الجيل الحاضر وأبناؤهم من بعدهم إلى ماشاء الله — ولكن الأنانية وحب الذات والظلم من شيم الانسان وطباعه (إن الانسان ليطغى أن رآه استغنى)

وقد قيل إن الناس ظلوا مدة طويلة بعد خراب هذا القصر يحفرون فى ساحته لالتقاط الزئبق من شقوق الأرض

لم يقتصر اسراف خمارويه على هذا بل إنه بنى فى القصر قبة تضاهى قبة الهواء سماها الدكة . وجعل لها ستورا تقى من الحر والبرد ، كان يجلس

فيها ليشرف على البستان والنيل والصحراء والجبل ثم بنى ميدانا أكبر من ميدان أبيه واتخذ فى داره داراً للسباع وجعل فيها بيوتا كل بيت لسبع لا يسع غيره مع ما يحتاج اليه من أحواض المياه والرحبات الواسعة التى يخرج اليها السباع فى أوقات معلومة للتشمس والمهارشة وكان من هذه السباع (زريق) الذى ألفه خمارويه حتى صار مطلقا فى الدار لا يؤذى أحدا ، وكان يحضر مائدة الأمير ويأكل مما عليها وإذا نام أقام زريق ليحرسه حتى يستيقظ

وقد بنى لكل واحدة من أمهات أولاد أبيه واولادهن حجرات تجمعها دار واحدة عظيمة فيها من الخدم ولها من الرزق شىء كثير يفضل عن أهلها فيباع فى أسواق القطائع ، حتى لقد كان من يطرقه ضيف على غير استعداد يجد فى السوق من طعام أكرامه ما لا يستطيع أن يعده اليه فى بيته

وكانت نفقات خمارويه الخاصة بالمطبخ فى كل شهر ثلاثة وعشرين ألف دينار غير ما كان موظفا لجواريه وخدمهن

أما نفقات جيشه فكانت تسعمائة ألف دينار فى السنة ، وكان قد اتخذ لنفسه جماعة من مولدى الحوف وسائر الضياع ، معروفين بالبأس والنجدة ، وسع عليهم فى الرزق ، وألبسهم الأقبية من الحرير ، وصاغ لهم المناطق ، وقلدهم السيوف المحلاة ، يرفعونها على أكتافهم إذا مشوا بين يديه وقد سماهم (المختارة) وكانوا يقاتلون فى مقدمة الجند فيحدثون أضعاف ما يحدثه الجند

وكانت حلبة السباق فى أيامه تقوم عند الناس مقام الأعياد لكثرة الزينة وركوب سائر العساكر والجنود بالسلاح التام والعدد الكاملة

ومازال أمر خمارويه يتضاعف حتى ماتت حظيته بوران ، فكدر موته عيشه وانكسر انكسارا بان عليه

ولما فرغ من تجهيز ابنته قطر الندا وأرسلها إلى المعتضد خرج إلى دمشق بعساكره وأقام بها إلى أن قتل على فراشه

قال بعضهم : إن خمارويه مات حين حاجته إلى الموت لأنه لو عاش أكثر من هذا حتى يلتمس ما كانت جرت به عادته لاستصعب ذلك عليه ، ولو نزلت به ملمة لافتضح

قيل إن الذى قتله بعض جواريه اللاتى هددهن بالقتل وقد رآهن يختلطن ببعض خدمه اتصالا مريبا ، وقيل إنه كان كثير الفساد بالخدم فدعا أحدهم وهو فى الحمام معه إلى ما يوجب الغسل فامتنع حياء من بقية الخدم فأمر بضربه حتى يموت فكرهه الخدم ، وكان قد بنى قصرا بسفح جبل قاسيون شمالى دمشق ينفرد فيه بالفجور فتربص به الخدم فى ليلة من الليالى واقتحموه عليه وذبحوه ذبحا وهو على فراشه ثم هربوا وكان ذلك سنة ٢٨٢

وكان الأمير طغج بن جف فى هذا القصر وهو من قواد خمارويه فلما علم ركب فى الحال وتتبع هؤلاء الخدم وكانوا نيفا وعشرين فأدركهم وقبض عليهم وقتلهم ومثل بهم ، وحمل خمارويه إلى تابوت فى الفسطاط وصلى عليه ابنه جيش ودفن فى مكان غير معروف بالضبط ، ولا بد أن ذلك كان خشية أن ينبش قبره ويمثل به تمثيلا ليكون ذلك جزاء وفاقا لما ارتكبه من ضروب الظلم وكانت مدة ملكه بمصر والشام اثنتى عشرة سنة ونصفا

جيش بن خمارويه

هو أبو العساكر جيش بن خمارويه بن أحمد بن طولون ، ولى مصر والشام بعد قتل أبيه بدمشق فى النصف الثانى من ذى القعدة سنة ٢٨٢ فاقام بدمشق أياما ثم عاد إلى ديار مصر وظل بها إلى أن وقعت منه أمور أنكرت عليه فاستوحش منه الناس .

وكان قد امتنع عن البيعة له جماعة من كبار قواد أبيه لعجزه عن الانعام عليهم ، إذ كان أبوه قد أسرف فيما أسرف فيه من الأعمال ، وفى جهاز ابنته قطر الندى فكانت خزانة الأموال خوية واخزائن خالية ، غير أن بعضهم تلطف فى أمره حتى تمت بيعته ، وقد بايعوه وهو صبى لم يؤدبه الزمان ولا علمته التجارب — لذلك لما تم أمره أقبل على اللهو والشرب ، واتخذ جماعة ممن هم على شاكلته من النزق ، وممن هم فى نحو سنه من الغلمان وأهل الخلاعة الذين كانوا لا يقام لهم وزن وقد جعلهم بطانته والمشيرين عليه والمدبرين لأموره .

وكان أول ما حسنوه له أن وثبوه على عمه واتهموه عنده بأنه قرع أباه فى انهزامــــه يوم نهر أبى فطرس وبأنه يتربص بجيش الدوائر وينتهز الفرص للوثوب وما إلى ذلك من التهم حتى قبض عليه هــذا الأمير ودس إليه من قتله ، وقد ملك هؤلاء الرعاع من جيش قلبه ولسانه فاشتغل بهم عن قواد أبيه وعن أمور الناس ، ومع ذلك فانهم صبروا عليه كثيرا وانتظروا أن تحسن حاله على طول الأيام وفاء بحق خمارويه وما كان له عليهم من يد وما غمرهم به من الفضل وما أسبغ عليهم من النعم

لكنه بالغ فى الاستهتار بهم ، وكان يجاهر إلى هؤلاء الأوباش بأنه سيقلدهم أعمال هؤلاء القواد ويسميهم بالكلاب ، وعندذلك لم يستطيعوا صبرا فبسطوا ألسنتهم فيه ، وأجمعوا أن يفتكوا به ، وبلغه ما كان من تدبيرهم فى حقه ، فلم يعالج أمرهم بسياسة حكيمة مؤسسة على الشورى وأصالة الرأى بل تحداهم وتوعدهم بالقتل ، فلم يجدوا بدا من اعتزاله بل ومن الفرار من وجهه الى الخليفة المعتضد ، فلما سمع بهم بعث اليهم من يتلقاهم وتقبلهم بقبول حسن وخلع عليهم وضاعف ارزاقهم وصنع فى امرهم كل جميل

اماجيش فظل على مارسم الى نفسه من تلك الخطط السيئة ، وفيما هو على ذلك إذ بلغه ان الأمير طغج بن جف أمير دمشق ، وكذلك ابن طغان أمير الثغور قد خرجا عليه واسقطا اسمه من الدعوة والخطبة — ولكن ذلك لم يغير من حاله

ولما رأى بقية غلمان أبيه ماهو فيه تشـاوروا فى خلعه وأحضروا عدول البلد وأعادوا لهم أخبـاره وقالوا مامثل هـذا يقلد شيئا من أمور المسلمين وامتنع جماعة من بينهم أن يخلعوه حتى يستحضر ويمحض النصح فان وعد برجوع وتاب أمهل وجرب . وإن عجز وجعلنا فى حل من بيعته بايعنا غيره فأحضروه فاعترف بأنه يعجز عن القيـام بتدبير الدولة وأنه قد جعل من له فى عنقه بيعة فى حل . وعمل محضرا بذلك وصرفوه بعد أن خلعوه ثم بعد أيام يسيرة سجنوه وقتلوه بعد أن ملك ستة أشهر ونصفـا

وربما كان من أهم العوامل فى قتله ماكان من حبسه أعمامه بعد ولايته ثم قتلهم وأراد استيعابهم وقطع دابرهم ولكنه قبض عليه قبل أن يقضى عليهم

جميعا وسجن ثم بعث اليه أخوه هرون من قتله فى السجن

هرون بن خمارويه

هو الأمير أبو موسى هرون بن خمارويه بن أحمد بن طولون المصرى المولد ، ولى مصر بعد قتل أخيه جيش سنة ٢٨٣

وكانت بيعته من غير عطاء للجند أى على غير ما كان معروفا وهو من الغرائب ، بايعوه طائعين ارسالا لم يمتنع عليه أحد منهم

وانتخبوا أبا جعفر بن أبى ليكون وزيره ومدبر أمره . وسكن الناس وبخاصة بعد قتل أصحاب جيش وأنصاره ، وبعد أيام أمر ابن أبي ، ربيعة بن أحمد بن طولون أن يخرج إلى الاسكندرية بأهله ويبعد عن الحضرة .

ففعل وأقام بها على أجمل وجه إلى أن كاتبه قوم ووثبوه وقالوا له لو كشفت وجهك لتبعك أكثر الجيش فأطاعه وأقبل مسرعا حتى وصل إلى جبل المقطم ، وقد أخذ يدعو لنفسه طمعا فيمن بقى له ، ممن كاتبوه فلم يأته أحد فشن الغار على الناس منفردا يدفعهم ويدفعونه حتى قتل

وكان هرون صبيا لم يبلغ بعد مبلغ الرجال ، فلما رأى غلمان أبيه الكبار أن الأمر كله بيد ابن أبى استولوا على الجيش . وبه أصلحوا أمر الشام واستخلفوا على دمشق طغج بن جف من قبل هرون

وبعد قليل تحداهم هرون وقدم عليهم أصاغر قواد أبيه ثم نفى بعضهم إلى الرملة فتأكدت الوحشة بينهم وبين هرون ، وحصلت فتنة فى الشام بخروج أحد العلويين هنالك وانهزام ابن طغج فى حروبه معه

فأعد هرون فصيلة لقتاله فقتل لكن أصحابه بايعوا أخاه وطالت مقاومة المصريين لهم حتى علم الخليفة المكتفى بن المعتضد ، فأرسل اليهم حملة صرفتهم عن دمشق إلى حمص وهنالك عظم أمرهم ودعا قائدهم الى نفسه وتسمى بالمهدى وكان له شامة زعم أنها آيته

فما زال بهم الخليفة المكتفى حتى بدد شملهم وقبض على زعمائهم ومثل بهم أفظع تمثيل

ثم أرسل هذا الخليفة جيشا بقيادة محمد بن سليمان الكاتب إلى مصر لقتال هرون لأن الوحشة كانت قد وقعت بينهما فسار إلى الشام وهنالك انضم اليه غلمان خمارويه الذين بينما كان من استيلائهم علي الجيش لما كان فى نفوسهم من هرون وساروا جميعا نحو مصر ، واتصلت أخبارهم بالأمير فاستعد لقتالهم وخرج فى جنده إلى العباسية ، وكتب منها إلى أولئك الغلمان يستعطفهم ، ويذكرهم بما يجب عليهم من الوفاء لأبيه وحده — وبينا هو ينتظر الرد منهم اذهجم عليه أحد غلمانه فى ليلة من الليالى وهو فى مضربه وقد شرب وثمل ونام آمنا فذبحه ذبحا ؛ وكان ذلك بمساعدة بعض أعمامه ، فأصبح الناس وأميرهم مذبوح وقد تفرقت الظنون فى قاتله - على أن الروايات مختلفة فى السبب الذى دعا إلى قتله بعد أن ملك تسع سنين ولما قتل عاد الناس الى مصر وهم بغير أمير

شيبان بن احمد بن طولون

وعند ذلك قام عمه شيبان فدعا لنفسه وضمن للناس حسن القيام بأمر الدولة والاحسان لمن ساعده ، فبايعه الناس على ذلك ، ولما تم له الأمر لعشر بقين من صفر سنة ٢٩٢ أخذ يتهيأ لقتال هؤلاء المجتمعين اليه بالشام من جند الخليفة ومن انضم اليهم من غلمان بن طولون

وكان شيبان أهوج متسرعا جسورا جلدا ، حصل على مال كان عند أم هرون فى خبايا ها فتقوى به وأغدق منه على الجند ولكن محمد بن سليمان تقدم بعسكره حتى نزل بباب مصر فضرب خيامه بها بعد نحو عشرة أيام فقط من ولاية شيبان فخرج شيبان بعساكره ووقف بهم لممانعة ابن سليمان من دخول المدينة والتقى الجمعان وكانت بينهم مناوشة ساعة وكتب اليه ذلك القائد يؤمنه على نفسه وماله وإخوته وبنى عمه جميعا — فنظر شيبان إلى قلة من معه وكثرة أعدائه وظن خيرا بمحمد بن سليمان فاستأمن اليه ، وجمع إخوته وبنى عمه ليلا وتوجهوا الى ذلك القائد فصاروا فى قبضته — وعلم خيالة شيبان بما أحدث فكفوا عن القتال وأسلموا الرجالة الذين أصبحوا يقاتلون جند الخلافة بلا حام ولا رئيس فهجم عليه محمد بن سليمان بخيالته ورجالته حتى هزمهم ودخل المدينة من غير أن يمنعه عنها مانع وذلك فى آخر يوم من صفر ، ثم أخذ فى احراق القطائع التى كانت حول الميدان من مساكن السودان وغيرها فصارت خرابا يبابا وزالت دولة بنى طولون كأنها لم تغن بالأمس — وتسلط جند ابن سليمان من الخراسانية على البلد ومن فيها وما فيها ، فاهلكوا الحرث والنسل واعتدوا على الأعراض

والأموال وفعلوا فى المصريين مالا يفعلونه فى الكفرة وأجرى محمد بن سليمان ماأجراه فى مصر باعتبار أنها قد أصبحت ولاية من ولايات الدولة العباسية ، فعين الشرطة وولى القضاء ؛ وأخذ فى مصادرة الأغنياء واشتد وقسى ، فقتل وصلب ومثل ، ثم خرج من مصر فى رجب سنة ٢٩٢ واستصحب شيبان وبنى عمه وأولادهم وأعوانهم حتى لم يدع من بنى طولون أحدا والجميع فى الحديد حتى وافى بهم بغداد على أقبح وجه وخلت منهم الدار وعفت الآثار وحل بهم الذل بعد العز وخرب الميدان وقصوره وحدائقه ومجالسه وبيعت انقاضه ودثر وزال مكانه كأنه لم يكن

من لم ير الهدم للميدان لم يره ... تبارك الله ما أعلى وأقدره
لو أن عين الذى أنشاه تبصره ... والحادثات تعاديه لأكبره

وأما مدة شيبان فى ملكه مصر فكانت تسعة أيام منها أربعة فقط كان له فيها النهى والأمر

دولة الفواطم بمصر

(٢٩٧ — ٥٦٧)

هذه دولة اتسعت أكناف مملكتها وطالت مدتها وكادت تملك ملكا عاما وتدين لها الأمم ، وتعرف بالعلوية نسبة إلى على بن أبى طالب . وبالفاطمية نسبة إلى فاطمة الزهراء بنت رسول الله أم الحسن والحسين ؛ كما تعرف بالاسماعيلية نسبة إلى اسماعيل بن جعفر الصادق ، وبالباطنية لقولهم بالامام الباطن أى المستور ، وبالملاحدة لما فى ضمن مقالاتهم من الالحاد .

والمعروف أن بنى على لم يسكتوا عن طلب الخلافة منذ قتل أبوهم ، فقد بويع بها الحسن فى العراق ثم تنازل عنها لمعاوية ، وفى أيام يزيد دعا شيعة العراق الحسين أخاه ليبايعوه بالخلافة فخرج اليهم وقتل بكربلاء ، لخذلانهم أياه بعد أن بذلوا له النصرة على بنى أمية وتحالفوا على ذلك وتابعوا الكتب اليه ، ولما هدأت الفتنة بعد قتله وهلك يزيد ، اجتمع ناس من أهل الكوفة وندموا على خذلانهم الحسين وتابوا من ذلك ، ثم تحالفوا على بذل نفوسهم وأموالهم فى الطلب بثأره ومقاتلة قتلته ، وإقرار الحق مقره فى رجل من آل بيت نبيهم صلى الله عليه وسلم ، وأمروا عليهم رجلا منهم يقال له سليمان بن صرد فكاتب الشيعة بالأمصار يندبهم الى ذلك فأجابوه بالموافقة والمسارعة .

ثم ظهر فى تلك الأيام المختار بن أبى عبيد الثقفى ، وكان شريفا فى نفسه عالى الهمة كريما ، فدعا إلى محمد بن الحنفية وإلى الطلب بدم الحسين ، وكانت الأيام أيام فتن ، إذ كان مروان بن الحكم خليفة بالشام مبايعا ، وعبد الله بن

الزبير خليفة بالحجاز والبصرة ، ولهذه العوامل قويت شوكة المختار ؛ فاجتمع اليه الناس بالسلاح ، فاخرج أمير الكوفة منها وصار هو أميرها ، وفتك بقتلة الحسين ، ثم ادعى أمورا فتبرأ منه ابن الحنفية فدعا إلى ابن الزبير ولكنه ما عتم أن أرسل اليه أخاه مصعبا فقتله ، لافراطه فى قتل جماعة من أعيان العراق .

وفى أيام هشام بن عبد الملك استدعى الشيعة زيد بن على بن الحسين أخا محمد الباقر — إلى الكوفة ليبايعوه ، فناظروه فى إمامة أبى بكر وعمر فرأوه يقول بأمامتهما ولا يتبرأ منهما ، فرفضه فريق منهم وتبعته طائفة هم المعروفون إلى اليوم بالزيدية ، وكان قد خرج عنهم فالحقوه فلم يزالوا به حتى رجع إلى الكوفة ، وأقبلت الشيعه عليه من كل ناحية يبايعونه حتى أحصى ديوانه خمسة عشر الفا من أهل الكوفه وحدهم سوى أهل المدائن والبصرة وواسط والموصل ، وأهل خراسان والرى وجرجان ، ولما خفقت الأعلام على رأسه قال الحمد لله الذى أكمل لى دينى ، والله أننى كنت أستحيي من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أرد عليه الحوض غدا ولم آمر فى أمته بمعروف ولم أنه عن منكر ، فجرد عليه يوسف بن عمر جيشا ، ولما التقى الجمعان أصاب زيدا سهم غرب فقتله ، فدفنه الشيعة فى ناحية مجهولة ، غير أن يوسف بن عمر دل على حفرته فاستخرجه منها فصلبه فبقى أياما ثم أنزله فأحرقه بالنار ثم ذاره فى الريح ، ويسميه الشيعة زيدا الشهيد .

وجاءه ابنه يحيى وهو يلفظ النفس الأخير ، فقال له أى شيء تريدان تصنع ؟ فقال أريد والله يا أبتاه أن أقاتلهم ولو لم أجدا أحدا إلا نفسى ، قال فافعل يا بنى فانك والله لعلى الحق وأنهم على الباطل ، فخرج إلى الجوزجان ودعا لنفسه وكان بها نصر بن سيار فأخذه وقتله .

ونكتفي بهذا في عصر بني أميـة ونقول : أنه في عصر بني العباس تحول ما كان من عداء بين العلويين والأمويين ، إلى ما هو أشد منه بين العلويين والعباسيين ، فانه لما أفضت الخلافة من بني هاشم إلى بني أمية وتسلمها معاوية من الحسن بن علي ، وتلقفها من بني أمية رجل فرجل ، نفر كثير من المسلمين من المهاجرين والانصار عن بني أمية ، ومالوا الى بني هاشم ، وكان بنو علي وبنو العباس يومئذ في هذا شرعا سواء ، فلما انتصر لهم واعتقدوا انهم أولى بالخلافة من بني أمية ، وبذلوا لهم النصرة والموالاة والمشايعة [illegible] آل محمد ، ولم يكن إذذاك بين بني علي وبني العباس افتراق في رأي ولا مذهب فلما ملك بنو العباس نزغ الشيطان بينهم وبين بني علي ، فبدأ منهم في حق بني علي ما بدا . وخرج عليهم من العلويين من خرج كلما سنحت له الفرصة .

ويذهب بعض المؤرخين الى ان كل من خرج من آل البيت ما كان منه ذلك الا عن مصيبة نابته وضنك مسه وفاقة لحقته وذل اهانه ، فان الامويين كانوا يغدقون على الموالي وصعاليك العرب بمئات الالوف من الدنانير ويخصونهم بالاقطاع والضياع ويستعملونهم على الممالك ويستوزرونهم ، ثم يقترون على الفاطميين حيث يصير الفاطمي في ضيق ومحنة شديدة ، بحيث لا يجد ثمن جارية زنجية يصون بها عفته ، ولا ثمن كسوة يستر بها بدنه ، ويرى ان الذين يشاركونهم في شرابهم وفسقهم وفجورهم ، في النعم والعز ، يتقلبون في أنواع الرفاهة ؛ فإذا كان بين جنبيه نفس أبية تحركه وتخوفه فيحرجونه ؛ لا يخرجها عن القناعة ، ولا تقطعها الهيبة ، ولكن يقولون أرض الله واسعة فيهاجر أحدهم الى ناحية من الارض فيها قوم من أمة جده محمد ﷺ ، فاذا وصلهم حركتهم نخوة الدين ، فاحترموه واكرموه ، وألفته قلوبهم واجتمعوا عليه ، فمتى بلغ خبره الامويين قالوا خرج ، وساقوا عليه القواد والجنود ، ولا يزالون حتى يتركوه

شهيدا وكذلك بنو العباس .

وبالتأمل ترى ان هذا لاينطبق على الذين خرجوا ودعوا لانفسهم وطلبوا الى من اجتمع اليهم الجهاد معهم حتى تصير اليهم الخلافة والامامة ، معتقدين انهم احق بها واولى من المستولى عليها بغير حق من الامويين أو العباسيين ، نعم انه ربما كان التضييق عليهم والاضطهاد من أسباب مسارعتهم لاسبب قيامهم ودعوتهم إلى أنفسهم .

وبهذه المناسبة نذكر ماجرى لبعض أهل البيت العلوى على يد بنى العباس ، فقد ابتلى ابو جعفر المنصور باذية آل الحسن واغتالهم فى حبسه فقضوا بين بين مقتول ومسموم ، وقد أخذ مشايخ السادات منهم وهم عبد الله المحض بن الحسن بن الحسن ــ وكان شيخ الطالبيين فى عصره ــ وبنيه واخوته سادات بنى الحسن ، وحبسهم جميعا فى سرداب تحت الارض . لايعرفون ليلا ولا نهارا ولم يكن عندهم بئر الماء ولاسقاية ، فكانوا يبولون ويتغوطون فى مواضعهم واذا مات منهم ميت لم يدفن ، بل يبلى وهم ينظرون اليه ، فاشتدت رائحة البول والغائط عليهم ، فكان الورم يبدو فى اقدامهم ثم يترقى الى اقدامهم فيموتون والسبب فى ذلك قضية المهدى المنتظر

وأرانى فى حاجة إلى بيان شىء من هذا فى عهد المنصور .

كان بنو هاشم الطالبيون والعباسيون قد اجتمعوا فى ذيل دولة بنى أمية وتذكروا حالهم وماهم عليه من الاضطهاد ، وما قد آل اليه أمر بنى أمية من الاضطراب ، وذكروا ميل الناس اليهم ، ومحبتهم لأن تكون لهم دعوة ، واتفقوا على أن يدعوا الناس سرا ، ثم قالوا لابد لنا من رئيس نبايعه ، فاتفقوا على مبايعة النفس الزكية وهو محمد بن عبد الله بن الحسن ، وكان من سادات بنى هاشم ورجالهم فضلا وشرفا وعلما . وقد حضر هذا المجلس أعيان بنى هاشم

علويهم وعباسيهم، ومن الآخرين السفاح والمنصور ، فاتفق الجميع على مبايعة النفس الزكية ، فلما انتقل الملك إلى بني العباس وإلى المنصور منهم لم تك له همة سوى طلب النفس الزكية ليقتله أو يخلعه ، وأغراه بذلك أن الناس كانوا شديدي الميل إلى النفس الزكية ،وكانوا يعتقدون فيه الفضل والشرف والرياسة، فطلبه المنصور كما طلب أخاه ابراهيم من أبيهما محمد بن عبد الله فرفض ، فقبض عليه وعلى بنى الحسن جميعاً وصنع بهم فى الحبس ما تقدم بيانه .

أما قصة النفس الزكية فانه كان فى ابتداء أمره قد شيع بين الناس أنه المهدى المنتظر الذى بشر به ، أثبت أبوه هذا فى نفوس الناس منذ ولادته ، وكان يقول عنه هذا هو المهدى الذى بشر به ؛ هذا محمد بن عبد الله ، ثم القى الله محبته على الناس فمالوا اليه كافة ، ثم عضد ذلك أن اشراف بنى هاشم كانوا بايعوه ، ورشحوه للأمر ، فقدموه على أنفسهم ، فزادت رغبته فى طلب الأمر ، وزادت رغبة الناس فيه ، وما زال متغربا منذ أفضت الدولة إلى بنى العباس خوفا منهم على نفسه ، فلما علم بما جرى لأبيه وقومه ظهر بالمدينة وأظهر أمره ، وتبعه أعيان المدينة فغلب عليها ، وطرد عامل المنصور منها ، فندب اليه المنصور ابن أخيه عيسى بن موسى ، فالتقوا فى موضع قريب من المدينة فكانت الغلبة لعسكر المنصور ، وقتل محمد وحمل رأسه الى المنصور وذلك سنة ١٤٥ .

ومضى ابراهيم أخوه إلى البصرة وأظهر أمره ودعا إلى نفسه فتبعه جماعة ثم كثرت جموعه فأرسل اليه المنصور عيسى بن موسى بعد رجوعه من قتل النفس الزكية ، فالتقى الجمعان بقرية قرب الكوفة وكانت لعسكر المنصور الغلبة أيضا .

وقتل ابراهيم فى المعركة فى تلك السنة ، وبقتلة انطفأت الدعوة إلى العلويين إلى أن ظهرت فى عهد الهادى على يد رجل من بنى الحسن وسيد من

سادتهم وهو الحسين بن على بن حسن بن حسن بن الحسن السبط ، كان قد عزم على الخروج واتفق معه جماعة من أعيان أهل بيته ، ثم حصل من عامل المدينة — وهو عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر — تهضم لبعض آل على ، فثار آل أبي طالب بسبب ذلك ، واجتمع عليهم ناس كثيرون ، وقصدوا دار الأمارة فتحصن منهم العامل فكسروا السجون وأخرجوا من بها ، وبويع الحسين ، وولى أمرهم فأرسل اليهم الهادى محمد بن سليمان فى عسكر فالتقوا بموضع يقال له فخ ، فاقتتلوا قتالا شديدا وقتل الحسين وحمل رأسه إلى الهادى وهرب من الموقعة رجلان كان لكل منهما شأن عظيم فى الجهة التى هاجرا اليها : أحداهما يحيى بن عبد الله بن الحسن وثانيهما أخوه إدريس : فالأول ذهب إلى الديلم وخرج ايام الرشيد ، فاغتم الرشيد وأرسل اليه جيشا عومرما كان أمره إلى الفضل بن يحيى البرمكى فكاتب يحيى حتى أجاب إلى الصلح على أن يكتب له الرشيد أمانا بخطه فكان ، وسار إلى العراق فاستقبله الرشيد بالاكرام وبعد مدة قبض عليه وحبسه فمات فى الحبس — وثانيهما — خرج إلى مصر فحمله واضح المنصورى عاملها على البريد إلى المغرب فدعا إلى نفسه هناك فأجابه البربر وأنشأ بهم دولة الادارسة . فدس اليه الهادى أو الرشيد من دس اليه سما فمات سنة ١٦٩ .

ثم ان العلويين بعد الذى جرى لأعيانهم اخذوا يدعون سرا بالاماكن التى يهاجرون اليها ، واضطر أئمتهم الى الاستتار حتى يدرءوا عن انفسهم غدر العباسيين بهم إذ كانوا لهم بالمرصاد

وكان أول المستورين من طائفة الاسماعلية — الذين منهم فواطم مصر محمد المكتوم بن اسماعيل بن جعفر الصادق ، فابنه جعفر بن محمد ويلقبونه المصدق ، فابنه محمد الحبيب بن جعفر ، فولد محمد هذا عبيد الله بن محمد وهو الملقب بالمهدى المنسوب اليه سائر الخلفاء الفاطميين بالمغرب وبمصر .

المهدى المنتظر

قد اشتهر بين الكافة من أهل الاسلام على ممر الاعصار أمر هذا المهدى الذى يظهر فى آخر الزمان ويتبعه المسلمون ويملأ الدنيا عدلا كما ملئت جورا؛ وللقائلين به أحاديث يروونها محتجين بها ؛ وقد تحراها اهل الحديث فكانوا بين مثبت لها ومنكر ؛ ومعدل لرواتها ومجرح

أقول ، وسواء اصحت هذه الاحاديث أم لم تصح ؛ وسواءا كان رواتها من الحفاظ والثقات أم كانوا من أهل الغفلة والنسيان والرفاع ؛فان الناظر اليها من الوجهة التاريخية لايلبث ان يقول : ان هذه القضية او هذه العقيدة السمعية كانت فى كل عصر من عصور الدول الاسلامية عاملا من أكبر العوامل فى الثورات الداخلية والاضطرابات ، وتمزيق كيان الوحدة بانفصال بعض الاطراف واستقلالها ، وتعريض الدولة الى اغارة اعداء الدولة والملة ، أو الى محو سلطان العرب وقتل العصبية العربية . ولعمرى ، اكان المهدى المنتظر هو النفس الزكية الذى سماه بذلك ابوه عبد الله المحض ، وبين للناس العلامات التى رآها فيه والخال الاسود الذى بين كتفيه كالبيضة ، فصدقوه وقالوا هذا خاتم الامامة ، ثم خرج فقتل هو واخوه وأصاب بنى الحسن وفى مقدمتهم ابوه ماأصابهم فى حبس المنصور ، ومازالت طائفة من الشيعة تزعم انه حى لم يقتل ولامات ولايموت حتى يملأ الارض عدلا ؛ كما ملئت جورا (كما زعمت فرقة أخرى ذلك لابن الحنفية) ؟ أم كل من يدعى هذه الدعوة ويحتال فى أثبات صحتها أو اقرار الناس بها له طوعا أو كرها حتى مهدى السودان صاحب الدراويش ؟ أم لايزال يرتقب الى يوم الدين .

لقد أدعى المهدية كثير من الناس فى عصور مختلفة ثم تبين بعد ذلك

انهم من البله والمجانين والموسوسين وانما ينقاد اليهم العامة فيكثر جمعهم ثم لايلبث امرهم ان يذهب صرخة فى واد ولكن بعد اراقة الدماء وذهاب الاموال ويتم الاطفال .

اللهم ان المشرع الاعظم صلوات الله عليه وسلامه ارأف بامته من ان يعرضهم الى التلف جيلا بعد جيل ، واذا كان لم يوص الا احد الا فيما يذكره الشيعة لعلى بن أبى طالب ، افلا يصح لنا بعد هذا ان نقول ايضا : أنحديث الفاطمى أو المهدى من وضع الشيعة وبخاصة لان أهل الحديث تناولوا الاحاديث التى فى هذا المعنى بالانكار وتناولو رواتها بالطعن

كلمـــــــة

العبيديون أو الفاطميون من الشيعة الأمامية الذين يقولون بأمامة على بن أبى طالب بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالوصاية ، وهذه الوصيـة لم تعرف لأحد من أهل النقل وهى من موضوعات الأمامية وأكاذيبهم ، وبها يمتازون عن سائر الشيعة ، وعليها يعتمـدون فى البراءة من أبى بكر وعمر ، وهم مع غيرهم من الفرق مطبقون على تفضيل ، على وليس هذا الفضل بقادح عند الزيدية فى أمامة أبى بكر ، لقولهم بجواز أمامة المفضول مع وجود الأفضل ، ولا عند الكيسانية لأنهم لم يدعوا هذه الوصية .

ثم صارت الامامة من على إلى ابنه الحسن ثم إلى الحسين ثم إلى ابنـه على زين العابدين ثم ابنه محمد الباقر ثم ابنه جعفر الصادق ، وكل هؤلاء بالوصية — ثم افترقوا من ههنا فرقتين .

(١) الاثنا عشرية — ويذهبون إلى أن الامامة انتقلت من جعفر الصادق إلى ابنه موسى الكاظم — الذى خرج دعاته بعد موت أبيـه فحبسه

الرشيد حتى مات سنة ١٧٣ — ثم ابنه على الرضا الذى عهد اليه المأمون بالأمر من بعده سنة ٢٠١ وكان معه بخراسان، وفى عودتهما إلى العراق مات فى الطريق سنة ٢٠٣ ودفن ؛ ودفن بطوس ، ثم إلى ابنه محمد التقى ثم إلى ابنه على الجواد ثم إلى ابنه الحسن العسكرى ثم إلى ابنه محمد الذى يلقبونه المهدى والحجة ويزعمون أنه دخل مع أمه فى سرداب ببيت أبيه ، وأنه حى لم يمت وهم الآن ينتظرونه ، وإذا صلوا المغرب قدموا مركبا إلى دار السرادب بحليته ، ونادوا بأصوات متوسطة : أيها الامام أخرج الينا فان النـاس منتظرون ، والخلق حائرون والظلم عام والحق مفقود . . ويكررون ذلك إلى أن تبدو النجوم ثم ينصرفون إلى الليلة الآتية ، وهكذا دواليك ، فانظر هذا السخف والحمق من اتباع المهدى المنتظر وهو الثانى عشر من أئمتهم .

(٢) الاسماعلية ـ ويزعمون ان الامامة بعد جعفر الصادق تنتقل الى ابنه اسماعيل ؛ وقد توفى قبل أبيه ، ولكنه كان أكبر اخوته ، وفائدة النص عندهم على اسماعيل أنهم يسوقون الامامة من بعده الى ابنه محمد المكتوم أول الأئمة المستورين عندهم — الذين يستترون ويظهرون الدعاة — وعددهم ثلاثة وثانيهم جعفر المصدق وثالثهم محمد الحبيب ثم انتقلت الامامة منه الى ابنه عبيد الله المهدى صاحب الدولة (بافريقية والمغرب) التى قام بها أبو عبد الله الشيعى بقبائل كتامه الذين كان فيهم خلق كثير يدعون الى الرضا من آل محمد .

وكان هذا المذهب هنالك من لدن الدعاة الذين بعثهم جعفر الصادق الى المغرب ، ومنهم الحلوانى وابو سفيان اللذان ارسلهما الى بلاد المغرب سنة ١٤٥ وقال لهما انكما تدخلان أرضا بورا لم تحرث قط ، فاحرثاها وكرماها وذللاها حتى يأتى صاحب البذر فيضع فيها حبه ؛ فلم يزالا يدعوان الناس

لطاعة آل البيت حتى استمالا قلوب جمع كثير من كتامة وغيرهم الى محبة آل البيت فصاروا لهم شيعة الى ان دخل اليهم صاحب البذر ابو عبد الله الشيعى بعد ١٣٥ سنه وكان من أمره ما ستراه

فى نسب الفواطم

وقد اختلف فى نسب عبيد الله الفاطمى جد الخلفاء العبيديين ، فمن الناس من يصحح نسبه الى محمد الحبيب على نحو مارأيت ، ومنهم من ينكر هذا النسب فيجعله فى اليهودية أو المجوسية ، وكلا وكان الفريقين يجوز الطعن عليه ، فان المصححين لنسبهم الى آل البيت ، من الشيعة ، والمنكرون ، من خصوم الفواطم الحاسدين لهم الناقمين منهم أن كانت لهم دوله بنوا أساسها على نسبهم هذا، واليك شيئا مما قيل فى نسبهم .

(١) الفواطم من ولد ديصان الثنوى . الذى تنسب اليه الثنوية القائلين بخالقين ، احدهما يخلق النور الآخر يخلق الظلمة ، فولد ديصان هذا ابنا يقال له ميمون القداح ، وولد لميمون ابن يقال له عبدالله كان اخبث من أبيه وأعلم بالحيل ، فعمل ابوابا عظيمة من المكر والخديعة على بطلان الاسلام ، وكان عارفا عالما بجميع الشرائع والسنن وجميع علوم المذاهب ، فرتب ماجعله من المكر فى سبع دعوات ، يتدرج الانسان من واحد الى أخرى حتى ينتهى الى الاخيرة فيبقى معرى من جميع الاديان (لادينيا)، وماأشبه هذا بدعوة الفاطميين بمصر التى كان يقوم بهاداعى الدعاة

وكان عبد الله بن ميمون يريد بهذا فى الباطن ان يجعل المخدوعين امة له ، يستمد من أموالهم بالمكر والخديعة، وفى الظاهر يدعو الى الامام من آل البيت محمد المكتوم متسترا بالتشيع ، وقد صارله دعاة . وعلم الشيعة بحقيقة

أمره فتشاوروا به ، ففر من بلد الى بلد ومعه رجل من أصحابه يعرف بالحسين الاهوازى ، حتى استقر فى سلمية بنواحى حمص ليخفى أمره بها ، فولد لعبيد الله ولد أسمه احمد ، قام بترتيب الدعوة بعد موت أبيه ، وولد له ولدان الحسين ومحمد ابو الشلعلع ، قام الاول بالدعوة بعد موت أبيه ، فلما هلك خلفه اخوه محمد فارسل أبا عبد الله الشيعى واخاه ابا العباس الى المغرب ، وكان للحسين ولد صغير اسمه سعيد ، فبقيت له الدعوة حتى كبر ، ثم اشتهر أمرهم بسلمية وكانوا قد ايسروا ، فبعث فى طلبهم السلطان ، ففر سعيد الى مصر ايام ولاية عيسى النوشرى عليها فبعث السلطان اليه بالقبض على سعيد ففر الى الاسكندرية ، فبعث النوشرى الى واليها بالقبض عليه، فقال له الوالى: انى رجل من آل رسول الله ، فرق له وخلاه ، فسار حتى نزل سجلماسه فى زى التجار ، وهنالك قبض عليه وسجن ، واتصل خبره بابى عبد الله فسار اليه بالبربر وقتل والى سجلماسة واخذ سعيدا فصار صاحب الامر وتسمى بعبيدالله ، وتكنى بابى محمد ، وتلقب بالمهدى ، وصار اماما علويا من ولد محمد الحبيب.

فعبيد الله الملقب بالمهدى هو سعيد بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح بن ديصان الثنوى الاهوازى ، واصلهم من المجوس

ولم يدع سعيد هذا نسبا الى على بن ابى طالب الا بعد هربه من سلمية، ولم يدع آباؤه من قبله هذا النسب ، وانما كانوا يظهرون التشيع ويدعون الى محمد المكتوم ، ولم يتم لسعيد أمره بالمغرب الا من قوله انا من آل رسول الله فاستعبد الناس هناك بهذا القول وخفى امر مذهبه عليهم الا من كشف له من خاصته ودعاته من التعطيل والاباحة ، ومع ماكانوا يظهرون لم يكن لهم جسارة ان يذكروا لهم نسبا على منبر ولا فى مجمع بين الناس سوى مايشيعون

انهم من آل رسول الله بغير نسب ينتسبونه تمويها على العامة

(٢) عبد الله الفاطمى يهودى ابن يهودية — ذكر ذلك صاحب كتاب افريقية والمغرب ، وهو عبد العزيز بن شداد ، قال بعد أن ذكر ماكان أثر بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نفوس اليهود والنصارى والمجوس ، وأنهم لما يئسوا من استئصال الاسلام بالقوة فى عهده وعهد خلفائه الراشدين من بعده ، أخذوا فى وضع الأحاديث الكاذبة وتشكيك ضعفة العقول فى دينهم ، وأفسدوا الصحيح بالتأويل والطعن عليه ، وأول من فعل ذلك محمد بن أبى زينب وميمون بن ديصان وغيرهما ؛ فالقوا إلى من وثقوا به أن لكل شىء من العبادات باطنا ، وأن الله لم يوجب على أوليائه ومن عرف الأئمة صلاة ولا زكاة ولا حرم عليهم شيئا . . وقالوا هذه قيود للعامة ، وهى ساقطة عن الخاصة ، وكانوا يظهرون التشيع لآل النبى ليستروا أمرهم ويستميلوا العامة ، وتفرق أصحابهم فى البلاد وأظهروا الزهد والعبادة ، يغرون الناس بذلك وهم على خلافه ؛ فقتل أبو الخطاب وصحبه بالكوفة — وكان لابن ديصان ابن يقال له عبد الله القداح علمه الحيل وأطلعه على أسرار هذه النحلة فحذق وتقدم وصار له بعد حين دعاة من سلمية إلى خراسان ، وقام بعده ابنه أحمد فسير ابن حوشب إلى اليمن وأمره بلزوم العبادة والزهد والدعاء إلى المهدى وأنه خارج فى هذا الزمان فنجح فى بث الدعوة هنالك ، وكانت له شيعة ، ومات أحمد فخلفه ابنه محمد ، ومات محمد فخلفه ابناه : أحمد والحسين ، واتفق أن الحسين كان يدعى أنه الوصى وصاحب الامر ، والدعاة باليمن والمغرب يكاتبونه ، ثم جرى ذكر النساء بسلمية ، فوصفوا له امرأة رجل يهودى حداد مات عنها زوجها وهى فى غاية الجمال ، ولها ولد من الحداد ، فتزوجها وأحب ولدها وعلمه فتعلم ، ولما لم يكن للحسين ولد ، عهد إلى ابن اليهودى الحداد وعلمه أسرار

الدعوة من قول وفعل ، وأين الدعاة ، وأعطاه الأموال والعلامات وتقدم الى أصحابه بطاعته وخدمته ، وأنه الامام الوصى وزوجه بابنة أبى الشلعلع وجعل له نسبا منه الى على ابن أبى طالب .

(٣) عبيد الله الفاطمى من آل البيت – يذهب الى هذا جماعة من المؤرخين كابن خلدون والمقريزى ، الاول رأى أن اتساع دولتهم حتى قاسموا بنى العباس ممالك الاسلام ، دليل صدقهم فى دعوى النسب الى آل البيت ، ويقول ، كيف يقع هذا كله لدعى فى النسب مكذب فى إنتحال الأمر ، واعتبر حال القرمطى إذ كانت دعيا فى انتسابه كيف تلاشت دعوته وتفرق اتباعه وظهر سريعا جلى خبثهم ومكرهم فساءت عاقبتهم وذاقوا وبال أمرهم ، ولو كان أمر العبيدين كذلك ، لعرف ولو بعد مهلة .

فهما تكن عند امرىء من خليقة وان خالها تخفى على الناس تعلم

فقد اتصلت دولتهم نحوا من مائتين وسبعين سنة ، وملكوا مقام ابراهيم ومصلاه ، ومواطن الرسول ومدفنه ، وموقف الحجيج ومهبط الملائكة . . الخ

ويقول الثانى : وأنت إذا سلمت من العصبية والهوى ، وتأملت ما قدمر ذكره من أقوال الطاعنين فى أنساب القوم ، علمت ما فيها من التعسف والحمل مع ظهور التلفيق فى الأخبار ، وتبين ما تأبى الطباع السليمة قبوله ويشهد الحس السليم بكذبه ، فقد ثبت أن الله تعالى لا يمد الكذاب المفتعل بما يكون سببا لانحراف الناس اليه وطاعتهم له على كذبه . . بل الحكمة الالهية والعادة الربانيه وسنة الله التى قد خلت فى عباده ، اقتضت أنه تعالى إذا رأى الكذاب يستظهر بالمحافظة على التنمس بالباطل ، ويتوصل إلى اقامة دولته بالكذب ، ويحليها بالزور فى ادعائه نسبا إلى رسول الله غير صحيح . . يحول بينه وبين همه ويسلبه الأسباب التى يتمكن بها من الاحتراز ، ويعرضه لما يوقعه فى المهالك

ويسلك به سبيل أهل البغي والفساد، فلما لم يفعل ذلك بعبيد الله المهدى ؛ بل كتب تعالى له النصر على من ناأه ، والتأييد بمعونته على من خالفه وعاداه حتى مكن له فى الأرض ، وجعله وبنيه من بعده أئمة ،وأورثهم أكثر البسيطة، وملكهم من حد منتهى العمارة فى مغرب الشمس الى آخر ملك مصر والشام والحجاز وعمان والبحرين واليمن ، وملكهم بغداد وديار بكر مدة ، ونشر دعوتهم إلى خراسان ونصرهم على عدوهم أى نصر ، تبين أن دعواهم الانتساب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صحيحة ؛ وهذا دليل يجب التسليم له والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

ولعلك ترى من تنميق عبارتهما أنهما متحيزان ، وأن تدليهما خطابى ؛ هذا وقد حصل فى أيام المعز والعزيز حكايتان لا بأس بايرادها فى الموضوع .

(١) قال ابن خلكان : وجاء المعز من أفريقية وكان يطعن فى نسبه ؛ فلما قرب من المدينة (يعنى مصر) وخرج الناس للقائه ، اجتمع به جماعة من الاشراف فقال له من بينهم الشريف بن طباطبا : الى من ينتسب مولانا ؟ فقال المعز ستعقد مجلسا ونسرد عليكم نسبنا ، فلما استقر المعز بالقصر جمع الناس فى مجلس عام وجلس لهم وقال هل بقى من رؤسائكم أحد ؟ فقالوا لم يبق معتبر، فسل عند ذلك نصف سيفه وقال هذا نسبي ، ونثر عليهم ذهبا كثيرا . وقال هذا حسبي . فقالوا جميعا : سمعنا واطعنا .

(٢) وكتب العزيز إلى المستنصر بالله الأموى أمير الأندلس من مصر يهجوه . فكتب اليه الأموى . أما بعد فقد عرفتنا فهجوتنا . ولو عرفناك لاجبناك . فاشتد ذلك على العزيز وأفحمه عن الجواب . يعنى أنه غير شريف . وأنه لا يعرف له قبيلة حتى كان يهجوه .

وحصل أن السلطان عضد الدولة فناخسرو الديلمى ــ لما ملك بغداد فى

ايام العزيز ـ جمع العلويين وقال ان هذا الذى بمصر يقول انه علوى منكم، فقالوا ليس منا ، فقال لهم ضعوا خطوطكم بانه ليس بعلوى ولا من ولد ابى طالب، وانفذ رسولا بذلك الى المعز يقول له تريد أن نعرف ممن أنت ؟ فعظم عليه ذلك ، فذكر ان قاضيه ابن النعمان ساس الامر ، لانه كان يلى امر الدعوة والمكاتبة فى امرها ، فنسب المعز الى آبائه وامر به أن يقرأ على منبر جامع دمشق ، أما رسول فناخسرو فعاد وقتل بالسم فى طرابلس فلم يأتهم من بعده رسول .

ولما ظهر أمر العزيز بمصر وقويت شوكته كتب اليه عضد الدولة فى حضرة الخليفة الطائع كتابا يعترف فيه بفضل آل البيت ويقر له بانه من أهل تلك النبعة الطاهرة ، وأنه فى طاعته (وكان قد دعاه العزيز الى الجهاد فى سبيل الله) ويخاطبه بالحضرة الشريفة وماهذا معناه .

أما حكاية محضر القادر الذى صنعه ايام الحاكم بامر الله سنه ٤٠٢ ويستند اليه من ينكر نسب الفواطم الى آل البيت ، فاليك قصته وسنشير اليها فى خلافة الحاكم

عقد القادر مجلسا احضر فيه الحسين بن موسى والد الشريف الرضى وابنه على المرتضى — وجماعه من القضاة والشهود والفقهاء وابرز اليهم ابيات الشريف الرضى التى أولها

مامقامى على الهوان وعندى   مقول صارم وانفى حمى
ألبس الذل فى بلاد الاعادى   وبمصر الخليفة العـــلوي
من ابوه ابى ومولاه مولا   ى اذا ضامنى البعيد القصى
لف عرقى بعرقه سيد النـ   ـاس جميعا محمـد وعلى
ان ذلى بذلك الجو عز   واوامى بذلك الربع رى

فقال أبو الشريف الرضى — وقد وجه اليه فى هذا الشأن — أما هذا الشعر فما لم نسمعه ولا رأيناه بخطه . ولا يبعد أن يكون بعض أعدائه قد نحله اياه وعزاه اليه؛ فقال القادر : أن كان كذلك فليكتب الآن محضر يتضمن القدح فى أنساب ولاة مصر . ويكتب محمد (الشريف الرضى) خطه فيه . فكتب محضر بذلك شهد فيه جميع من حضر المجلس ومنهم الحسين وابنه الشريف المرتضى . وحمل المحضر الى الشريف الرضى ليكتب فيه خطه . حمله اليه أبوه وأخوه . فامتنع ، وقال لا أكتب ؛ وأخاف من دعاة صاحب مصر وأنكر الشعر ، وكتب خطه أنه ليس بشعره ولا يعرفه ، فأجبره أبوه على أن يسطر خطه فى المحضر فلم يفعل ، وقال أخاف دعاة المصريين وغيلتهم؛فانهم معروفون بذلك ، فقال أبوه ياعجباه ، أتخاف من بينك وبينه ستمائة فرسخ ، ولاتخاف من بينك وبينه مئة ذراع ، وحلف لا يكلمه وكذلك المرتضى — وإنما فعلا ذلك تقية وخوفا من القادر وتسكينا له ، فلما انتهى الأمر إلى القادر سكت على سوء أضمره

فبقى الذين ينكرون نسب الفواطم الى آل البيت يعتمدون على هذا المحضر مع أن الذين كتبوا فيه إنما كتبوا خوفا وتقية كما هو واضح .

وبقى الذين يصححون نسبهم يعتمدون على شهادة الرضى فى قصيدته التى لم يودعها ديوانه تقية ، وعلى امتناعه عن الاعتذار الى الخليفة ، ومن أن يكتب طعنا فى نسبهم، ولا يعتمدون ما كتب فى المحضر ، ويقولون أن الخوف يحمل على أكثر من هذا .

واعلم أن قد يكون انكار الأمويين والعباسيين نسب العبيديين مبنيا على أساس يصح الأخذ به؛ وهو أن خلفاء البيتين كانوا يستقصون أخبار البيت

العلوى بل بيت الطالبيين استقصاء تاما بحيث كان لا يخفى عليهم أحد منهم ، ولا ناحيته التي يقيم بها ، بل ولا أصحابه الذين يجتمعون أو يلتفون من حوله ؛ فلا يبعد أن يكونوا على حق فيما أنكروا من نسبهم ، بقطع النظر عن أنهم قد يكونوا قصدوا إلى ذلك من غير وجه حق ، فاذا اجتمع الناس معهم على ذلك أنهار بنيان الفواطم من أساسه ، وانصرف الناس عنهم وعن عودتهم

أمر الفواطم الى أن بنيت القاهرة

أولهم عبيدالله المهدى بن محمد الحبيب الذى ينتهى نسبه إلى على ابن أبى طالب كرم الله وجهه من فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولا عبرة ، فى نظر العلامة ابن خلدون ، بمن أنكر هذا النسب من أهل القيراون والأندلس وغيرهم ، ولا بالمحضر الذى كتب ببغداد أيام القادر بالطعن فى نسبهم وأن شهد فيه أعلام الأئمة ، فان ظهور كلمتهم حتى فى مكة والمدينة أول شيء يدل على صحة نسبهم . وأما من يجعل نسبهم فى اليهودية والنصرانية أو المجوسيه فكفاه ذلك أثماً .

وكان أصل ظهورهم بافريقية ، دخول الحلوانى وأبى سفيان من شيعتهم اليها ، أنفذهما جعفر الصادق كما سلف فنزلا بأرض كتامة ، ونشرا الدعوة فى تلك النواحى .

وكان محمد الحبيب ينزل سلمية من أرض حمص ، وكان شيعتهم يتعاهدونه بالزيارة إذا زارو قبر الحسين ، فجاء رجل لزيارته من اليمن ، فأرسل معه رجلا من أصحابه يسمى ابن حوشب لاقامة دعوته باليمن ، وأن المهدى خارج فى هذا الوقت ، فسار وأظهر الدعوة للمهدى من آل محمد بنعوته المعروفة عندهم ، واستولى على أكثر نواحى اليمن ، وملك صنعاء من بنى يعفر ، وفرق الدعاة

فى نواحى اليمن واليمامة والبحرين والسند والهندى ومصر والمغرب .

وكان أبو عبد الله الحسين الشيعى المعروف بالمعلم — لأنه كان يعلم مذهب الامامية — قد اتصل بمحمد الحبيب ، فرأى ما فيه من الأهلية فأرسله إلى ابن حوشب باليمن فصحبه وصار من كبار صحبه ، وكان له علم وفهم ودهاء ومكر ، فلما ورد على ابن حوشب موت الحلوانى وأبى سفيان بالمغرب ، قال لأبى عبد الله الشيعى ، أن أرض كتامه من المغرب قد حرثها الحلوانى وأبو سفيان ، وقد ماتا وليس لها غيرك ، فبادر فانها موطأة ممهدة لك ، فخرج مع حاج اليمن وقد أعطاه ابن حوشب مالا ، فلما قدم مكة سأل عن حجاج كتامة فأرشد اليهم واجتمع بهم ولم يعرفهم قصده ، فجلس اليهم فسمعهم يتحدثون بفضائل آل البيت ، فاستحسن ذلك وتحدث اليهم فى هذا الشأن ، ورأوا ما هو عليه من الزهد والعبادة ، فعلق بقلوبهم ، وصار يتعهدهم فى رحالهم . فاغتبطوا به وأغتبط بهم ، ولما أرادوا الرحلة الى بلادهم سألوه الصحبة فوافقهم طاويا وجه مذهبه عنهم ، بعد أن سألهم عن قومهم وبلادهم واحوالهم وعن طاعتهم لسلطان أفريقية ، فكشفوا له جلية ذلك ، وأنهم إنما يعطون السلطان طاعة معروفه ، وسألوه اين مقصدك ؟ فقال مصر ، فلم يزل يتعرف احوالهم حتى وصلوا الى مصر ، فلما أراد وداعهم قالوا له أى شيء تطلب بمصر قال أطلب التعليم بها ، قالوا فبلادنا أنفع لك ، ونحن أعرف بحقك ، ولم يزالوا به حتى أجابهم الى المسير معهم ، وسلكوا طريق الصحراء وعدلوا عن القيروان فلما قاربوا بلادهم لقيهم رجال من الشيعة فاخبروهم خبره ، فرغبوا فى نزوله عندهم ، واقترعوا فيمن يضيفه منهم، ثم ارتحلوا حتى وصلوا الى أرض كتامة منتصف ربيع الأول سنة ثمان وثمانين ومائتين ، فسأله قوم أن ينزل عندهم حتى يقاتلوا دونه ، فقال لهم اين يكون فج الاخيار ، فعجبوا من ذلك إذ لم

يكونوا ذكروه له ، فقالوا له عند بنى فلان ، فقال : اليه نقصد ، ثم نأتى كل قوم منكم فى ديارهم ونزورهم فى بيوتهم ، فأرضى بذلك الجميع ، وسار الى جبل إيكجان وفيه فج الاخيار ، فقال هذا فج الاخيار وماسمى الابكم ولقد جاء فى الاخبار : للمهدى هجرة تنبو عن الأوطان ، ينصره فيها الاخيار من أهل ذلك الزمان ، قوم أسمهم مشتق من الكتمان ، وبخروجكم من هذا الفج سمى فج الاخيار ، فتسامعت القبائل واتاه البربر من كل مكان فعظم أمره ، فجاهر بمذهبه . وأعلن بأمامة أهل البيت ، ودعا للرضا من آل محمد واتبعه أكثر كتامة ، وكانوا يسمونه بابى عبد الله الشيعى والمشرقى .

وبلغ خبره الى أمير أفريقية ابراهيم بن الأغلب فبعث اليه بالتهديد والوعيد فأساء الرد عليه ، وخاف رؤساء كتامه عادية ابن الاغلب واغراهم عمال بلادهم بالشيعى ، فاجتمعوا ، وتفاوضوا فى شأنه ، وافترقت كلمتهم بسببه ، وأراد بعضهم قتله فاختفى ، ووقع بينهم قتال شديد ، واتصل الخبر بأحد اكابر كتامة وهو الحسن بن هرون الغسانى فأخذ أبا عبد الله الشيعى اليه سرا ودافع عنه ومضى به الى مدينة تاصروت ، فاتته القبائل من كل مكان ، وعظم شأنه ، وصارت الرياسة للحسن بن هرون . وسلم اليه ابو عبد الله الشيعى أعنة الخيل ، وظهر من الاستتار ، وشهد الحروب ، وكان الظفر له ولاصحابه على من ناوأهم مرارا وصارت اليه أموالهم فاستقام له أمر البربر وعامة كتامة ، فأخذ يزحف بهم على القرى والمدن ويملكها بحرب أو أمان ، ثم أرسل اليه ابراهيم بن الاغلب ابنه الاحول فى اثنى عشر الفا سار بهم من تونس فدوخ كتامة ، ثم صمد الى تاصروت ، فلقيه ابو عبد الله فى جموعه فانهزم بهم بعد أن قتل كثير منهم ولحق بالجبل ، فاحرق الاحول المدينة ، ولكن الشيعى بنى بالجبل دار هجرة وقصده أصحابه ، واستبصر الناس فى أمره ، ودخلوا فى دعوته ، بعد أن

عاد الاحول الى افريقيه . ثم جهز له ابن الاغلب عسكرا آخر مع ابنه الاحول فانهزم ، واتفق ان ابن الاغلب مات وقام بالامر زيادة الله بن الاغلب فاشتغل باللهو واللعب وقتل اخاه الاحول وانتقل من تونس الى رقاده ، وإذ ذاك اشتد سرور ابى عبدالله وعلا أمره وانتشرت جيوشه فى البلاد ، لاتجد مقاومة تذكر. فاخذ عند ذلك يقول يخرج المهدى فى هذه الايام ويملك الأرض فطوبى لمن هاجر الى واطاعى ، وأخذ يغرى الناس بزيادة الله ويعيبه ، وكان أكثر وزرائه شيعة ، فلم يك يسوءهم ظفر ابى عبد الله الشيعى ، وبخاصة لانه كان يذكر انهم من كرامات المهدى ، وانه يحيى الموتى ، ويرد الشمس ، ويملك الارض بأسرها ، وهو مع ذلك كان يبعث اليهم يعدهم ويمنيهم.

خروج عبيد الله المهدى الى المغرب

لما توفى محمد الحبيب بن جعفر بن محمد بن اسماعيل الامام ، عهد الى ابنه عبيد الله وقال له : انت المهدى ، وتهاجر بعدى هجرة بعيدة . وتلقى محنا شديدة ، وأتصل خبره بسائر دعاته فى افريقية واليمن .

وكان ابو عبدالله قد بعث اليه رجالا من كتامة يخبرونه بما فتح الله عليهم وانهم فى انتظاره وشاع خبره واتصل بالعباسين فطلبه المكتفى ففر من سلمية ومعه أبنه ابو القاسم نزار الذى قام بالامر من بعده ، وخرج معهما مواليه الى العراق ، وكان يقصد اليمن ، لكن بلغه ان داعيتهم هنالك بعد ابن حوشب قد اساء السيره فانثنى عن ذلك ، واعتزم اللحاق بابى عبدالله ، فلما انتهى الى مصر أقام مستترا بزى التجار ، فاتت الكتب الى عيسى النوشرى امير مصر من قبل المكتفى بالله العباسى بصفة عبد الله وحليته ، وبأن يأخذ عليه الطرق ويقبض على كل من يشبهه ، فسرح فى طلبهم حتى وقف عليهم، وأمتحن أحوالهم

فلم يقف على شيء منها فخلى سبيلهم ــ هكذا يروى القصة بعض المؤرخين .

وجد المهدى فى السير فلما وصل الى طرابلس فارقه من كان فى رفقته من التجار ، وكان معه ابو العباس اخو أبى عبد الله الشيعى ، فقدمه المهدى الى القيروان ، وقد سبق خبرهم الى زيادة الله فقبض على أبى العباس وقرره فانكر فحبسه ، وكتب الى عامل طرابلس بالقبض على المهدى ففاته ، ثم سار الى قسنطينة ، لكنه عدل عنها خوفا على ابى العباس ــ المعتقل بالقيروان ــ ان يقتله زيادة الله نكاية فى ابى عبد الله ، وسار الى سجلماسة ، وبها اليسع ابن مدرار فأهدى اليه عبيد الله ووصله فأكرمه اليسع وقربه واحبه فأتاه كتاب زيادة الله يعرفه أن الذى يدعو اليه ابو عبد الله الشيعى عنده ، فلم يجد بدا من القبض على عبيد الله وحبسه ويقال ان كتاب اليسع جاءه من قبل المكتفى .

أما ابو عبد الله فكان على حاله من الحرب والفتح ، فجهز زيادة الله العساكر الى كتامة ، وكانوا أربعين ألفا ، فسار وانضاف اليه مثل جيشه حتى نزل قسنطينة ، وبها وافاه من أهل كتامة من لم يدخلوا فى طاعة الشيعى ، فاقام الجند بالمدينة ستة أشهر ، وابو عبد الله متحصن بالجبال ، ثم زحف اليهم وهزمهم وغنم جميع ما معهم من الآلات والعدد ، وقتل منهم خلقا كثيرا وبذلك ازداد أمره عظما ، وكتب الى المهدى بالفتح مع رجال من كتامة اخفوا أنفسهم حتى وصلوا اليه وعرفوه بالخبر

ثم أن الشيعى زحف الى مدن أخرى فملكها فجهز اليه زيادة الله جيشا آخر وصل الى مدينة كان أهلها فى طاعة الشيعى فهدمها وقتل أهلها ، لكن بطلا من أبطال الشيعى هزمه ، واخذ الشيعى يفتح المدن واحدة بعد الأخرى حتى خرج اليه زيادة الله نفسه ، وسير جيشا مع ابن عمه ابراهيم بن

ابى الاغلب ثم عاد فسار فى جيش جرار والتقى الجمعان فانهزم أصحاب زيادة الله وفر هو الى مصر (١) فدخل ابراهيم بن ابى الاغلب القيروان وسكن الناس وذكر زيادة الله وذمه ؛ وصغر من أمر الشيعى ؛ ووعد الناس بقتاله ، وطلب منهم الاموال ، فثاروا به اخيرا ورجموه فخرج عنهم ؛ ودخل الشيعى مدينة رقادة فأمن الناس ومنع من النهب ، وخرج الفقهاء ووجوه أهل القيروان الى الشيعى وسلموا عليه وهنئوه بالفتح ، فرد عليهم ردا حسنا ، وأمنهم ، وقد أعجبوا به وسرهم ، فأخذوا فى ذم زيادة الله وذكر مساويه ، فقال لهم ما كان إلا قويا وله منعه ودولة شامخة ، وماقصر فى مدافعة ، ولكن أمر الله لايعاند ولايدافع ، فأمسكوا

وكان دخول ابى عبد الله رقادة يوم السبت مستهل رجب سنة ست وتسعين ومائتين . فلما كان يوم الجمعة خطب بالقيروان ورقادة من غير اشارة الى أحد بالدعاء

وبالاستيلاء على القيروان ورقادة تم أمر الشيعة بالمغرب ، فأخذ ابو عبد الله يرسل العمال الى النواحى بعد أن أمر بجمع ماكان لزيادة الله من الاموال والسلاح وأمر بضرب السكة ، والا ينقش عليها أسم وجعل فى الوجه الواحد : بلغت حجة الله ؛ وفى الآخر : تفرق أعداء الله ؛ ونقش على السلاح : عدة فى سبيل

---

(١) قدم على عيسى النوشرى ونزل بالجيزة واراد الدخول الى مصر فمنعه من الدخول اليها ، فوقع بين أصحابه وجند مصر مناوشه وبعض قتال الى أن وقع الصلح بينهم على أن يعبر زيادة الله وحده من غير جند فدخلها واقام بها ثم كتب اليه الخليفة ان يصير الى الرقة ويقيم بها فسار اليها وبقى الى ان مات سنة ٣٠٤ فى أيام المقتدر

الله ورسم الخيل على أفخاذها : الملك لله ، وأقام على ما كان عليه من اللباس الخشن الدون ، والقليل من الطعام الغليظ

ولما استقرت الأمور فى رقادة وسائر بلاد أفريقية ، اتاه أخوه ابو العباس ففرح به وكان أكبر منه سنا

ثم خرج الى سلجلماسة فى جيش اهتزله المغرب ، وفرت زناته من طريقه ثم بعثوا اليه بالطاعة فقبلهم ، وارسل الى اليسع بن مدرار يتطلفه فقتل الرسل وخرج للقائه فلما تراءى الجمعان ، انفض أصحابه من اهله وبنى عمه عنه وهرب اليسع ، وخرج أهل سجلماسة من الغد فأخبروه بهرب اليسع فدخل هو واصحابه البلد ، واتوا مكان عبيد الله فأخرجوه[1] هو وابنه (فى يوم الاحد لسبع خلون من ذى الحجة سنة ٢٩٦) وأركبهما ابو عبد الله ومشى هو ورؤساء القبائل بين يديهما وكان يبكى من شدة الفرح ، ويقول للناس هذا مولاكم ، ثم انزل بفسطاط ضرب له ، وبعث فى طلب اليسع فادرك ، وجىء به فقتل ، ثم اقاموا بسجلماسة اربعين يوما ، وأرتحلوا بعدها الى افريقية ، ومروا بايكجان ، فأخذوا الاموال وساروا الى رقادة فوصلوا اليها فى العشر الاخير من ربيع الاول سنة سبع وتسعين ومائتين .

وزال ملك بنى الاغلب من أفريقيه ، وملك بنى مدرار من سجلماسة ، وملك بنى رستم من تاهرت ، وملك المهدى جميع ذالك

ولما قرب من رقاده تلقاه اهلها وأهل القيروان ، فسلموا عليه فرد عليهم ردا جميلا ، وبويع البيعه العامة ، وامرهم بالانصراف ونزل بقصر من قصور رقادة ، وامر يوم الجمعة أن يذكر فى الخطبة ويلقب بالمهدى أمير المؤمنين فى جميع البلاد

فلما كان بعد صلاة الجمعة جلس رجل يعرف بالشريف ومعه الدعاة واحضروا

---

(١) ويقال بل وجد مقتولا وعنده رجل من أصحابه كان يخدمه ، فخاف ابو عبد الله ان ينتقض عليه مادبره من الامر فاخرج الرجل الى العساكر وقال هذا هو المهدى

الناس ودعوهم إلى مذهبهم ، فمن لم يقبل قتلوه ، ثم عرض المهدى جوارى ابن الأغلب فاختار منهن لنفسه ولولده ، وفرق الباقى على وجوه كتامة ، وقسم عليهم أعمال افريقيه ، ودون الدواوين ، وجبى الأموال ، واستقرت قدمه ودان له أهل البلاد ، والله يؤتى ملكه من يشاء

وبعد فان فى هذه الصفحات القليلة تاريخاً مجملا لحركة الفاطميين إلى أن تم لهم الأمر بالاستيلاء على المغرب ، وإقامة خلافة علوية ، كان ينشدها آل بيت النبى طول أيام بنى أمية ، وأيام العصر الذهبى من عهد بنى العباس ، وفى نحو ستين سنة بعد ذلك ، مصابرين مجاهدين خارجين علانيـة على خلفاء هاتين الدولتـين حتى ضاقت عليهم بلاد المشرق ، فاضطروا إلى الاسرار بدعوتهم والفرار إلى أطراف الدولة الاسلامية شرقا وغربا ، حتى نجح الفاطميون منهم بالمغرب على النحو الذى وصفناه ، والفضل فى إقامة دولتهم للبربر الكتاميين وغيرهم ، فهم الذين ظاهروهم على أمرهم وعنوا بتمهيد دولتهم حتى اقتطعوا من ممالك العباسيين المغرب وإفريقية ، ومازال ملكهم يتسع حتى شمل مصر والشام والحجاز ، وقد أقام داعيتهم أبو عبد الله الشيعى بين كتامة من هذه القبائل عشر سنين يطاول بنى الأغلب حتى ظفر بهم واستولى على المغرب كله . ثم سموا إلى مصر ، فكثوا ثلاثين سنة أو نحوها فى طلبها يجهزون اليها العساكر والأساطيل فى كل وقت ، ويجىء المدد لمدافعتهم برا وبحرا من بغداد ، وملكوا الاسكندرية والفيوم والصعيد ، وتخطت دعوتهم من هنالك إلى الحجاز ، وأقيمت بالحرمين ، ثم نازل قائدهم جوهر الكاتب بعساكره مدينة مصر واستولى عليها ، واقتلع دولة بنى طغج من أصولها ، واختط القاهرة فجاء خليفته المعز لدين الله ، فنزلها لستين سنة أو نحوها من استيلائهم على الاسكندرية ، على ما سيجىء إن شاء الله تعالى .

وقيل الكلام فى كيفية استيلائهم على مصر نذكر.

(١) ما كان من قتل عبد الله الشيعى —

كان سبب قتله أن المهدى لما استقامت له الأمور، باشر الادارة بنفسه وكف يدابى عبد الله ويدأخيه أبى العباس، فداخل أبا العباس الحسد، وعظم عليه انفطام من الأمر والنهى والأخذ والاعطاء، فأقبل يزرى على المهدى فى مجلس أخيه ويتكلم فيه، وأخوه ينهاه عن ذلك فلا يزيده ذلك إلا لجاجا، ولام أخاه وقال له ملكت أمرا فجئت بمن أزالك عنه، وكان الواجب عليه ألا يسقط حقك، وما زال به حتى نأثر، وقال للمهدى لو كنت تجلس فى قصرك وتتركنى مع كتامة آمرهم وأنهاهم، لأنى عارف بعاداتهم، لكان ذلك أهيب لك فى أعين الناس، وكان قد بلغ المهدى ما يجهر به أبو العباس، فرد ردا لطيفا وأسر ذلك فى نفسه، وأخذ أبو العباس يسر إلى المقدمين بما فى نفسه، ويقول ما جازاكم على ما فعلتم، بل أخذ الأموال من أيكجان ولم يقسمها فيكم، كل ذلك يبلغ المهدى وهو يتغافل، فزاد أبو العباس فى القول حتى قال: أن هذا ليس بالذى كنا نعتقد طاعته، وندعو اليه، لأن المهدى يأتى بالآيات الباهرة فأثر ذلك فى قلوب الناس، حتى قال قائل من كتامة: أن كنت المهدى فأظهر لنا آية فقد شككنا فيك، فقتله المهدى، وخاف أبو عبد الله، وعلم أن المهدى قد تغير عليه فاتفق مع أخيه وجماعة من كتامة على قتل المهدى ودخلوا عليه مرارا، فلم يجسروا على قتله، ونقل ذلك إلى المهدى رجل كان يوافقهم على ماهم فيه ثم يأتى المهدى فيخبره، فأخذ المهدى فى تفريق هؤلاء القوم فى البلاد وكتب إلى عماله بقتلهم، ثم أعد رجالا لأبى عبد الله وأخيه، فلما وصلا إلى قرب القصر حمل القوم على أبى عبد الله، فقال لا تفعلوا، فقالوا أن الذى أمرتنا بطاعته، أمرنا بقتلك، وقتلوه وقتلوا أخاه فى النصف من

جمادى الآخرة سنة ٢٩٨ بمدينة رقاده ، وصلى عليه المهدى وقال رحمك الله أبا عبد الله وجزاك خيرا بجميل سعيك .

وثارت فتنة من جراء قتلهما ، وجرد أصحابهما السيوف فركب المهدى وأمن الناس فسكنوا ثم تتبعهم حتى قتلوا جميعاً .

ولما قتل أبو عبد الله واستقام أمر المهـدى ، عهد إلى ولده أبى القاسم بالخلافة ، فرجعت كتامة إلى بلادهم وأقاموا طفلا وقالوا هذا هو المهدى ، ثم زعموا أنه يوحى اليه ، وزعموا أن أبا عبد الله لم يمت ، فبعث اليهم المهدى ابنه أبا القاسم فقاتلهم حتى هزمهم وقتل منهم خلقا عظيما ، وهكذا تتبع المهدى كل حركة حتى طهر البلاد من مخالفيه .

وكان أبو عبد الله من الرجال الدهاة الخبيرين بما يصنعون ، بل أنه أحد رجالات العالم الذين استطاعوا نقض الدول العظيمة ، وإقامة الممالك العظيمة ، من غير مال ولا رجال ، ولذلك عجل به المهدى كما عجل المنصور العباسى بأبى مسلم بعد أن أقام دولتهم وكلاهما هو الذى جر هذا المصير إلى نفسه ، والله يضل من يشاء ويهدى من يشاء .

(٢) فى تطلع الفاطميين إلى مصر وما كان من الباعث لهم على فتحها : —

وسبب ذلك كما هو واضح جودة موقعها الجغرافى الذى عنـاه عمرو بن العاص فى حديثه مع الخليفـة عمر — وهو يستأذنه فى فتحها — بقوله إنك أن فتحتها كانت عونا للمسلمين ، وقد صدقت فراسته فى هذا الموضوع ، فان المسلمين بعد فتحها اتخذوها كقاعدة حربية ، ومنها أغاروا على برقة وطرابلس ثم على افريقية وما يليها غربا حتى فتح الأندلس ، ومنها وجهوا حملاتهم إلى بلاد النوبة جنـوبا — هذا كله لم يخف على الفاطميين الذين رأوا أن فتحها يسير عليهم ، لاضطراب الأمور فيها ، ولأنهم إذا فتحوها تيسر لهم الاغارة على

الشام وغيرها ، بل على العراق وبغداد وإزالة الدولة العباسية من سجل الوجود ، وهذا إلى أنها بلاد غنية خصيبة وأهلها أعجز الناس عن القتال ، وأبعدهم عن الفتن القوية وأقبلهم للدعوة العلوية ، ولهم سابقة عهد بها من أيام محمد بن أبى بكر والفتنة التى أدت إلى قتل عثمان كما هو معروف — وهذا أيضا إلى أنها طريق الحرمين ، ومنها يتمكن العلويون من نشر دعوتهم فيها أما بالقوة وأما ببذل الأموال والهدايا والأقوات ، وأما بقطع المدد عنهم من مصر .

من أجل ذلك كله توجهت عناية الفاطميين إلى مصر ، وما زالوا يعملون متحينين الفرص حتى تم لهم ذلك .

واليك ما كان منهم فى هذا الشأن :

(ا) فى سنة ٣٠١ جهز المهدى العساكر من أفريقية مع ولده أبى القاسم فساروا إلى برقة واستولوا عليها ، ثم ساروا إلى الاسكندرية والفيوم ، فبعث المقتدر بالله مؤنسا الخادم فى جيش كثيف فحاربهم وأجلاهم عن مصر إلى المغرب

(ب) وفى سنة ٣٠٢ أنفذ المهدى جيشا بحريا عليه أحد قواده المسمى حباسة ، فغلب على الاسكندرية ثم سار منها يريد مصر ، فأرسل المقتدر مؤنساً فى عسكر إلى مصر وأمده بالسلاح والأموال ، فهزم حباسة بعد حروب كثيرة ، قتل فيها من الفريقين سبعة آلاف ، ولما صار حباسة إلى المغرب قتله المهدى

(ج) وفى سنة ٣٠٦ جهز جيشا كثيفا مع ابنه أبى القاسم إلى الاسكندرية فدخلها وسار منها فملك كثيرا من بلاد الصعيد ، فبعث المقتدر مؤنسا فى جيش كان بينه وبين القائم وقعات ، ووصل من أفريقية ثمانون مركبا نجدة للقائم من أبيه ، فأمر المقتدر أن تسير مراكب طرسوس ، فسار اليهم خمس وعشرون فيها النفط ، فالتقت المراكب على رشيد ، فظفرت مراكب

المقتدر وأحرقت أكثر سفن افريقية وهلك أكثر جندها وأسر منهم عدد كثير — وغلب مؤنس عساكر القائم ، فمات منهم كثير ورجعت فلولهم إلى افريقية ، ولقب مؤنس من حينئذ بالظفر لغلبته عساكر افريقية غير مرة .

(د) ولما تولى القائم بامر الله الخلافة الفاطمية سير جيشا بالغ فى النفقـة عليه الى مصر ، فدخلوا الاسكندرية ، فاخرج اليهم محمد الاخشيد عسكرا كثيفـا فقاتلهم وهزمهم ؛ ولما استخلف اسماعيل بن القائم لم يهاجم مصر ، اذ كان مشتغلا بحروب أبى يزيد الخـارجى الزناتى ، الذى ابتدأت حركته أيام المهدى سنة ٣١٦ ثم زادت شوكته الى أن كاد يقضى على الفاطمية وحاصر المهدية بل كاد يدخلها لولا خيانة بعض أصحابه وانضمامهم إلى أصحاب القائم فانهزم الخارجى انهزاما مستمرا إلى أن مات القائم فكتم موته ابنه اسمـاعيل خوفا من الفتنة وتولى حرب الخارجى إلى أن قبض عليه سنة ٣٣٦ ، وجيء به إلى اسماعيل فمات من جروح أصابته .

ولمـا مات اسماعيل وتولى المعز سنة ٣٤١ ؛ كان أبو الحسين جوهر الـكاتب الصقلى ممن عظم أمرهم وعلا محلهم عنده ، وصار فى رتبة الوزراء ، فسيره إلى الفتح غربا فوصـل إلى المحيط وصاد من سمكه وبعثه فى قلل المـاء إلى المعز ، وفى سنة ٣٥٨ جهزه المعز لأخذ مصر ، فسار اليها فى ربيع الأول ، وتسلمها فى شعبان ، وخطب لمولاه بها فى نصف رمضان من هذه السنة .

دخول جوهر الى الديار المصرية

كان نظام مصر قد انخرم بعد موت كافور الاخشيدى لمـا قام على مصر أحمد بن على بن الاخشيد وهو صغير ، فصار ينوب عنه ابن عم أبيه الحسين ابن عبيد الله بن طغج ، والوزير يومئذ جعفر بن الفرات ، فقلت الأموال على

الجند ، فكتب جماعة منهم إلى المعز لدين الله وهو بالمغرب يطلبون منه عسكرا ليسلموا اليه مصر .

فجهز المعز جوهرا هذا بالجيوش والسلاح فى نحو ألف فارس أو أكثر فسار حتى نزل بجيوشه الأسكندرية فسلمت اليه بلامقاومة ، ثم سار منها إلى تروجه بقرب الاسكندرية ، وأرسل إلى أهل مصر فأجابوه بطلب الأمان ، وتقرير أملاكهم لهم ، فأجابهم جوهر إلى ذلك وكتب لهم العهد .

وعلم الاخشيدية بذلك فتأهبوا لقتال جوهر ، فجاءتهم من عند جوهر الكتب والعهود بالأمان ، فاختلفت كلمتهم ، ثم اجتمعوا على قتاله ، وأمروا عليهم وتوجهوا نحو الجيزة وحفظوا الجسور ، فوصل جوهر إلى الجيزة ، ووقع بينهم القتال فى شعبان سنة ٣٥٨ ، ودام مدة ، ثم سار جوهر إلى منية الصيادين « وهى ميت النصارى بجهة وراق الحضر بمركز امبابه » وأخذ مخاضة منية شلقان ، « وهى شلقان الواقعة شرقى القناطر الخيرية بمركز قليوب » ، فقال جوهر للأمير جعفر بن فلاح « أحد قواد المعز المشهورين وكان ميمون النقيبة فى جميع البلدان التى فتحها » : لهذا اليوم أرادك المعز لدين الله ، فعبر عرياناً فى سراويل وهو فى موكب ومعه الرجال خوضا ، والتقى مع المصريين ، ووقع بينهم قتال ، وثبت كل من الفريقين ، فقتل كثير من الاخشيدية وانهزم الباقون بعد قتال شديد ، ثم أرسلوا يطلبون الأمان من جوهر فأمنهم ، وحضر رسوله ومعه بند ، وطاف بالأمان ومنع من النهب ، فسكن الناس وفتحت الأسواق ، ودخل جوهر من الغد إلى مصر فى طبوله وبنوده وعليه ثوب ديباج مذهب وحل بالمناخ وهو موضع القاهرة اليوم ، واختطها وحفر أساس القصر فى الليل ، وبات المصريون فى أمن ، فلما أصبحوا حضروا للتهنئة فوجدوه قد حفر أساس القصر فى الليل ، وكان فيه زورات غير

معتدلة ، فلما شاهد ذلك جوهر لم يعجبه ولكنه قال : قد حفر فى ليلة مباركة وساعة سعيدة وتركه

ثم كتب جوهر إلى مولاه المعز يبشره بالفتح وبعث اليه برءوس القتلى ، وقطع خطبة بنى العباس ولبس السواد ، ولبس الخطباء البياض ، وأمر أن يقال فى الخطبة : اللهم صل على محمد المصطفى ، وعلى على المرتضى ، وعلى فاطمة البتول ، وعلى الحسن والحسين سبطى الرسول الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ، وصل على الأئمة الطاهرين ، آباء أمير المؤمنين المعز لدين الله ففعل ذلك ، وانقطعت دعوة العباس فى هذه السنة من مصر والحجاز واليمن والشام ؛ ولم تزل الدعوة لبنى عبيد فى هذه الأقطار من هذه السنة إلى سنة ٥٦٥ : مائتى سنة وثمانى سنين .

ولما استولى جوهر على مصر وبعث يهنىء مولاه . قال ابن هانىء فى ذلك أيضاً :

يقول بنو العباس قد فتحت مصر ... فقل لبنى العباس قد قضى الأمر
ومذ جاوز الاسكندرية جوهر ... تصاحبه البشرى وبقدمه النصر

وكان الخليفة العباسى فى ذلك الوقت ، المطيع لله ، ومات المطيع ومن بعده سبعة خلفاء من بنى العباس ببغداد حتى انقرضت العبيدية من مصر على يد صلاح الدين الأيوبى والخليفة يوم ذاك المستضىء العباسى

وفى ربيع سنة ٣٥٩ أذنوا فى مصر بحى على خير العمل واستمر ذلك .

ثم شرع جوهر فى بناء جامعه بالقاهرة ، المعروف بجامع الأزهر ، وهو أول جامع بنته الشيعة بمصر ، وفرغ من بنائه سنة ٣٦١ ، كما ابتنى القاهرة وسورها .

ولما ملك جوهر مصر ، كان الحسين بن عبيد الله الأخشيد بالشام ، وهو

بيده إلا الرملة ، فبعث اليه جعفر بن فلاح فقاتل حسنا بالرملة حتى ظفر به ، ثم ذهب إلى دمشق وملكها بعد أمور وخطب بها للمعز فى المحرم سنة ٣٥٩ وعاد إلى الرملة فقام الشريف ابن أبى يعلى ومعه العوام ولبس السواد ودعا للمطيع وأخرج أقبالا ، أمير دمشق الذى كان من قبل جوهر ، فعاد ابن فلاح إلى دمشق فى ذي الحجة ونازلها، فقاتله أهلها ، فطاولهم حتى ظفر بهم وهرب ابن أبى يعلى قاصدا بغداد فى البرية ، فجعل ابن فلاح مائة الف درهم لمن يأتى به، فقبض أحدهم عليه وجاء به إلى ابن فلاح ، فشهره على جمل وحبسه ثم طلبه ليلا وقال له ما حملك على صنعت ومن ندبك إلى ذلك ؟ فقال: ماحدثنى به أحد، إنما هو أمر قدر، فرق له ابن فلاح ووعده أن يكاتب فيه جوهرا واسترجع المائة الألف من الذين أتوا به وقال لهم لا جزاكم الله خيرا ، غدرتم بالرجل،وكان ابن فلاح يحب العلويين فأحسن اليه وأكرمه .

أما جوهر هذا فهو أبو الحسن جوهر بن عبدالله القائد المعزى المعروف بالكاتب مولى المعز لدين الله أبى تميم معد العبيدى الفاطمى ، كان خصيصاعند أستاذه المعز ، وكان من كبار قواده ، جهزه المعز إلى أخذ مصر وأصحبه من الأموال والخزائن مالا يحصى وأطلق يده فى جميع ذلك وأفرغ الذهب (سبيكة) فى صورة الارحاء وحملها على الجمال ليعظم ذلك فى قلوب الناس ، ولما ملك مصر بقى فيها حاكما إلى أن قدم اليها مولاه فصرف عن مصر وصار من عظماء القواد فى دولة المعز وغيره إلى أن مات سنه ٣٨١ وكان ولده الحسين بن جوهر قائد القواد للحاكم صاحب مصر ثم نقم عليه ، فقتله سنة ٤٠١ غدرا

هذا وفى السنة الثانية من ولاية جوهر على مصر أغار الحسن القرمطى على دمشق فخرج اليه جعفر بن فلاح من مصر فقتله القرمطى وقتل عسكره وملك دمشق وولى عليها وعاد إلى هجر، ولكن واليه عليها لم تطل إقامته

فيها — ولما قتل ابن فلاح بكى عليه القرمطى ورثاه، لأن التشيع كان يجمع بينهما، وإنما الخلاف كان فى الأمور السياسية والحربية والفتح .

وفى السنة الثالثة عاد كبير القرامطه إلى الشام ودخل دمشق وسار إلى الرملة ، وفيها دخل المعز مصر ومعه توابيت آبائه ، ونزل القصر الذى بناه له جوهر فى مدينه القاهرة كما سلف.

المعز لدين الله الفاطمى

هو أبو تميم معد بن المنصور اسماعيل بن القائم بأمر الله محمد بن المهدى عبيد الله العبيدى الفاطمى المغربى ، الملقب بالمعز لدين الله ، والذى تنسب اليه القاهرة المعزية .

ولد بالمهدية فى رمضان سنة ٣١٩ ، وبويع بالخلافة فى المغرب فى ٢٩ من شوال سنة ٣٤١ ، وكان قد بويع بولاية العهد فى حياة أبيه ثم جددت له البيعة بعد وفاة أبيه ، وهو أول خليفة كان بمصر من بنى عبيد ، وقد دخل مصر ومعه خمسمائة جمل موسوقة ذهبا عينا وأشياء كثيرة .

ولما فتح جوهر مصر والشام والحجاز أرسل يعرف المعز ذلك ، فخرج من المغرب فى سنة ٣٦١ بعد أن استخلف على افريقيه يوسف بلكين بن زيرى الصنهاجى، وجد فى السير فى خزائنه وجيوشه حتى دخل الاسكندريه فى شعبان سنة ٣٦٢ ، وهنالك تلقاه أعيان مصر ، فخطب خطبة بليغة وجلس قاضى مصر إلى جنبه وهو أبو طاهر محمد بن أحمد، فسأله هل رأيت خليفة أفضل منى؟ فقال لم أر أحدا من الخلائف سوى أمير المؤمنين ، فقال له أحججت ؟ قال نعم . قال : وزرت قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال نعم . قال وقبر أبى بكر وعمر قال القاضى فتحيرت ماذا أقول ، ثم نظرت فاذا ابنه قائم مع كبار الأمراء ،

فقلت شغلني عنهما رسول الله ﷺ كما شغلني أمير المؤمنين السلام على ولى العهد ، ونهضت اليه فسلمت عليه ورجعت فانفسخ المجلس الى غير هذا الحديث

وطال الحديث فأعلمهم بأنه لم يرد دخول مصر لزيادة فى ملكه ولا المال ، وبان قصده القصد المبارك ، من إقامة الجهاد والحق ، وأن يختم عمره بالاعمال الصالحة ، وان يعمل بما أمره به جده رسول الله ﷺ ، ووعظهم واطال حتى ابكى بعضهم ثم خلع على جماعة منهم

وبعد ذلك سار من الاسكندرية حتى نزل الجيزة ، وأخذ جيشه فى التعدية الى مصر ، ثم عبر هو ولم يمر بالفسطاط ، ودخل القاهرة فى رمضان سنة ٣٦٢ وقد بنيت له بها دور الامارة ، فلما دخل القصر خر ساجدا وصلى ركعتين

وكان من أسباب مسارعته الى مصر فى هذا الظرف : (١) ان الروم كانوا قد استولوا على طرسوس وانطاكية واذنة والمصيصة وغيرها من مدن الشام والثغور ، ففرح بمصاب المسلمين فى المشرق وأيقن أن جند بغداد لن يستطيعوا له دفعا وقد أصابهم ما أصابهم .(٢) أنه علم أن بنى بويه المتشيعين للبيت العلوى كانوا قد استولوا على الخلافة ، وأن خلفاء العباسيين أصبحوا لاحكم لهم معهم (٣) أنه كانت له بمصر شيعة فكاتبوه يقولون : انه إذا زال الحجر الأسود ، ملك مولانا المعز الدنيا كلها ، يعنون بالحجر الاسود كافورا ، وكان يومئذ أمير مصر نيابة عن ابن الاخشيد وعن الحسن بن عبيد الله بن طغج أمير الشام . (٤) ان الحسن هذا كان قد دخل مع الشيعة فى الدعوة ، وكان ضعيفا رخوا ، طمع فيه الجند وكرهوه وكرههم ، فقال له أحد دعاة الشيعة بمصر : هؤلاء القوم قد طمعوا فيك ، والمعز لك مثل الوالد ، فان شئت كاتبته ليشد منك ويكون من وراء ظهرك ، فقال الحسن : أى والله ، قد احرقوا قلبي ، وكتب الى المعز ، فبعث

بالمعز جوهرا فدخل مصر وأخرج الحسن فتوجه الى الرملة ثم ظفر به وأرسله الى المعز ، فقربه وبش به وقال : أنت ولدى وكاتبتنى على دخول مصر ، وانما بعثت جوهرا ليندركك ، وقد لحقنى بتجهيز الجيوش الى مصر اربعة آلاف وخمسمائة الف دينار ، فظن الحسن ان الامر كما قال المعز ، ولم يدر انه خدعه ، فسمى اليه بجماعة من قواد مصر والأمراء وارباب الاموال وعرفه حال المصريين ، وكان كل واحد من هؤلاء الذين دل الحسن عليهم المعز ، مثل قارون فى الغنى ، فكتب المعز الى جوهر باستئصالهم ومصادرتهم وان يبعث بهم اليه ففعل ـ ومن ذلك ترى ان الاسباب التى بعثت المعز على الهجرة الى مصر كانت موفورة .

ولما دخل المعز الى القاهرة احتجب فى القصر ، وبعث عيونه ينقلون اليه اخبار الناس ، ثم ظهر للناس بعد مدة ، وقد لبس الحرير الاخضر ، وجعل على وجهه اليواقيت والجواهر ، وزعم انه كان غائبا فى السماء وان الله رفعه اليه ، فامتلأت قلوب العامة والجهال منه رعبا وخوفا

علاقته بالقرامطة

كان على بن الاخشيد قد اتقى القرامطة حتى لا يأخذوا دمشق باتاوة سنوية مقدارها ثلثمائة الف دينار ، فلما استقر المعز بمصر قطعها ، فعظم ذلك على الحسن بن أحمد القرمطى ، لأن المعز كان يصافيه ويهاديه وهو بالمغرب واعتبر ان قطع المعز هذه الاتاوة ضرب من ضروب التحدى ، فسار الى بغداد .

وسأل الخليفة المطيع على لسان عز الدولة بختيار البويهى ان يمده بمال ورجال ويوليه الشام ومصر ، ليخرج المعز منها ، فامتنع الخليفة من ذلك وقال كلهم قرامطة على دين واحد ، فاما المصريون (يعنى بنى عبيد) فأماتوا

السنة وقتلوا العلماء ،وأما هؤلاء(يعنى القرامطة) فقتلوا الحاج وقلعوا الحجر الأسود وفعلوا مافعلوا فقال بختيار للقرمطى : أذهب فافعل مابدا لك ، واعطاه مالا وسلاحا ، فسار الى الشام ومعه أعلام سود وأظهر أن الخليفة المطيع ولاه ، وكتب على الاعلام اسم المطيع عبد الكريم ،وتحته مكتوب السادة الراجعون الى الحق ، وملك القرمطى الشام ، ولعن المعز واباه على منبر دمشق ،وقال هؤلاء من ولد القداح ، كذابون مخترقون (مختلقون) اعداء للاسلام ونحن أعلم بهم ، ومن عندنا خرج جدهم القداح

ثم أقام القرمطى الدعوة لبنى العباس وسار إلى مصر بعساكره ، ولما بلغ المعز مجيئه تهيأ لقتالهم ، فنزل القرمطى مشتول (مركز بلبيس) وحصل بينه وبين المعز مناوشات ثم ضعف جيش المعز عن مقاومتهم ودخل القاهرة وانحصر فيها .

وكان قد التف مع القرمطى أمير العرب ببلاد الشام وهو حسان بن الجراح الطائى فى عرب الشام لينزعوا مصر من المعز ، فراسل المعز حسان ووعده بمائة الف دينار أن هو خذل بين الناس ، فأرسل اليه أن ابعث لى بماالتزمت وتعال بمن معك ، فاذا التقينا انهزمت بمن معى ، فأرسل اليه المعز مائة الف دينار فى أكياس أكثرها زغل ، ضرب النحاس ولبسه الذهب ، وجعله فى أسفل الأكياس ، ووضع فى رءوس الأكياس الدنانير الخالصة ، وركب أثرها بجيشه ، فالتقى الناس ، فلما نشبت الحرب بينهم انهزم حسان بالعرب فضعف جانب القرمطى وقوى عليه المعز فكسره — ويقال أن هذه الخديعة كانت للقرمطى نفسه — فانخدع وعاد إلى الشام فمات بالرملة ، وصفا وجه الجو للمعز ،فان القرمطى كان أشد عليه من جميع الناس ، للرعب الذى سكن قلوب الخلق من جراء بطشه وقوة جنده ، إذ أنه إذا كان فى الف ، حطم مائة الف

وانتصف، وهذا خذلان من الله تعالى لأمر يريده (إنما نملي لهم ليزدادوا إثما)

علاقته بالبويهين :

علمنا ما كان من إعانة عزالدولة بختيار البويهي للقرامطة بالمال حتى غزوا الشام ومصر ، ثم انهزموا بالحيلة التي دبرها المعز والنقود الزائفة ، فلما انتصر المعز وصفا له الجو بموت القرمطي ، جعل ظالما العقيلي على دمشق ، فدخلها ثم حصلت فيها فتن انتهت باستيلاء أفتكين مولى معز الدولة والد بختيار على دمشق ، وعجز ظالم عنه ، فخرج اليه أعيان المدينة وسألوه الدخول اليهم ليولوه ، وشكوا اليه حال المغاربة وما يحملونهم من عقائد ، وما يلاقونه من عمالهم من العسف والظلم فأجابهم واستحلفهم وحلف لهم ، وملك البلد ، وخطب للطائع العباسي وقطع خطبة المعز منها ، ثم كاتب المعز يطلب طاعته وولاية دمشق من قبله - لما كان بين أفتكين وبين مولاه من الخلاف — فلم يثق اليه ، فظل على عدائه حتى مات المعز .

موت المعز : مات المعز في ربيع الآخر سنة ٣٦٥ بعد أن أقام واليا ٢٣ سنة ، منها ثلاث بمصر والباقي بالمغرب ، وخلف عشر بنين وسبع بنات .

وكان منجمه قد قال له قبل وفاته : أن عليك قطعا في هذه السنة ، فتوار عن وجه الأرض حتى تنقضي هذه المدة ، فعمل له سردابا ، ودعا الأمراء وأوصاهم بولده نزار ، ولقبه العزيز وفوض اليه الأمر حتى يعود ، فبايعوه على ذلك ، ودخل السرداب فتوارى فيه سنة ، فكانت المغاربة إذا رأى الفارس منهم سحابا ساريا ، ترجل عن فرسه وأومى اليه بالسلام ، على زعم أن المعز في ذلك الغمام ، ثم برز الى الناس بعد مضي سنة وجلس للحكم على عادته فعاجله الله في هذه السنة .

وكان مما رسمه ألا يولي رجلا من أهل السنة عملا ألا ويجعل معه آخر من الشيعة ، ليتعلم منه العمل ، وليكون للمعز عينا ، وقد عرض الوزارة على ابن

الفرات — وهو سنى — ليستميل بذلك أهل السنــة بمصر وهم الأكثرية الساحقة ، فلما رفضها ابن الفرات ، استوزر ابن كلس ، وجعل اليه أمر الخراج وأشرك معه آخر ، ولعلك تذكر من آثار المعز القاهرة والأزهر .

وكانت ثروته لا تعد ولا تحسب ، وطرفه من البسط والمظلات الحريرية الموشاة بالذهب والفضة من التى أمر بصنعها للحرم المكى والبيت الحرام لا نظير لها ولا تقدر بقيمة

وقد ضرب النقود باسمه ، ووضع النواة الاولى للاسطول المصرى

هذا ويعد من أكبر اخطاء المعز ، استخلافه على المغرب يوسف الضهاجى فسترى ان هذا العامل بعد قليل استقل بها فى يده وانشأ فيه ملكا له ولابنائه من بعده ، فنقصت بذلك رقعة الخلافة الفاطمية نقصا لم يعوض بها ضموه الى مصر من البلاد الاخرى .

وكان غفر الله له عالما كريما شجاعا عادلا منصفا — سترد عوتهم الا عن الخاصة ، ثم أمر الدعاة باظهارها الا انه لم يخرج فى ذلك الى حد يذم ، وله فى العفو عند القدرة والبصر بعواقب الامور وحسن السياسة والحذق فى اختيار الرجال اخبار حسان — وكان يتكلم بلغات كثيرة حتى لغة الصقالبة والروم وكان يخطب فى الحماسة فيبعث الاقدام فى نفس الجبان ، وفى الوعظ فيبكى المرشدين والوعاظ



العزيز بالله نزار

٣٦٥ — ٣٨٦

هو ابو منصور العزيز بالله بن المعز لدين الله الفاطمى ، ثانى خلفاء مصر من بنى عبيد ، ولد بالمهدية سنة ٣٤٤ ، وخرج مع أبيه المعز من المغرب الى القاهرة . وكان ابوه قد عهد اليه بالخلافة ، فولى بعده فى ربيع الآخر سنة ٣٦٥ وله من العمر اثنتان وعشرون سنة . وملك مصر وخطب له بها وبالشام والمغرب والحجاز .

وكان أهل الحجاز قد خطبوا لابيه المعز فى الموسم ، ثم تركوا الخطبة للعزيز ، فبعث جيوشه الى مكة والمدينة وضيقوا عليهم حتى رجعوا الى دعوة العلويين وخطب للعزيز بمكة .

اخبار أفتكين فى عهد العزيز — لما تولى العزيز ، سار أفتكين فاخذ صيدا وعكا وقصد طبرية ، فجهز اليه العزيز جيشا بقيادة جوهر فارتد الى دمشق ، وأظهر لاهلها انه منصرف عنهم ، فخبرهم بذلك ، فتطارحوا اليه واستماتوا فاستحلفهم على ذلك ، ثم وصل جوهر فحاصر دمشق شهرين — فكاتب افتكين ملك القرامطة فجاء اليه مسارعا بجيش جرار ، ولما رأى جوهر انه لاقبل له بهم عاد الى مصر واغرى العزيز بالمسير اليهم بنفسه فاجابه ، وخرج وجوهر على مقدمته فسار افتكين ومن معه والتقى الجمعان بالرملة فى المحرم من سنة ٣٦٧ ، وبعث العزيز الى افتكين يرغبه ويعده بالتقدم فى دولته ، ويدعوه الى الحضور عنده ، فبرز افتكين بين الصفين وترجل وقبل الارض وقال لجوهر : قل لامير المؤمنين . لو كان قبل هذه الساعة لسارعت ، وأما

الآن فلا يمكنني ؛ وحمل على ميسرة الفاطميين فهزمهم ، فحمل العزيز على ميمنة افتكين وهزمها هزيمة منكرة ، فهرب افتكين وانفضت جموعه ، فبذل العزيز لمن جاء به مائة الف ، فجيء به وهو لا يشك أنه مقتول ، لكن العزيز إخلف ظنه وأكرمه ونصب اليه الخيام وأعاد اليه ما نهب منه ، ولما رجع به إلى مصر جعله اخص خدمه وحجابه ، أما ملك القرامطة فقد أرسل اليه العزيز ليحضر فيصيبه ما أصاب افتكين من الاكرام فامتنع ، فأرسل اليه عشرين الف دينار فرضها له فرضا وضريبة سنوية ، فأخذها القرمطي وعاد إدراجه إلى إلى الاحساء .

وواضح أن العزيز بصنيعه مع افتكين قد دل على ما اتصف به من الكرم وحسن العفو عند القدرة ، فقد خسر في حروبه أموالا ورجالا ولكنه لم يأخذه بما صدر منه ، بل رأى أنه يدخره رجاء أن يكون في وقت من الأوقات ذا رأى موفق في حرب أو سلم ، فان أفتكين من عظماء القواد ، أما صنعه مع القرامطة فحكمة منه تدل على بصر بأحوال هذه الفئة وأمانيها ، فبذل اليهم المال وهو على يقين من أن ذلك خير وسيلة لدفعهم ة وقد كان .

ولما انتهى من هذا الشأن أخذ في تثبيت قواعد ملكه بتمهيد الأمور وتقرير القواعد وتنظيم الادارة ، وبيناهو في ذلك إذ أغار قسام الحارثي على دمشق وكان من أذناب افتكن ، وكان رجلا غنيا له من عصبيته قوة ومنعة ، وقد غلب على دمشق حتى لم يبق لنوابها معه أمر ولا نهى – فندب اليه المعز جيشا مع قائده الفضل وأمده بالعساكر ، فحاصر قساما في دمشق ولكنه لم يظفر به ، فأرسل جيشا ثانيا فلم يفلح أيضا ، فجهز جيشا ثالثا فحاربوه حتى ضعف شأنه وهرب واختفى أياما ، ثم ظهر فقبض عليه وأرسل مقيدا إلى العزيز فصنع معه ما صنع مع افتكين وأمنه .

علاقته بصاحب حلب:

صاحب حلب فى هذا الوقت هو أبو الفضائل ابن سعد الدوله بن سيف الدولة ابن حمدان ، وكان من حديثه أن كاتبه فر من وجهه واستقر أخيرا بمصر واتصل بالعزيز فكان من أعوانه: هون عليه حصون حلب وأمر صاحبها، فتشوفت نفس العزيز إلى أخذها حتى يكون له الشام كله - فاعد جيشا جعل على قيادته مملوكه منجوتكين وولاه الشام ،وجعل معه ذلك الكاتب ليدبر مايدبر مع الحلبيين وخرج منجوتكين ووصل الى دمشق فتلقاه أهلها والقواد وعساكر الشام والقبائل فأقام بها مدة ، ثم قصد حلب فى ثلاثين الفا ، وكان بها ابو الفضائل وغلامه لؤلؤ ، فاغلقا ابواب المدينة وأستظهرا فى القتال غاية الاستظهار على المصريين

استعانة أبى الفضائل بالروم المسيحيين على المسلمين المصريين

كان العزيز قد اعد فى سنة ٣٧٧ مراكب حربية عظيمة لغزو الروم فى جهات الثغور فاحترقت واتهم باحراقها اناسا

وبعد قليل وصلت رسل الروم فى البحر الى ساحل القدس بتقادم للعزيز ودخلوا مصر يطلبون الصلح ، فاجابهم العزيز وشرط شروطا شديدة التزموا بها كلها ومنها أنهم يحلفون برد الاسرى ،وان يخطب للعزيز فى جامع القسطنطينية الصغرى،وهى انطاكية، فى كل جمعه ، وأن يرسلوا اليه من امتعة الروم مايفترضه عليهم ، ثم ردهم بعقد هدنة مع الروم سبع سنين

ولما قدم عسكر مصر إلى الشام كاتب لؤلؤ ملك الروم يستنجده وفاء بالمعاهدة التى كانت بينه وبين سعد الدولة ، وقال هذا ولده ، وقد حصره المصريون ، وحثه على إنقاذه ، وأرسل اليه الهدايا وسأله فى المعونة والنصرة على المصريين - غير أن ملك الروم إذ ذاك كان مشتغلا بحروب البلغار ،كتب إلى نائبه بانطاكية ، أن يسير بالعساكر إلى حلب ويدفع المغاربة عنها ، فسار

فى خمسين ألفاً ، ونزل بين انطاكية وحلب .

فلما بلغ ذلك منجوتكين ، استشار كاتب أبى الفضائل الذى كان يرافقه كما سلف ، فأشار عليه بالانصراف عن حلب وقصد الروم ابتداء حيث هم قبل وصولهم إلى حلب ، لئلا يقع بين عدوين ؛ فأجابه وساروا حتى نزلوا حصن أعزاز . وهو بالشمال الغربى من حلب ؛ وحال بين الفريقين أحد روافد نهر العاصى ، غير أن رجلا من العسكر المصرى استدل على مخاضة وعبر الرافد منها فلما رأى بقية العسكر أن الماء لا يصل إلا إلى صدره ، رموا بأنفسهم فيه فرسانا ورجالة ؛ وصاروا امم الروم فى صعيد واحد ؛ فوقع القتال بين الفريقين واشتد . حتى أنزل الله نصره على المصريين ، فولى الروم مدبرين ؛ وتبعهم المصريون فأثخنوهم قتلا وأسرا ؛ وغنموا من عساكرهم وأموالهم مالا يعد ولا يحصى ؛ وكان مع الروم ألفان من مسلمى حلب ؛ فقتل منهم منجوتكين ثلثمائة وسار حتى وصل إلى انطاكية ؛ فأحرق ضياعها وكر راجعا الى حلب ؛ فعمل لؤلؤ ماعمل وخدع منجوتكين فانصرف عن حلب الى دمشق : على أن يعيد الكرة فى العام الآتى ؛ وكتب الى العزيز أن قد نفدت الميرة ليبرر ماصنع من فك حصار حلب .

وبلغ العزيز الامر فشق عليه ، وارسل الى منجوتكين بأن يسارع الى حصار حلب حالا ، وبعث من غلات مصر فى البحر شيئا كثيرا من الذخيرة استعدادا لأخذ حلب

رحل منجوتكين الى حلب ، وبنى بظاهرها الدور والاسواق ؛ ثم هاجم أهلها وحاصرهم حتى عدمت الاقوات عندهم ؛ وفيها أبو الفضائل ولؤلؤ ؛ فكاتبوا ملك الروم ثانية ؛ وقالوا له متى أخذت حلب ؛ أخذت انطاكية ؛ ومتى أخذت انطاكية أخذت قسطنطينية .وكان ملك الروم فى وسط البلغار

فعاد مسرعا ، وسار بنفسه فى مائة ألف ، وتبعه خلق كثير فى طريقه

فلما قرب من البلاد ، ارسل لؤلؤ الى منجوتكين يقول : ان الاسلام جامع بينى وبينك ، وأنا ناصح لكم ، وقد وافاكم ملك الروم بجنده ، فخذوا لانفسكم . وارسل منجوتكين عيونه فجاءوه بمثل ماقال لؤلؤ ، فأحرق الخزائن والأسواق لئلا تكون غنيمة للروم ، وقصد ناحية الجنوب فنزل بمرج قنسرين وبعث اثقاله الى دمشق ، وبعد أن أقام أياما رحل الى هذه المدينة

وجاء قيصر الروم فنزل منزل المصريين بظاهر حلب ، وهناك هاله ماكان من استعداد منجوتكين وما كان من كثرتهم ، فعظموا فى عينه ، ولكن ذلك لم يثنه عن متابعتهم ، وخرج اليه ابو الفضائل وغلامه وصارا فى خدمته ، فسار الى شيزر وغيرها وفتحها ، ونازل حمص ، ثم وصل الى طرابلس فلم يقدر عليها ، فوقف عند هذا الحد وعاد من حيث اتى

ولما وصل خبر تقدم القيصر فى الأملاك المصرية بالشام نادى فى الناس وفتح خزائنه وانفق على جنوده وخرج ومعه توابيت آبائه (يستنصر بها) حتى وصل (فيما يقال) إلى سواحل الشام وهنالك نزل به مرض الموت وتزايد به حتى مات سنة ٣٨٦ — ويقال أن هذا المرض اشتد به فى بلبيس وربما كان ذلك وهو عائد من الشام لا ابتداء ، وعلى أى حال فانه مات فى بلبيس ، وصف له دواء يتناوله وهو فى الحمام ، فدخل اليه وتناول الدواء فمات من ساعته وكان لما اشتد الوجع به قد استدعى القاضى محمد بن النعمان ، وأبا الحسن بن عمار أمين الدولة وشيخ كتامة وسيدها ، فخاطبهما بما خاطبهما به فى أمر ولده الحاكم ثم استدعى الحاكم وخاطبه بذلك والأمر يشتد به إلى أن قضى نحبه .

وكانت ولايته إحدى وعشرين سنة ونصفا ، وكان ملكا شجاعا مقداما حسن الأخلاق كثير الصفح حليما لا يحب سفك الدماء وكان فيه عدل وإحسان

للرعية ، وهو أحسن الخلفاء الفاطميين بالنسبة لأبيه ولابنه — ولقد زادت مملكته على مملكة أبيه بما ضم اليها فى الشام من حمص وشيزر وحماه، وضرب اسمه على السكة والبنود ، وخطب له بمكة والمدينة، وباليمن بلاد الشيعة العلويين هناك سنة ٣٧٠ .

وهو الذى رتب الفطرة فى عيد شوال، وهى وليمة عامة كانت نفقاتها فى كل سنة عشرة آلاف دينار ، وكانت تصنع من أصناف كثيرة كالدقيق والسكر والعسل واللوز والفستق والبندق والتمر والزبيب والخل والشيرج. ثم تعرض للناس فيأخذون منها على قدر منازلهم ، وهى وما يماثلها كانت مما يصنعه تأليفا للقلوب . أو سعيا وراء مشترى الضمائر والنفوس المنحطة

ولاية الحاكم بامر الله

هو ابو على منصور الحاكم بامر الله بن العزيز بالله ، الثالث من خلفاء بنى عبيد بمصر ، ولد بالقاهرة سنة ٣٧٥ ، وبويع بالخلافة يوم مات أبوه وعمره أحدى عشرة سنة ونصف ، ولكونه صغيرا أستولى على دولته برجوان الخدم مدبرا وكان رديفه فى ذلك الحسن بن عمار الكتامى ويلقب بامين الدولة ، فحصل التنافس بينهما ، ولكن ابن عمار تغلب عليه فانبسطت ايدى كتامة فى أموال الناس وحرمهم

ونكر منجوتكين تقدم ابن عمار ، وكاتب برجوان ، وأظهر الانتقاض فارسل ابن عمار الجيوش فهزمت جنده بعسقلان وأسرته ، وسيق الى مصر فابقى عليه ابن عمار ، ولكنه عقد لسليمان بن فلاح على الشام فعزل والى طرابلس عنها فرحل الى مصر ، وداخل برجوان فى الفتك بابن عمار فحصلت ثورة اختفى ابن عمار من جرائها ، فاظهر برجوان الحاكم وجدد له البيعة ،

وبعث الى ابن فلاح من يقبض عليه ، فنهبت ونهبت خزائنه فثارت الشام أيضا ، وانتهز الروم هذه الفرصة واغاروا على بعض النواحي وحاصروا أفامية ، فجهز برجوان اليهم جيشا فى البر والبحر ، فتمكن من أعادة الامور الى مجراها وهزم الثوار فى كل مكان — ثم أرسل جيشا الى برقة وطرابلس فاخضعهما وولى عليهما ، ومكن للحاكم فى دولته ، ونظر فى ديار مصر والحجاز والشام والمغرب ، ولما بلغ الحاكم أشده ثقل عليه أمر برجوان لاستبداده بالامر دونه ، فامر ريدان الصقلي صاحب المظلة فقتله سنة ٣٨٩ وبعد حين قتل ريدان

ولما قتل برجوان رد الحاكم النظر فى جميع ماكان بيده الى قائد القواد الحسين بن جوهر القائد ، ثم نقم منه فقتله سنة ٤٠١ وكان الحسين قد خاف على نفسه من الحاكم فهرب هو وولده وصهره القاضى عبد العزيز بن النعمان فارسل الحاكم من ردهم وطيب قلوبهم وآنسهم مدة ، ثم حضروا الى القصر بالقاهرة للخدمة ، فتقدم الحاكم الى راشد الخادم وكان سيف النقمة ، فاستحضر عشرة من الغلمان الاتراك فقتلوا الحسين وصهره وأحضروا رأسيهما بين يدى الحاكم . وكذلك فعل الحاكم بابن عمار ، وهكذا أيضا كان شأن كل من يظن الحاكم به سوءا أو يرى أن فى بقائه تهديدا لملكه ، وقد نجا منه الوزير المغربى ابو القاسم الحسين بن على حينما قتل اباه وعمه وأخويه سنة ٤٠٠ فهرب الى حسان بن مفرج الطائى وكان متغلبا على الرملة وافسد نيته على الحاكم ، ثم توجه الى الحجاز وأطمع صاحب مكة فى الحاكم ومملكة الديار المصرية ، وعمل فى ذلك عملا اقلق الحاكم وخاف على ملكه ، فبذل الحاكم الاموال لصاحب الرملة حتى استماله اليه ثم لم يزل يعمل على صاحب مكة حتى انقضى أمره وكان قد بويع بالخلافة بتدبير هذا الوزير المغربى الذى هرب الى العراق فاتهمه القادر بانه جاء لافساد الدولة العباسية واشار بابعاده ، فمازالت تتقلب به الاحوال حتى مات بميافارقين

قسوته على أهل الفسطاط :

كان أهل الفسطاط موتورين منه ، فكانوا يدسون اليه الرقاع المختومة بالدعاء عليه وسبه وسب أسلافه ، والوقوع فيه وفى حرمه، حتى انتهى فعلهم إلى أن عملوا تمثال امرأة من قراطيس بخف وأزار ، ونصبوها فى بعض الطرق وتركوا فى يدها رقعة كأنها ظلامة، فتقدم الحاكم وأخذها من يدها ، فلما فتحها رأى فى أولها ما استعظمه ، فقال انظروا هذه المرأة من هى ، فقيل له أنها معمولة من قراطيس ، فعلم أنهم سخروا منه ، وكان فى الرقعة كل قبيح فعاد من وقته إلى القاهرة ونزل فى قصره ، واستدعى القواد والعرفاء، وأمرهم بالمسير إلى مصر وضربها بالنار ونهبها ، وكل من ظفروا به من أهلها ، فتوجه اليها العبيد والروم والمغاربة وجمع من العساكر ، وعلم أهل مصر بذلك فاجتمعوا وقاتلوا عن نفوسهم ولكن الجنود اضرموا النار فى أطراف البلد فاستمرت الحرب بين العبيد والعامة والرعية ثلاثة أيام ، والحاكم يركب فى كل يوم إلى القرافة ويطلع إلى الجبل ويشاهد النار ، ويسمع الصياح ، ويسأل عن ذلك فيقال له : العبيد يحرقون مصر وينهبونها ، فيظهر التوجع ويقول لعنهم الله ، من أمرهم بهذا ؟

فلما كان اليوم الرابع اجتمع الاشراف والشيوخ إلى الجوامع ورفعوا المصاحف ، وضجوا بالبكاء ، وابتهلوا إلى الله تعالى بالدعاء ، فرحمهم الأتراك ورقوا لهم ، وانحازوا اليهم وقاتلوا معهم ، وكان أكثرهم مداخلا لهم ومصاهرا وانفرد العبيد وصار القتال معهم ، وعظمت الفتنة واستظهرت كتامة والأتراك عليهم ، وراسلوا الحاكم وقالو نحن عبيدك ومماليكك ، وهذا البلد بلدك ، وفيه حرمنا وأموالنا وأولادنا ، وما علمنا أن أهله جنوا جناية تقتضى سوء المقابلة وتدعو إلى هذه المعاملة ، فان كان هناك باطن لانعرفه ، فأخبرنا عنه ، وانتظرنا

حتى نخرج بعيالنا وأموالنا منه ، وإن كان ما عليه هؤلاء العبيد مخالفاً لرأيك فأطلقنا فى معاملتهم بما يعامل به المفسدون والمخالفون ، فأجابهم بأنه ما أراد ذلك ، ولعن الفاعل له والآمر به ، وقال أنتم على الصواب فى الذب عن المصريين ، وقد أذنت لكم فى نصرتهم والايقاع بمن تعرض لهم ، وأرسل إلى العبيد سرا يقول كونوا على أمركم ، وحمل اليهم سلاحا قواهم به ، وكان غرضه فى هذا أن يطرح بعضهم على بعض وأن ينتقم من فريق بفريق ، وعلم القوم بما يفعل ، فراسله الأتراك وكتامة : قد عرفنا غرضك وهذا هلاك هذه البلدة وأهلها وهلاكنا معهم ، وما يجوز أن نسلم نفوسنا والمسلمين لهتك الحرم وذهاب المهج ، ولئن لم تكفهم لنحرقن القاهرة ونستنفرن العرب وغيرهم ، فلما سمع الرسالة وكانوا قد استظهروا على العبيد ، ركب حماره ووقف بين الصفين ، وأومأ للعبيد بالانصراف فانصرفوا ، واستدعى كتامة والأتراك ووجوه المصريين واعتذر اليهم وحلف أنه برىء مما فعله العبيد ، وكذب فى يمينه ، فقبلوا الأرض بين يديه ، وشكروه وسألوه الأمان لأهل مصر ، فكتب لهم ، وقرىء الأمان على المنابر ، وسكنت الفتنة وفتح الناس أسواقهم ، وراجعوا معايشهم ، واحترق من مصر مقدار ثلثها ونهب نصفها ، وتتبع المصريون من أخذ من أزواجهم وبناتهم وأخواتهم وابتاعوهن من العبيد ، بعد أن فضحوهن ، وقتل بعضهن نفوسهن خوفا من العار .

واستغاث قوم من العلويين والأشراف إلى الحاكم ، وذكروا أن بعض بناتهم فى أيدي العبيد على أسوأ حال ، وسألوه أن يستخلصهن ، فقال الحاكم: أنظروا ما يطالبونكم به عنهن لا طلقه لكم ، فقال له بعضهم : أراك الله فى أهلك وولدك مثل ما رأينا فى أهلنا وأولادنا ، فقد أطرحت الديانة والمروءة بأن رضيت لبنات عمك بمثل هذه الفضيحة ، ولم يلحقك منهن امتعاض ولا

غيرة ، خلع عنه الحاكم وقال له : أنت أيها الشريف محرج ، ونحن حقيقون باحتمالك وإلا غضبنا عليك؛ وزاد الأمر على الناس فيما يفجؤهم به حالا بعد حال من كل ما تنخرق به العادات وتفسد الطاعات .

وما تدرى كيف أن أهل مصر لم يقتلوه غيلة ، ولعل ما درجوا عليه من تقديس أئمة الشيعة من غير عقل ؛ هو الذى حال بينهم وبين ما كان ينبغى عليهم فى هذا الأمر .

علاقته بالعباسيين

كتب الخليفة القادر العباسى محضرا فى ذم الخلفاء المصريين والقدح فى أنسابهم وعقائدهم ، وقرئت النسخ ببغداد وأخذت فيها خطوط القضاة والأئمة والأشراف بما عندهم من العلم بمعرفة نسب الديصانية ، قالوا : وهم منسوبون إلى ديصان بن سعيد الخرمى ، إخوان الكافرين ونطف الشياطين ، شهادة يتقربون بها إلى الله ، معتقدين ماأوجب الله على العلماء أن ينشروه للناس ، فشهدوا جميعا أن الناجم بمصر وهو منصور بن نزار الملقب بالحاكم — حكم الله عليه بالبوار والخزى والنكال — بن معد بن اسماعيل بن عبد الرحمن بن سعيد لا أسعده الله — فانه لما صار إلى المغرب تسمى بعبيد الله وتلقب المهدى ، هو ومن تقدمه من سلفه الأرجاس الأنجاس — عليه وعليهم اللعنة — أدعياء خوارج لانسب لهم فى ولد على بن أبى طالب ، وأن ذلك باطل وزور ، وأنهم لايعلمون أحدا من الطالبيين توقف عن إطلاق القول فى هؤلاء الخوارج أنهم أدعياء ، وقد كان هذا الانكار شائعاً بالحرمين فى أول أمرهم بالمغرب ، منتشرا انتشارا يمنع من أن يدلس على أحد كذبهم أو يذهب وهم إلى تصديقهم وأن هذا الناجم بمصر هو وسلفه كفار وفساق فجار زنادقة ؛ وللمذهب الثنوية

والمجوسية معتقدون ، قد عطلوا الحدود وأباحوا الفروج ، وسفكوا الدماء ، وسبوا الأنبياء ، ولعنوا السلف ، وادعوا الربية وكتب فى شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وأربعمائة .

فلما بلغ الحاكم قامت قيامته ، وهان فى أعين الناس لكتابة العلماء الأعلام فى المحضر . ولكن هذا لم يمنعه من استعمال الحزم والمال حتى عادت اليه هيبته

حديث ابى ركوة وخروجه

(١) سمى أبو ركوة ، لأنه كان يحمل ركوة فى أسفاره لوضوئه ، على سنة الصوفية ، وكان يزعم أنه الوليد بن هشام بن عبد الملك بن عبدالرحمن الداخل ، هرب من وجه المنصور بن أبى عامر حين تتبعهم بالقتل وهو ابن عشرين سنة وقصد القيروان ، وأقام بها يعلم الصبيان ، ثم قصد مصر وسار إلى مكة واليمن والشام . وكان يدعو للقائم من ولد أبيه هشام ، ثم نزل على بنى قرة ، وكانوا فى أعمال برقة ، وكان العامل قد قتل من أشرافهم مع من قتل وأحرقهم بالنار لفسادهم ، فبادروا إلى أبى ركوة وأجابوه وانقادوا له وبايعوه ومال اليه معهم خلق كثير وساروا إلى عامل برقة من قبل الحاكم فهزموه وملكوها وغنموا الأموال والسلاح .

(٢) وعرف الحاكم بما جرى فانزعج وكف عن القتل وجهز إلى أبى ركوة قائدا من الأتراك يقال له ينال الطويل وأرسل معه خمسة آلاف فارس ، وكان معظم جيش ينال من كتامة ، فلما التقى الجمعان هزمه أبو ركوة وأخذه أسيرا وقال له العن الحاكم ، فبصق فى وجه أبى ركوة ، فأمر به فقطع إربا إربا ، وأخذ مائة ألف دينار كانت معه فقوى أمره أكثر مما كان ، واشتد الأمر على الحاكم أكثر وأكثر بكسر ينال .

وبعث الحاكم إلى الشام واستدعى من استدعى، وأنفق الأموال وجهز الجيوش وجعل عليهم الفضل بن عبد الله ، فالتقى الجمعان بين الاسكندرية وبرقة فثبت أبو ركوة ، واستأمن اليه جماعة من كتامة لما نالهم من أذى الحاكم ، فأمنهم أبو ركوة فلحقوا به، فانهزمت عساكر الفضل وقتل خلق كثير منهم ، وعاد أبو ركوة إلى برقة ظافرا منصورا، وردد البعوث والسرايا إلى الصعيد وأرض مصر وكتب الناس اليه يستدعونه ومنهم الحسن بن جوهر قائد القواد .

(٤) وتقدم أبو ركوة حتى نزل عند الهرمين بالجيزة يتتبع المنهزمين من جنود الحاكم ، فغلق الحاكم أبواب القاهرة ثم ندب العسكر اليه مع الفضل ثانياً فسار بهم والتقى مع أبي ركوة فهزمه وقتل من عسكره نحو ثلاثين ألفا ، وظفر بأبي ركوة فسيره مكرما إلى الحاكم رجاء ألا يقتل نفسه قبل أن يصل إلى الحاكم حيا ، ولما قطع أبو ركوة الجيزة في طريقه أمر الحاكم أن يشهر به وكانت القاهرة قد زينت أحسن زينة ، فأركب جملا بسنامين ، وأركب خلفه قرد معلم يضربه على قفاه بدرة . والعساكر حوله وبين يديه خمسة عشر فيلا مزينه ، ودخل القاهرة على هذه الصورة ، ورءوس أصحابه بين يديه على الخشب والقصب ، وجلس الحاكم في منظرة على باب الذهب ، والترك والديلم على الخيول بسلاحهم حول أبي ركوة ، وكان يوما عظيما .

ثم أمر به الحاكم أن يخرج إلى ظاهر القاهرة ويضرب عنقه ، فلما حمل إلى هناك أنزل فاذا به ميت ، فقطع رأسه وحمل به إلى الحاكم ، فأمر بصلب جسده ، وارتفعت منزلة الفضل عند الحاكم وأقطعه إقطاعات ، ولكنه بعد أيام قبض عليه وقتله شر قتلة .

اغتيال الحاكم واسبابه

كان للحاكم أحوال متضادة بين شجاعة وإقدام ، وجبن واحجام ، ومحبة للعلم وانتقام من العلماء ، وميل إلى الصلاح وقتل للصلحاء ، وكرم حاتمى ، وبخل مادرى — كتب على المساجد والجوامع سنة ٣٩٥ بسب أبى بكر وعمر وعثمان وعائشة وطلحة والزبير وعمرو بن العاص رضى الله عنهم ثم محاه سنة ٣٩٧ ، ونهى عن النجوم وكان ينظر فيها ، ونفى المنجمين وكان يرصد النجوم ويخدم زحل وطالعه المريخ ولهذا كان سفاكا ، واتم مسجده (الحاكم) الذى شرع فيه ابوه ومات قبل تمامه ، وبنى جامع راشدة بين الفسطاط ودير الطين ومنع من صلاة التراويح عشر سنين ثم اباحها ، وقطع الكروم ومنع من بيع العنب ، واراق خمسة آلاف جرة من العسل فى البحر لئلا تعمل نبيذا ، وجعل لاهل الذمة علامات يعرفون بها ، والبس اليهود العمائم السود ، ولم يبق فى ولايته ديرا ولا كنيسة الا هدمها ، ونهى عن تقبيل الارض بين يديه ، ومن الصلاة عليه فى الخطب والمخاطبة ، ثم رجع عن ذلك ، ثم عن له أن يدعى الربوبية فمال اليه خلق كثير طمعا فى الدنيا والتقرب اليه ، وكان اليهودى والنصرانى — من الذين أسلموا فرقا من بطشه — اذا لقيه يقول : الهى قد رغبت فى شريعتى الاولى ، فيقول الحاكم أفعل مابدا لك ، فيرتد عن الاسلام وزاد هذا الأمر بالناس

فلما بدت عنه هذه الأمور الشنيعة ، استوحشوا منه ، وكانت له أخت يقال لها ست الملك من أعقل النساء وأحزمهن ، فكانت تنهاه فيسمعها أغلظ الكلام ، ويتهددها بالقتل ويتهمها بارتكاب الفاحشة ، وكان بعصر رجل يقال له ابن دواس من شيوخ كتامة كان شديد الحذر من الحاكم لا يلقاه الا فى

المواكب على ظهر فرسه ، فراسلته ست الملك وقالت له: لى اليك أمر لا بد لى فيه من الاجتماع بك ، فاما تنكرت وجئتنى ليلا أو فعلت أنا ذلك ، فقال أنا عبدك والأمر لك ، فتوجهت اليه ليلا فى داره متنكرة ولم تصحب معها أحدا وقالت ياسيف الدولة ، قد جئت فى أمر أحرس به نفسى ونفسك والمسلمين ، ولك فيه الحظ الاوفر واريد مساعدتك فيه ، فقال : انا عبدك ، فاستحلفته واستوثقت منه وقالت له انت تعلم مايقصده أخى فيك ، وانه متى تمكن منك لم يبق عليك ، وكذا أنا ، ونحن على خطر عظيم ، وقد انضاف الى ذلك تظاهره بادعائه الالهية ، وهتكه ناموس الشريعة وناموس آبائه ، وقد زاد جنونه ، وانا خائفة ان يثور المسلمون عليه فيقتلوه ويقتلونا معه وتنقضى هذه الدولة اقبح أنقضاء ، قال صدقت يامولاتنا ، فما الراى ؟ قالت قتله ونستريح منه ، فاذا تم لنا ذلك اقمنا ولده موضعه وبذلنا الأموال وكنت أنت صاحب جيشه ومدبره وشيخ الدولة والقائم بامره ، وانا امرأة من وراء حجاب وليس غرضى الا السلامة منه ، وأن أعيش بينكم آمنة من الفضيحة ، فقال لها عند ذلك مرى بامرك ، قالت اريد عبدين من عبيدك تثق بهما فى سرك وتعتمد عليهما فى مهماتك . فاحضر العبدين فاستحلفتهما ووهبتهما مالا وثيابا وخيلا واقطاعات ، وقالت لهما اريد منكما ان تصعدا غدا الى الجبل فانها نوبة الحاكم فى الركوب ، وهو ينفرد ، لايبقى معه غير القرافى الركابى وربما رده ، ويدخل الشعب وينفرد بنفسه ، فاخرجا عليه واقتلاه واقتلا القرافى والصبى أن كانا معه ، واعطتهما سكينين ورجعت الى القصر وقد أحكمت الأمر واتقنته

فلما كانت الليلة الموعودة خرج ، فركب حماره وأخته تراعى مايكون من أمره ، وكان قصرها مقابل قصره ، فاذا ركب علمت ، ثم رد صاحب العسس وصاحب الستر والسيف وخرج الى القرافة ومعه القرافى والصبى ، ثم سار فى

الجبل ، فعارضه عشرة فوارس من بنى قرة وقالوا قد طال مقامنا على الباب وبنا من الفاقه والحاجه ماتسأل معه حسن النظر والانعام ، فامر القرافى ان يحملهم الى صاحب بيت المال ويأمره أن يعطيهم ، فطلبوا الأمان قبل الاحسان فامنهم ورد القرافى معهم ، وبقى هو والصبى ، فسار الى الشعب الذى جرت عادته بدخوله وقد كمن العبدان له ، فلما قرب الصباح وثبا عليه وطرحاه الى الارض فصاح ويلكما ماتريدان ، فقطعا يديه من راس كتفيه وشقا جوفه وأخرجا مافيه ولفاه فى كساء ، وقتلا الصبى ، وحملا الحاكم الى ابن دواس بعد أن عرقبا الحمار ، فحمله ابن دواس مع العبدين الى أخته ست الملك فدفنته فى مجلسها وكتمت أمره وأحضرت رئيس الرؤساء وعرفته الحال واستكتمته واستحلفته على الطاعة والوفاء ورسمت له بمكاتبة ولى العهد ـ وكان مقيما بدمشق نيابة عن الحاكم ـ بان يحضر الى الباب ، فكتب اليه وانفذت أحد القواد الى الفرما للقبض عليه وحمل الى تنيس .

أما صاحب العسس فلم يفتح ابواب المدينة انتظارا للحاكم ، ففقد الناس الحاكم فى اليومين التاليين فلم يقفوا له على أثر ، وسأل القواد أخته عنه فقالت ذكر لى انه يغيب سبعة أيام وماهنا الا الخير ، فانصرفوا على سكون وطمأنينة .

ثم أخذت ترتب الامور وتفرق الاموال وتستحلف الجند ، وكتبت لابن دواس باستحلاف الناس من كتامة وغيرها لابن الحاكم ففعل ، وفى اليوم السابع ألبست الحسن بن الحاكم أفخر الملابس واستدعت ابن دواس وقالت له المعول فى قيام هذه الدولة عليك وهذا الصبي ولدك ، فابذل فى خدمته وسعك ، فقبل الأرض ووعدها بالطاعة ، ووضعت التاج على رأس الصبي وهو تاج المعز ، واركبته مركبا من مراكب الخليفة ، وخرج بين يديه

الوزير وارباب الدولة ، فلما صار الى باب القصر سلم الناس عليه وارتفعت الاصوات بالتكبير والتهليل ولقبوه الظاهر لاعزاز دين الله واقبلوا افواجا فبايعوه واطلق المال وفرح الناس ؛ وأقيم العزاء على الحاكم ثلاثة أيام ، مع أن جماعة من الغالين فى حبهم السخيفى العقول . يظنون حياته وانه لابد أن يظهر ويحلفون بغيبة الحاكم ، وكان للحاكم مائة عبد يختصون بركابه ويحملون السيوف بين يديه ويقتلون من يأمرهم بقتله ، فبعثت بهم ست الملك الى ابن دواس ليكونوا فى خدمته ، ثم أعلمتهم انه هو الذى قتل الحاكم وامرتهم بقتله فقتلوه وقتلوا العبدين اللذين قتلا الحاكم وكل من اطلع على سرها ، فقامت لها الهيبة فى قلوب الناس

أما ولى العهد الذى كان بتنيس واسمه الياس ، فقد حبسته فى دار واقامت له الاقامات ووكلت بخدمته خواص خدمها ؛ فلما مرضت ويئست من نفسها احضرت الظاهر واوصته ثم ارسلت الى ولى العهد من قتله وماتت بعده بثلاثة أيام

تتمتـــــــــان

الاول فى مصير دولة بنى حمدان:

قدمنا ان ابا الفضائل وغلامه استعانا بملك الروم على المصريين فاعانهما مرتين كانت ثانيتهما موفقة ، وانصرف ملك الروم الى بلاده وعادت حلب الى أبى الفضائل ، غير إن لؤلؤ اغلامه استبد به واخذ منه حلب ومحادعوة العباسية وخطب للحاكم العلوى ، ثم فسد مابينه وبين الحاكم واستقل ، فطمع فيه بنو كلاب بن ربيعة واميرهم يومئذ صالح بن مرداس ، ووقعت حروب بين الفريقين اسر فيها لؤلؤ سنة ٤٦٠ لكن أخا لؤلؤ غلبهم على حلب وارسل فى افتداء أخيه ، فاطلقه صالح بن مرداس فرجع الى حلب واتهم أحد مواليه بالمداخلة فى هزيمته واراد نكبة فنمى اليه الخبر فكاتب الحاكم بمصر واظهر دعوته وانقض على لؤلؤ ، فأقطعه الحاكم صيدا وبيروت وفر لؤلؤ الى الروم فاقام بانطاكية واستعمل الحاكم على حلب واليا من قبله وبذلك زالت دولة بنى حمدان ، وبقيت الى ان أخذها صالح بن مرداس الكلابى فكانت له بها دولة ورثها ابناءه من بعده .

الثانية فى أحوال الحاكم المنكرة

قدمنا فى سبب اغتيال الحاكم ماكان من أحواله الشاذة التى أستوجبت سخط الناس عليه : فقد قتل وصادر وغدر واحل ثم حرم وخطر ثم أباح وعمل اعمالا ربما التمست لها علة ، واعمالا يتعذر كثيرا التعليل لها والمعروف ان الحاكم تولى وهو صغير وتنافس برجوان وابن عمار فى ادارة الدولة حتى وقع بينهما ماوقع وظفر برجوان اخيرا فأخرج الحاكم وبايع له . وكان الحاكم فى خلال مادار بينهما يدرس الاحوال عن كثب ، ويتعرف مايدبره

هذان العاهلان فى السر والعلانية ليفتك أحدهما بالآخر، أو ليتحرر مما قد يصيبه منه ، فلما تم لبرجوان الظفر جدد البيعة على الجند وأمن وجوه كتامة وقوادها ، وكان يواصل النظر فى قصر الحاكم نهاره أجمع ، ويوفى السياسة حقها ويأخذ الحاكم بتهذيب الأخلاق ، وينصحه والنصح مر المذاق ، ويمنعه كثرة الركوب لفرط الاشفاق ، ويصده عن التبذير فى غير موضع الاستحقاق ، فصارت له هذه الأحوال ذنوبا ، وكان للحاكم خادمه المعروف بريدان ، أنس إليه الحاكم كثيرا فشكا إليه برجوان فأغراه به ، وقال إنه يريد أن يريد أن يجعل نفسه فى موضع كافور الأخشيدى ويجريك مجرى ابن الأخشيدى فى الحجر عليك ولم يزل بالحاكم حتى حمله على قتل برجوان كما سلف ، ولما قتل ظن الجند أنها حيلة تمت لابن عمار على الحاكم ، وأحاطوا بالقصر وشهروا السيوف واجتمع القواد والوجوه وعظم الأمر ، فأطل الحاكم عليهم وسلم على الناس فترجلوا له ، وفتح الباب فدخلوا ، وأنفذ على أيدى أصحاب الرسائل رقاعا بخط يده مضمونها : أنى أنكرت من برجوان أمورا أوجبت قتله وقتلته ، فالزموا الطاعة ، وحافظوا على ما فى أعناقكم من الايمان ، فلما وقفوا عليها سلموا وأذعنوا ، وذلك كله سنة ٣٨٩ ، ومضى برجوان كان لم يكن ، ولو علم أن هلاكه على يد الحاكم لأقصر عن ذلك الاجتهاد فى حفظه ، ورب حافظ دواءه داؤه فيه ، وحامل سلاح حتفه به ؛ وضنين بذخر وباله منه ، وكم من شفيق على الملوك قد هلك بفرط شفقته ، وحبيب صار بغيضا بكثرة نصحه .

أليس قتل القادة والوجوه والأعيان بعد ذلك من نوع قتل برجوان ، أى أنه قتل سياسى سببه خشية الحاكم على ملكه منهم . والملك يضحى فى سبيل ملكه كل غال ، فسفك الحاكم للدماء لم يك لمجرد التلذذ باراقتها ، ولكنها خطة سياسية يصفى بها الدولة ممن يعكر صفوها عليه ويوقع الرعب فى قلبه ويبنى

الهيبة فى النفوس حتى يترك الناس مالله لله وما لقيصر لقيصر .

وأما قتله العلماء فالغالب أنهم كانوا من أهل السنة، وملك الحاكم وأهله إنما قام على عقائد الشيعة ، فلعله رأى فيمن قتل منهم ناحية تهدد كيان ملكه فاستراح منهم كما استراح من القواد والزعماء .

أما فى معاملة اليهود والنصارى بالاحسان ثم القسوة عليهم بعد ذلك فسببه بين ، من أنهم ربما استثمروا عطفه عليهم فى سبيل بسط نفوذهم ورفع كلمتهم فعاملهم بهذه القسوة ليبين لهم حقيقة مركزهم بين الأكثرية .

وأما تحريمه بعض الخضر كما قيل ، فلعله رأى أنها مملوءة بجراثيم الأمراض الوبائية فحظرها ، ولأنه لم يبين الأسباب قيل أنه استعمل جبروته فى تحريم ما أحل الله من الطيبات ، ومصلحة الصحه اليوم تنهى الناس عن أكل بعض الخضر حتى تغسل غسلا تاماً أو بالماء المغلى ، بل قد تحرم على الناس أكل بعض أنواع السمك البحرى ؛ وكل ذلك لأنها بيئات صالحة لنمو جراثيم بعض الأمراض الوبائية كالكوليرا والطاعون، وتحريمه ذبح البقر أما للمحافظة على النسل وأما لأنه يصاب بالسل البقرى غالباً ، وكثيرا ما تحظر حكومتنا الآن ذبح البقر أو ذبح الاناث من النتاج، وتقطيعه الأعناب وأراقتـه العسل أنما كان لمحاربة عصر الخمر أم الخبائث ، ونهيه النساء عن الخروج أنما كان من جراء خلاعتهن وانحطاط درجة الغيرة عليهن من الرجال الذين يحبون أن تشيـع الفاحشة ، ولا يبالون بالنواهي لانغماسهم فى الترف ، كما ترانا الآن فى لجة قويه من تهتك النساء وقد صرن جميعا بحيث لا تكاد تميز العاهرة من الحرة ، فهل هذا ما ينشده زعما السفور وحرية المرأة ، أن كان ذلك فعلى العفاف العفاء ، وإلا فأين صوت العلماء ؟

وأما نهيه عن صلاة التراويح فلعل مذهب الشيعة لا يقول بها .

الدولة الاخشيدية

٣٢٠ — ٣٥٤

ينسب محمد بن طغج الاخشيد صاحب مصر إلى خاقان صاحب سرير الذهب ملك فرغانة ، وتفسير طغج عبد الرحمن ، والاخشيد لقب ملوك فرغانة كما أن النجاشي لقب ملوك الحبشة ، وكسرى لقب ملوك الفرس ، وقيصر لقب ملوك الروم .

وصف جف جد محمد هذا إلى المعتصم كما وصف إليه غير جف من شجعان الترك فارسل إليهم فوفد جف فيمن وفد إلى المعتصم فأكرمه وأكرمهم وأقطعهم قطائع بسر من رأى وظل جف فى خدمة المعتصم إلى ان توفى فصحب أخاه المتوكل إلى ان مات فى الليلة التى قتل فيها المتوكل سنة ٢٤٧ .

فأما طغج ابو محمد فقد نشأ نشوءا حسنا واتصل بخدمة احمد بن طولون حينما صار صاحب مصر ، وظل معه إلى ان مات فاتصل بخدمة ابنه خمارويه فولاه دمشق وطبرية ؛ ويقال انه كانت له يد فى الحركة التى ادت الى قتل خمارويه وقد أخذت من رواية تحدث بها طغج نفسه بعد أن دالت دولة الطولونيين ، قال : كنت بدمشق أخلف ابا الجيش فجاءنى كتابه يأمرنى بالمسير إلى طرسوس ، وان اقبض على عاملها راغب واقتله ، فسرت وكان الوقت شتاء فما امكن أحدا أن يتلقانى ، فلقينى راغب وحده فى غلمانه وأنزلنى وخدمنى وقضى حقى فامسكت عنه وحضرت معه غزاة اشجبى فيها العدو ، فقال لى جماعة من اهل طرسوس : بالله الا ما صنت هذا الرجل عن القتل وأحسنت إليه ، ففعلت وآثرت رضا الله وانصرفت الى دمشق وكتبت الى خمارويه اعتذر واذكر اشياء منعتنى من القبض على راغب ، فما شعرت وانا بدمشق حتى وافى خمارويه فلقيته وخدمته ، وجلست معه ليلة للشرب فلما تمكن منه الشراب قال لى :

يا طغج ، اشعرب بانه ما جاء بى الى دمشق سواك ؟ فاضطربت ، فلما رآنى تغيرت قلب الحديث ، وانصرفت وانا خائف منه ، وعلمت انه يقتلنى كما قتل صافيا غلام ابيه بدمشق ، فقتل خمارويه فى تلك الليلة وكفانى الله امره، من هذا الحديث فهم جماعة انه عمل على قتل خمارويه قبل ان يقتله اذا اصبح ولولا ان السكر اخذ من خمارويه مأخذه فباح بالسر الى طغج لبقى خمارويه وقتل طغج .

هذا — وما زال طغج على دمشق وطبرية وابنه محمد يخلفه على طبرية وكان بها ابو الطيب العلوى ، فكتب محمد الى ابيه يذكر له انه ليس له أمر ولا نهى مع ابى الطيب فكتب اليه أبوه : اعز نفسك ، فذهب إلى ابى الطيب وقتله .

واستمر طغج على عمله هذا ايام جيش وايام هرون الى ان قتل هرون بالعباسة وسار محمد بن سليمان الكاتب من بغداد الى مصر ايام الخليفة المكتفى ففتح مصر وعاد الى العراق فعاد معه طغج فكان بينه وبين الوزير العباس بن الحسن امر أدى الى حبسه .

ذلك انه اراد من طغج اذا لقيه فى موكبه ان يترجل له فلم يفعل ، فعمل فى تأليب المكتفى عليه واخافه منه وحذره ان يكون منه ما كان من آل طولون ، كل هذا وطغج على ترفعه لا يترجل للوزير اذا لقيه ؛ فحبسه وحبس معه ابنيه محمدا وعبيد الله الى ان مات طغج سنة ٢٩٤ ، ولم يشك احد ان العباس قتله فاطلق ابنيه فلزما خدمته الى اليوم الذى عمل فيه الحسين بن حمدان على قتل الوزير فضربه بالسيف فسقط فصاح بهما خذا بثأر أبيكما فقتلاه وفر ابن حمدان الى ديار ربيعة ، وهرب عبيد الله الى شيراز وهرب

محمد الى عامل الشام احمد بن بسطام فصار فى خدمته يخرج معه للصيد ويحمل له الجوارح حتى كان يقال له بازيار ابن بسطام ، ثم اتصل بعده وبعد ابنه على بعامل مصر تكين المعتضدى الخزرى ، فكان منه بمنزلة ولده ، يأكل معه وينادمه ويتحرك بحركته لا يفارقه ، وقد خرج معه الى الاسكندرية لمحاربة عسكر المهدى الفاطمى حينما استولوا على هذه المدينة لاول ما اغاروا على مصر سنة ٣٠٢ فانتصر الجيش المصرى على الجيش المغربى واجلاه واظهر ابن طغج فى الحرب كفاية ودراية ودربة . ثم ان تكين ولى محمد بن طغج على عمان وجبل الشراة ، واتفق له وهو هنالك سنة ٣٠٦ ان حاج الشام وفيهم جماعة من أهل العراق معهم شغب ام المقتدر ، خرجوا ، فبلغ محمدا أن جمعا من لخم وجذام قعدوا لهم ، فجمع عسكره ولقيهم ومعه أخوه على ، فهزمهم ، فشكره تكين وكتب أهل العراق بشكره إلى بغداد فصار لابن طغج حال هناك .

ثم ما زالت الايام تتقلب به من حسن الى أحسن حتى تقلد دمشق فلم يزل بها الى أن توفى تكين بمصر وهو واليها سنة ٣٢١ وولى مصر من بعده ابنه محمد بن تكين باستخلاف ابيه ، وكان يشاركه محمد بن على الماذرائى عامل الخراج ثم حصل بينهما خلاف أدى الى اقتتالهما وعظمت الفتنة واضطرب الزمان وزاد الشر بقتل الخليفة المقتدر بالله وصار كل من غلب على امر صار له — ثم أن الخليفة القاهر اصدر الى الاخشيد كتابا بولايته على مصر سنة ٣٢١ ففرح به الماذرائى لكراهيته محمد بن تكين ، فدعى له على المنابر وهو يومئذ بدمشق فلم يدخل مصر ، وظل واليا عليها فى هذه المرة الاولى ٣٢ يوما ثم عزل عنها وتولى بعده فى هذه السنة جملة من الأمراء كانت مصر فيها ميدانا واسعا للاضطراب والفوضى وقد ظلت كذلك الى أن جاءت سنة

٣٢٣ والخليفة الراضي بالله، فعزل ابن كيغلغ عنها وولى محمد بن طغج الاخشيد على الصلاة والخراج .

كيف دخل ابن طغج مصر

كان الاخشيد قد تصاهر مع الفضل بن جعفر الوزير بان زوج ابنته من ابنه جعفر بن الفضل، فكان له في دار الخلافة عونا، وكان الراضي قد فوض إليه الامر في تدبير كل ما يكون بالشامات ومصر ، بعد ان ندبه لزيارة هذه البلاد واستطلاع اسباب ما هو حادث فيهما من الفوضى والاضطراب والاختلاف ، فكتب الفضل بن جعفر للاخشيد بتقليد مصر استنادا إلى ذلك التفويض ، ووصل كتاب من الراضي بتقليد محمد بن تكين ، فلما وصل الرسول به الى دمشق أخذه منه ابن طغج ، فيقال انه محا تكين وكتب طغج فحصل له عهدان : عهد كتبه له الفضل ، والعهد الذى كتبه الراضي لابن تكين وكان الفضل قد ولى على خراج مصر رجلا وقلد جماعة آخرين امورا بها، فلما ذهبوا إلى أعمالهم بمصر أرسل احمد بن كيغلغ الى العريش ، فنعهم من الدخول فرجعوا الى الشام ، فتجهز ابن طغج وجمع العساكر وجميع الامراء والقواد وسار يريد مصر، فاعترضه محمد بن على المادرائي لأن الراضي قد كتب إليه : أن الأمر يصير إليك فتقلد من شئت وتصرف من شئت ،فأرسل إلى ابن طغج نسخة من كتاب الراضي فوصل الكتاب إلى ابن طغج وهو بالفرما ، فانفذ العساكر برا وبحرا ، وماذر قرن الشمس حتى كانوا على أبواب الفسطاط .

وكتب ابن طغج إلى ابن كيغلغ وقال : هذا كتاب الراضي بتقليدى، فان سلمت والا انصرفت بعد أن آخذ خطك وأشهد عليك بمنعك اياى وأسير

إلى حضرة السلطان، وكان بين ابن كيغلغ وبين ابن المادرائى ما بينهما فان الا لم يك له مع الأخير واولاده امرولانهى ، ومن أجل ذلك كتب إلى ابن طغج بالتسليم ، فدخلت عساكر ابن طغج لايام بقين من رمضان سنة ٣٢٣ وفر ابن المادرائى وغيره الى الفيوم ، فلما كان يوم الجمعة ركب ابن طغج الى الجامع العتيق لصلاة الجمعة وسار بين يديه من ورد معه من الامراء والقواد وجماعة الموفقية والمعتضديه، وكلهم بالسلاح والسوار ، وكان خلفه اخوه عبيد الله بالسوار والسيف والمنقطة لانه لم يرض ان يسير بين يديه كاحد الحجاب

وكان قد تتبع الفارين الى الفيوم بالسفن الحربية فلم يفلح واسر قائدها وقتل ، وعاد الفارون بالسفن فاحرقوا دار الصناعة والمراكب التى بها ثم انحدروا الى الاسكندرية ولم يقدر عليهم ، فانشأ دار أخرى على الشاطىء الشرقى للنيل تجاه الاولى فى موضع دار بنت الفتح بن خاقان ، وجعل موضع الدار الاولى بستانا ودورا وخزائن طعام وكسوة .

ولما دخل الوزير الفضل بن جعفر مصر تلقاه الاخشيد وخلع الوزير عليه عند باب المدينة خلعا سلطانية وسارا حتى نزل الاخشيد دار الأمارة ونزل الوزير دار ابن الجصاص ، وقد ظل بمصر إلى أن استدعاه الراضى سنة ٣٢٦ فسار إلى العراق ثم استأذن فى العودة إلى الشام ومصر ليحمل الاموال ويكشف الاعمال فوافته المنية بالرملة ونقل منها إلى مصر فدفن بها .

وبعد فقد رأيت أن محمد بن طغج ولى مصر من قبل الراضى باختيار الوزير الفضل بن جعفر ، وانه دخلها عنوة أو فتحها فتحا جديدا .

محمد بن طغج فى ولايته الثانية على مصر

٣٢٣ — ٣٣٤

كانت ولاية مصر على قسمين ، وال للحرب والصلاة ، وآخر للخراج وتدبير الاموال ، فلما حصل ابن طغج بمصر ، جمع الولايتين كما عمل أحمد بن طولون ، وكان تدبير الاموال والاستخراج فى دار الفضل بن جعفر ، وتدبير الحرب والرجال فى دار ابن طغج .

ثم شرع يعمل فى مؤاخذة ابن المادرائى ومن على شاكلة ممن قام فى وجهه أو أعان عليه بعد أن صدر اليه التقليد بولاية مصر ، وكان ابن المادرائى قد استتر فلم يعالج ابن طغج من أمره شيئا حتى قدم الفضل بن جعفر بالخلع السلطانية فكشفا عن أمره وعرفا الدار التى استتر فيها فاستخرجاه منها وتولى الفضل حسابه على شرط أن يكون مكرما ويحاسب ويؤخذ منه ما يؤخذ عليه ، فانتهى الامر فيه بقبض ضياعه فى الشام وأكثر ضياعه بمصر وصودر أولاده وحاشيته ولم يعرض لجاريته لان الاخشيد كان لا يتعرض للحرم .

ولما فرغ الفضل من تدبير البلد وتقرير الاموال وكشف الضياع وضياع المادرائيين أخذ فى المسير الى الشام وتولى الاخشيد أمور مصر فى الاموال والرجال ، ولما دخل شهر رمضان اطلق النفقات للمسجد الجامع وأمر بعمارة المساجد بالحصر والبياض والخلوق والمصابيح والأئمة ، ثم أمر بالتاهب للعرض ليلة الفطر على رسم أحمد طولون وما كان يفعله تكين ، فتأهب الناس وركب الى الجامع فى وجوه عبيده فى دارعه بياض وبين يديه خمسمائة غلام بالدبابيس وغيرها وبين يديه الشمع والمشاعل ، ثم أصبح فركب لصلاة العيد وانصرف ونصب السماط فأكل الناس وحملوا .

وفى سنة ٣٢٥ جهز ابن طغج المراكب الحربية للمسير إلى الثغور للفداء

الذي كوتب فيه ، وشحنها بنصارى الروم ممن اهدى اليه ومن اشتراه، وانفذ الثياب والطيب والطعام لمن يحصل فيه الفداء من المسلمين .

علاقة الاخشيد بالخليفة والبلاط

وفى السنة التالية كتب إلى الراضى يستدعى أن يلقب بالاخشيد وقال فى كتابة : وقد كنى امير المؤمنين جماعة ولقبهم ، فليبشرنى بما سألت ، فقال الراضى لحاجبه ما معنى الاخشيد فقيل عبد دعى به ملك الملوك ، فقال الراضى لا نبخل بهذا عليه ، اكتبوا له بذلك، وكان هذا بعقب خلع انفذها اليه الراضى وطوق وسوارين ، وفى رمضان سنة ٣٢٧ ورد كتاب الراضى يلقبه بالاخشيد فدعى له بذلك على منبر الفسطاط وسائر المنابر ، وكتب بذلك على كتبة وكوتب به وعبأ الاخشيد مالا كثيرا وهدية وكراعا وبغالا وحميرا وثيابا وانفذ ذلك كله إلى الراضى.

هذا الرضا المتبادل بين الخليفة والاخشيد لم يلبث أن تعكر صفوه من جراء ابن رائق ، وبيان ذلك ان الراضى حينما رأى عجز وزرائه عن القيام بأمور الدولة ، لتغلب أصحاب السيف من الاتراك على البلاد ، استدعى محمد بن رائق وهو كبير الأمراء واستماله ورتبه (امير الأمراء) وكلفه تدبير الدولة ، فانضم اليه أمراء العسكر وصار واحزبا واحدا ، فاستبد ابن رائق بالولاية والعزل ، ولم يبق للوزير بل ولا للخليفة إلا الاسم من غير حكم ولا تدبير ، ومن تلك الأيام اضطهدت الخلافة وخرجت الأمور منها واستولى الاعاجم والأمراء وأرباب السيوف على الدولة ، وجبوا الأموال وكفوا يد الخليفة وقرروا له راتبا يسيرا فوهن من يومئذ أمر الخلافة .

ثم تحرك ابن رائق إلى الشام وارجف الناس بمسيره من العراق ويقال إن الخليفة الراضى نفسه كتب إلى الاخشيد بما كان منه ، وإنه قد حصل بالرقة يريد الشامات ومصر وكان عبيد الله بن طغج بدمشق فانفذ الاخشيد عمران

ابن فارس فى جيش كبير ، ثم وصلت الاخبار بان ابن رائق دخل دمشق وملكها مع ما خلفها من حلب وحمص والثغور وسائر الاعمال ، فقلق لذلك الاخشيد ، ثم وردت الاخبار بدخول ابن رائق الرملة ، وكان كالطائرة فى مسيره ، فاخذ الاخشيد يتأهب لمقاتلة هذا المغير ، وفى المحرم سنة ٣٢٨ سار واستخلف أخاه أبا المظفر حتى نزل الفرما ، وتقدمت طلائع ابن رائق فكانت بينهم مناوشة ، ثم سفر الحسن بن طاهر العلوى بين الفريقين للصلح ، وانفذ الاخشيد كاتبه إلى الرملة للموافقة على الشروط وتم الصلح على أن تكون الرملة للاخشيد ، ومن طبرية وما خلفها لابن رائق ، وخرج ابن رائق عن الرملة وعاد الاخشيد إلى مصر ، فسر الناس بعودته وزينت له الطرق والاسواق وكان هذا يوم خميس فلما كان من الغد ركب إلى الجامع العتيق لصلاة الجمعة وكان يوما عظيما .

علاقة الاخشيد بالقائم العلوى

كان القائم لما انصرفت عساكره من الاسكندرية اختار أن يستعطف الاخشيد ويصطنعه، وكان ابن المادرائى وهو بالشام فى قبضة الفضل بن جعفر قد اتهم بمكاتبة القائم وانه استدعى منه العساكر وحسن له راية ، فكتب القائم إلى الاخشيد كتابا يرغبه فى جانبه وينفره من العباسيين ، ومما جاء فيه: فقد استفرغت مجهودك فى مناصحة قوم لا يرون إحسانك ولا يشكرون إخلاصك ، يخلفون وعدك ويخفرون ذمتك . . . وليس ينبغى لك أن تعدل عن منهج من نصحك ، وإيثار من آثرك إلى من يجهل موضعك ويضيع حسن سعيك . . . فلما وقف الاخشيد على الكتاب احتج إلى الرسول بانه لا يقرأ ولا يكتب ، ولا يجوز له أن يبوح بما فى نفسه إلى كاتب إذ كان الصواب يقتضى ذلك ثم ، قال للرسول اذهب وأنا اتدبر الجواب واجيب عنه ويصل مع من

اثق به واسلك من حسن الموالاة ما لم يكن غيرى يسلكه .

وبينا هو يرسم الخطة التى يخاطب القائم على مقتضاها بلغه أن محمد بن رائق فسد ما بينه وبين الاخشيد ، وأنه سائر الى أعماله بمصر والشام ، وقد سار من العراق ووصل إلى الرملة وأن الراضى قلده

عند ذلك اغتاظ وكتب الى خليفته ببغداد وهو ابن العجمى ليخبر الراضى بمسير ابن رائق ، فان كان أمير المؤمنين قلده سلمت له ، أو يأمرنى بالقتال فأنى قد صالحته وأرضيته ومارضى ، فدخل على الراضى واخبره ـ (وبجكم بين يديه) ـ وقال له : والأعمال اعمالك يا أمير المؤمنين ، فمر عبدك الاخشيد بما يكون عمله بحسبه ، فما نطق الراضى بحرف ، فقال بجكم : من ضرب بالسيف وهزم صاحبه فالعمل له ، فكتب ابن العجمى الى الاخشيد بذلك لوقته ، فصرع الاخشيد وثارت به السوداء كعادته ، واستدعى الخطيب وقال له : إذا كان يوم الجمعة فأتم الدعوة الى أبى القاسم صاحب المغرب واسقط الدعوة للراضى وقال : قد تأذيت بالراضى وبهذا الصبى ابن رائق ، وكتب الاخشيد الى القائم يعرض عليه ابنته لابنه المنصور، فكتب إليه قد قبلنا ما بذلت وهى وديعة لنا عندك وقد منحناها من بيت مالنا عندك مائة الف دينار فتوصلها إليها .

ثم وصلت الاخبار بعودة ابن رائق الى الرملة فتجهز الاخشيد وسار ، وراسل ابن رائق فلم يجد فيه حيلة ، وعسكرا جميعا بالعريش ، ثم التقى الجمعان فانتصر ابن رائق اولا ، وكان الاخشيد قد عبأ مراكب فى البحر ليلحق بالروم أو بالغرب ، فلما اطمأن ابن رائق هجم عليه الاخشيد فى عدده وعدده وكبسهم فى الخيام ، وقتل من قتل وأسر من أسر ، وكان أهل مصر قد علموا بهزيمة الاخشيد الاولى فاضطربوا ، فلما ورد عليهم الخبر

بالانتصار ، ودخلت الأسرى مصر ، وكانوا نحو خمسمائة ، زينت الاسواق ، وطيف بالاسرى فى المحامل على الجمال ، وفر ابن رائق الى دمشق وسار الاخشيد إلى غزة ثم عبأ العساكر وجعل عليها اخاه ابا نصر الحسين بن طغج وأسرى ابن رائق ليلا من دمشق والتقى العسكران بالرملة ثانية فانهزم جيش الاخشيد ، وقتل ابو نصر ، واسر جماعة من القواد وسيروا الى دمشق غير ان ابن رائق اخذ جثة ابى نصر وغسله وكفنه وحنطه وجعله فى تابوت وأنفذه الى الاخشيد واعتذر ، وانفذ ابنه مزاحم بن محمد بن رائق وسنه يومئذ ١٧ سنة ، وانفذ معه طاهر بن الحسين ، وقال له اقتص ، وبلغ ذلك الاخشيد فأرسل يرده من الطريق فلم يفعل ، ووصل مزاحم الى الاخشيد وهو بارض فلسطين ، فاكرمه ورفعه ، وسأله الجلوس فلم يفعل ووقف بين يديه ، وقال أمرت بهذا ، فلما اراد الانصراف حمله على فرس بحلية ذهب ورده مع ابن طاهر الى ابيه وزوج الاخشيد ابنته فاطمة من مزاحم وتولى الكتاب بذلك ابن طاهر ثم سفر بينهما فى الصلح وقرر الامر (١) على ان للاخشيد من الرملة الى مصر ، وما خلفها لمحمد بن رائق (٢) وعلى ان يحمل الاخشيد الى ابن رائق سنويا ١٤٠ ألف دينار (٣) وعلى ان يرد كل منهما الاسرى (٤) وعلى أن يكون عبيد الله بن طغج عند ابن رائق وان يكون مزاحم عن الاخشيد ، وعاد ابن رائق الى دمشق والاخشيد إلى مصر يتألفه بذلك كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم من اعطاء المؤلفة قلوبهم من غنائم حنين . وكان ذلك فى المحرم سنة ٣٢٩.

ثم ورد فى شعبان على الاخشيد كتاب بوفاة الراضى وجلوس أخيه ابراهيم بن جعفر المتقى فدعا له ، وفى شوال ورد كتاب المتقى باقرار الاخشيد ، ثم وردت عليه الخلع من قبله ، فركب الى المسجد الجامع ولبسها

ولى عهده ، فاقره الخليفة على ما عهد له أبوه ، وكان المدبر لدولة كافور فكان يطلق لانوجور فى كل سنة اربعمائة ألف دينار ويتصرف فيما بقى من إيراد الدولة ، وأخذ يتصرف فى عمال البلاد واعمالها ، وتم ذلك كله بدمشق ، ثم خرج انوجور ومعه كافور إلى مصر فدخلها بعساكره وأقام بها مدة ثم خرج إلى الشام لمقاتلة سيف الدولة بن حمدان لانه أغار على دمشق وملكها وتوجه نحو مصر حتى وصل إلى الرملة ، فالتقى مع المصريين فكان بينهما وقعة هائلة انكسر فيها سيف الدولة وانهزم إلى الشام وتبعه المصريون الى حلب فانهزم الى الرقة ، ثم استقر الأمر على الصلح ، على أن يعود الى سيف الدولة ما كان بيده من حلب وغيرها ، وعاد أنوجور الى مصر ودام على أمرتها سبع سنين الى أن وقعت بينه وبين كافور وحشة فى سنة ٣٤٣ ، سببها أن قوما كلموا أنوجور وقالوا له ، قد احتوى كافور على الاموال وانفرد بتدبير الجيش وأخذ أموال ابيك وانت معه مقهور — وحملوه على التنكر ، فلزم أنوجور الصيد وانهمك فى اللهو ، ثم اجمع المسير الى الرملة فاعلمت أمه كافورا بما عزم عليه ولدها خوفا عليه من كافور ، فراسله ، وبعثت امه اليه تخوفه الفتنة فاصطلحا ودام أنوجور على حاله فلم يزل كذلك حتى مات فى ذى القعده سنة ٣٤٩ وحمل الى القدس فدفن هنا لك مع أبيه الاخشيد وكانت مدة ولايته أربع عشرة سنه

على بن الاخشيد

٣٤٩ — ٣٥٥

وهو الامير على بن الاخشيد محمد بن طغج ، ولى سلطنة مصر بعد موت اخيه أنوجور فى ذى القعده سنة تسع وأربعين وثلثمائة ، أقامه خادمه كافور

الاخشيدى الخصى باتفاق حواشى والده والجند، وأقره الخليفة المطيع على ذلك وصار كافور وهو القائم بتدبير مملكته والمتصرف فيها كما كان أيام أنوجور، وجمع له هذا الخليفة ما كان لابيه وأخيه من أعمال الديار المصرية والممالك الشامية والثغور والحرمين الشريفين ، وأطلق كافور للامير ما كان يطلقه لاخيه ، وقويت شوكة كافور أيام على هـذا حتى كانت الدولة له بالفعل ولعلى بالاسم الى سنة ٣٥١ ثم اضطربت أحـوال مصر بسبب المغاربة اعوان الفواطم الواردين من المغرب ووقع الغـلاء وعز وجـود القمح ، وورد القرمطى الى الشام سنة ٣٥٢ وعجز المصريون عن دفعة لشغلهم بالغـلاء والمغـاربة ، ومع هذا قصر النيل عن الوفاء فزاد البلاء وتضاعفت الفتن ، وسار ملك النوبة الى اسوان وامعن الى اخميم وقتل ونهب وسبي واحرق ، وعظم اضطراب العمال فى مصر اعـلاها واسفلها ، ثم فسد ما بين على وكافور ، فمنع الثانى الناس من الاجتماع بعلى حتى اعتل بعلة أخيه ومات فى المحرم سنة ٣٥٥ وحمل الى القدس حيث دفن هنالك مع ابيه واخيه .

وبقيت مصر بعده اياما بغير امير وكافور يدبر امرها على عادته مع اولاد الاخشيد ومعه جعفر بن الفرات ـ وكانت مدة على خمس سنوات .

كافور الاخشيدى

٣٥٥—٣٥٧

هو كـافور بن عبد الله الاخشيدى الاسود الخصى الخادم الملقب بأبى المسك ، صاحب مصر والشام ، اشتراه محمد بن طغج بثمانية عشر دينارا ورباه واعتقه ، ثم ادخله فى خدمة دولته ورقاه حتى صار من كبار قواده لما رأى من حزمه وعقله وحسن تدبيره .

ولما مات الاخشيد سنة ٣٣٥ تولى تدبير الدولة لانبائه واحدا بعد آخر كما سلف ، فولىّ أنوجور ثم اقام أخاه الحسن ، ودخل فى أيام ولا يتهما فى ضمان البلاد مع الخليفة المطيع وأصلح امرهما معه والتزم بامر مصر ثم عاد فاصلح أمورها منفردا غير منازع حتى مات أنوجور فاخوه على ، وعند ذلك استقل بالامر وخطب له على المنابر

وكان شجاعا مقداما جوادا ، قصده المتنبى ومدحه فاغدق عليه إلى أن مال نحو فاتك الرومى الاخشيدى (وكان طائشا يكرهه كافور فى الباطن ويخشاه) فمدح فاتكا فحقد كافور على المتنبى من جراء ذلك وخشى المتنبى عدوانه ، ففر إلى العراق وأخذ يهجو كافورا بعد أن اطال فى مدحه ، ثم فر من العراق مغاضبا سيف الدوله ودخل مصر واخذ يمدح كافورا فكانت أولى مدائحه فيه قصيدته التى يقول فيها

قواصد كافور توارك غيره ... ومن قصد البحر استقل السواقيا

ويقول فى غيرها

وأخلاق كافور اذا شئت مدحه ... وان لم اشأ تملى علىّ فاكتب

ويقول فى ثالثة

وان مديح الناس حق وباطل ... ومدحك حق ليس فيه كذاب

وله فيه مع دلك اهاج كثيرة منها داليته التى يقول فى آخرها

من علم الاسود المخصى مكرمة ... اقومه البيض ام اباؤه الصيد

أم اذنه فى يد النماس دامية ... أم قدره وهو بالفلسين مردود

إلى أن يقول

وذاك أن الفحول البيض عاجزة عن الجميل فكيف الخصية السود

ولم يعبه كما ترى بشيء من خلقه، ولا عيره بأمر كان منقصة وفي مقدوره أن يقلع عنه، وإنما وصفه بما لا حيلة له في إيجاده ولا في إعدامه، فقد كان كافور دينا كريما شجاعا عظيم الحرمة، زاد ملكه على ملك مولاه الاخشيد، وكان له نظر في العلم والادب، وكان يتهجد ويمرغ وجهه ساجدا ويقول: اللهم لا تسلط علي مخلوقا، وكان عاقلا سيوسا وداهية فطنا: يهادي المعز صاحب المغرب وصاحب اليمن، ويذعن بالطاعة لبني العباس، ويخدع ويداري هؤلاء وهؤلاء، ولكن بالتأمل ترى أن مركزه بين العباسيين والفاطميين كان خطرا عليهما معا، ولعله استثمر هذا المركز في تهديد أحد الجانبين بالانضمام إلى الآخر اذا ما بدا منه ما يكره كما كان يفعل امير الافغان قبل الحرب العظمى، مع انجلترة والروسيا — وكان مجلسه في كل ليلة ناديا تلقى فيه محاضرات في السير وأخبار الاول وبخاصة أخبار الامويين والعباسيين وكانت حاشيته غالبا من خيار الناس وعلمائهم، وكان وزيره جعفر بن الفرات، ولم يبلغ احد من الخدام ما بلغ كافور — فقد تم له ملك مصر والحرمين ولبس الخلع وطوق وسور — واقام كانه ملك مستقل في البلاد سنتين واربعة أشهر، وعاش بضعا وستين سنة، وتوفى سنة ٣٥٧ وحمل تابوته الى بيت المقدس فدفن هناك، بعد أن خطب (على منابر مصر والشام والحجاز)

احمد بن على الاخشيد

هو احمد بن على بن محمد بن طغج، ولى سلطنة مصر بعد موت مولى جده

كافور الاخشيدى فى ٢٠ من جمادى الاولى سنة ٣٥٧ وهو يوم موت كافور ، وسنة يوم ولى إحدى عشرة سنه ، وصار الحسن أو الحسين بن عبيد الله بن طغج — أى ابن عم أبيه — خليفته ، وأبو الفضل جعفر بن الفرات وزيره، فأساء ابو الفضل السيرة ، وقبض على جماعه وصادرهم ، منهم يعقوب بن كلس ، وكان يهوديا من أهل بغداد ثم انتقل إلى الرملة وعمل سمسارا ، فانكسر عليه مال فهرب إلى مصر وتاجر لكافور فرأى منه فطنة ، فقال لو أسلم لصلح للوزارة فأسلم ، فلما قصده أبو الفضل هرب إلى المغرب فكان من أهم أسباب حركة المعز وارسال جوهر القائد إلى الديار المصرية ، ثم ترقى ابن كاس فى عهد المعز إلى أن ولاه الوزارة ، فاستقامت أمور العزيز بتدبيره إلى أن مات سنة ٣٨٠ فصلى الله عليه العزيز ودفنه فى قبة دار كان العزيز بناها لنفسه ، واغلق الدواوين بعده أياما ، وقيل انه كان حسن اسلامه وقرأ القرآن والنحو ، وكان يجمع العلماء والفضلاء ، ولما مات خلف شيئا كثيرا ، ورثاه نحو مائة شاعر

عود — ولما زاد أمر ابن الفرات اختلف عليه الجند واضطربت أمور الديار المصرية ثم قدم الحسن بن عبيد الله بن طغج من الشام منهزما من القرامطه ، وكان صاحب الرملة من بلاد الشام دخل على ابنة عمه وحكم بمصر وتصرف ، وقبض على ابن الفرات وصادره وعذبه ثم سار إلى الشام

وبعد ذلك بمدة يسيرة دخل جوهر مصر وارسل ابن فلاح إلى الشام فاسر الحسن وسيره إلى مصر مع جماعة من الامراء الى جوهر القائد ، وكان الحسن قد اساء إلى أهل مصر فى مدة ولايته عليهم ، فلما وصلوا إلى مصر

تركوا وقوفا مشهورين مقدار خمس ساعات والناس ينظرون اليهم ، وشمت بهم من في نفسه منهم شيء ، ثم انزلوا إلى مضرب القائد ، وجعلوا مع المعتقلين من آل الاخشيد ثم ارسلهم جوهر مع ابنه جعفر إلى مولاه المعز ، وحملوا في مركب النيل وجوهر ينظرهم ، وانقلب المركب فصاح الحسن على القائد يا أبا الحسن ، أتريد ان تغرقنا ؟ فاعتذر اليه واظهر التوجع ونقلوا إلى مركب آخر

وتروى قصة انقراض الاخشيديه من وجه آخر ، وهو : ان الجند لما اختلفوا على أبي الفضل وطلب منه الاتراك الاخشيدية والكافورية مالا قدرة له عليه من المال ، قاتلوه ونهبت داره ودور جماعة من خواشيه ، ثم كتب جماعة منهم إلى المعز العبيدى بالمغرب يستدعونه ويطلبون منه انفاذ العساكر إلى مصر ، وفي اثناء ذلك قدم الحسن بن عبيد الله بن طغج منهزما من القرامطه ، ودخل على ابنة عمه ، وقبض على أبي الفضل لسوء سيرته ولشكوى الجند منه ، فعذبه وصادره ، وتولى تدبير مصر بنفسه ثلاثة اشهر ثم اطلق ابا الفضل وفرض اليه أمر مصر ثانيا — كل ذلك واحمد بن على ليس له من الامر إلا مجرد الاسم فقط — ثم سافر الحسن الى الشام ، وبعد مدة يسيرة وصل الخبر بمسير عسكر المعز صحبة جوهر القائد ، الى مصر ، فجمع الوزير ابو الفضل انصاره واستشارهم فيما يعتمد ، فاتفق الرأى على أمر فلم يتم ، وقدم جوهر الى الديار المصرية بعد امور تذكر وزالت دولة بنى الاخشيد من مصر ، وانقطع الدعاء منها لبنى العباس

وكانت مدة دولة الاخشيد وبنيه بمصر اربعا وثلاثين سنة ، منها دولة

احمد بن علي هذا وقد استمرت سنة واحده وثلاثة أشهر ، والملك لله وحده ، يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء

أما بعد ففي تسيمة الطولونية والاخشيدية دولة ، مبالغة في أن امورهما كانت تجري على سنن خاص كالبلاد المستقلة استقلالا داخليا الآن ، فان طولون واولاده من بعده وكذا ابن طغج ومن ولي بعده كلهم كانوا ولاة يوليهم الخليفة أو يقرهم ، ويدفعون له الخراج ، وما كان من قطع ابن طولون الخراج إنما كان لظرف استثنائي وهو الخلاف الذي نشأ بينه وبين الموفق طلحة أخي الخليفة المعتمد ، وصاحب أمره كله ، وقد تحدى ابن طولون وعمل على عزله بالقوة ، فمكن ابن طولون من أن يجند ويبني الحصون ويستعد للدفاع ، ويقال انه كان في أثناء ذلك يرسل الخراج سرا الى المعتمد ، ثم أن هذا الخليفة انتهز فرصة اشتغال الموفق بالزنج وكتب إلى ابن طولون بانه قادم عليه ملتجئا وخرج متوجها نحو الرقة ، فلما علم الموفق عمل عليه حتى عاد إلى سامرا ووكل به جماعة ، وعقد لبعض القواد على مصر ، فعلم ابن طولون فجمع مجلسا بدمشق وخلع الموفق من ولاية العهد ولعنه على المنابر ، وعجز الموفق عن أخضاعه فامر هو أيضا بلعن ابن طولون على المنابر

وقد اتفق لابن طغج مع الخليفة المتقي ما حصل لابن طولون مع المعتمد كما علمت ، ولو أطاع المتقي وذهب مع ابن طغج إلى مصر لكانت مصر مركزا للخلافة العباسية مكان بغداد

وقد امتاز ابن طغج بان الخليفة منحه لقب اخشيد تشجيعا له على ما كان منه في خدمة الدوله والملة ، وقد علمت انه لما حصل من ابن رائق ما حصل

من تكرر عدوانه على الاخشيد ، قطع الدعوة للخليفة العباسى ، ولكنه لم يستقل كابن طولون ، بل دعا للقائم الفاطمى وكاتبه وصاهره ، فوضع بذلك أول لبنة فى بناء الدعوة للفواطم بمصر ، (إذ انهم كانوا كلما أغاروا على هذه البلاد تركوا من دعاتهم من ينشر الدعوة بين أهليها سرا) ، ولكن أمر الصهر لم يتم إذ تحول الى ابن رائق بعدما كان بينه وبين الاخشيد من صلح ، فتوترت العلاقات بين الاخشيد وبين الفواطم ، فكان هذا من العوامل التى حركتهم لغزو مصر حتى تم لهم فتحها

وإذ قد جرى ذكر بنى حمدان فى اثناء الاخشيدية فلنذكر هذه الكلمة:
آل حمدان من ربيعة ، وسيف الدولة على ، هو كبيرهم وأميرهم ، وواسطة عقدهم ونصيرهم ، وأخوه ناصر الدولة الحسن ، ووالدهما أبو الهيجاء عبدالله بن حمدان ، كان تولى أمارة الحاج من جانب الخلفاء العباسيين وقتل بعد ذلك ، ثم أن الراضى بالله العباسى (أو المتقى) جعل للأخوين المذكورين القابا سلطانية ، فجعل لعلى : سيف الدولة ، وجعل للحسن : ناصر الدولة ، واعطى سيف الدولة حلب وما يتبعها إلى آخر بلاد حمص والى حدود الموصل والى جوانب جيحان ، واعطى ناصر الدولة الموصل وما يتبعها ، وكان ناصر الدولة اكبر سنا ، ولكن كان سيف الدولة اعظم شأنا واثقب ذهنا ، وقد اتسع ملك سيف الدولة حتى ملك دمشق فى زمن كافور ، وكان كثيرا ما يغزو الروم ، وكانت حضرته محط الرحال ومنهل أرباب الكمال ، وكان شاعره المتنبى وكاتبه الامير كشاجم ، وخطيبه ابن نباته ، وسرداره أبو فراس ، ومن قول المتنبى فيه

لا تطلبن كريما بعد رؤيته		أن الكرام بأسخاهم يدا ختموا
ولا تبال بشعر بعد شاعره		قد أفسد القول حتى احمد الصمم

وكان بنو حمدان شيعة لكن تشيعهم كان خفيفا ولم يكونوا كبنى بويه سبابين للصحابة لعانين

ولنبين ما كان من نشوء دولتهم باختصار

يتصل نسب جدهم أبو شجاع بويه إلى واحد من ملوك الفرس ويترقى إلى يهودا بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم الخليل صلوات الله عليه ، وليسوا من الديلم ؛ وإنما سموا بالديلم لانهم سكنوا بلاد الديلم ؛ وقد ظهرت دولتهم حتى استولوا على الخلافة العباسية ، وصار لهم تولية الخليفة وعزله كما كان للموالى من الاتراك

وكان لبويه ثلاثة من الاولاد وهم عماد الدولة على ؛ وركن الدولة الحسن ؛ ومعز الدولة أحمد ؛ لقبهم بهذه الالقاب الخليفة المستكفى سنة ٣٣٤ أى فى السنة التى مات فيها محمد بن طغج ، وضرب القابهم على السكة ، وأول من ملك منهم معز الدولة وهو الذى خلع المستكفى وسمل عينيه وولى من بعده المطيع الذى جعل بختيار بن معز الدولة أمير الامراء ولقبه عز الدولة وخلع عليه وعقد له لواء . وظل معز الدولة سلطانا فى بغداد إلى أن مات فى السنة الثانية من ولاية كافور الاخشيدى على مصر وهى سنة ٣٥٦ وتولى بختيار سلطنة العراق من بعده

وعلى سبيل الاستطراد نذكر هذه الكلمة على صاحب الزنج

ظهر فى أيام المعتمد وأخيه الموفق طلحة رجل فاضل فصيح لبيب زعم

إنه من آل البيت واستمال العبيد من الزنج بالبصرة ونواحيها وعظم شأنه وقويت شوكته وانتصر فى غزواته وانبث عسكره فى البلاد العراقية والبحرين وهجر ، ونهد إليه الموفق فالتقيا بين البصرة وواسط ودامت الحرب بينهما سنين ، أقام كل من الفريقين يرابط الفريق الآخر إلى ان كانت الغلبة للجيش العباسى فابادوهم قتلا واسرا وقتل صاحبهم وحمل رأسه إلى بغداد فى يوم مشهود ، وقيل أن عدد قتلى الفريقين كان الفى الف وخمسمائة الف إنسان

أسئلة

(١) تجمع بين ابن طولون وابن طغج جامعة نسب ، فهل هما فى الحسب كذلك ؟ بين هذا ثم اذكر كيف وصل آباؤهما إلى بغداد

(٢) دخل ابن طولون وابن طغج مصر وتمكن كل منهما فيها وورث أبناءه من بعده ولايتها ، فهل كان دخولها فتحا وانتزاعا لمصر من العباسية ؟ اشرح ذلك

(٣) كان لابن طغج وابن طولون أحوال متماثلة من جهة علاقتهما بالخليفة العباسى فى وقته، بين كيف كان ذلك ؟

(٤) كان لابن طولون وابن طغج عوامل اعتمد كل منهما عليها فى تقوية أمره بمصر ، بين كيف كان ذلك ؟

(٥) كان كافور الاخشيدى مع بنى طغج من بعده ، كما كان الموالى من الاتراك أيام نفوذهم مع الخلفاء العباسيين ، اشرح هذه القضية .

ولعله أراد بهـــذا المنع الاستمرار فى حياطة تعاليم الشيعة حتى تثبت وتؤلف ، بدليل أنه بعد عشر سنوات من هذا المنع رخص لأهل السنة فى التراويح وفى الضحى وفى التكبير على الجنائز بخمس لمن يرى التخميس وبأربع لمن يرى التربيع ، وأباح لمن يؤذن بحى على خير العمل أن يؤذن بما كان يؤذن به قبل تحريمه ، ونهى عن سب السلف وغير ذلك مما هو من رسوم الشيعة

وواضح أنه إنما أباح ما كان قد حرم ، حينما رأى أن تعاليم الشيعة قد تبوأت مكانتها فى مصر وأصبحت لاخطر عليها

(وقد بلغه أن جماعة من الروافض تعرضوا لأهل السنة بالرجم وهم يؤدون التراويح فكتب سجلا قرىء على المنبر بمصر بدأه بقول الله تعالى: لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى...الآية ، وختمه بقوله تعالى : يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ... الآية)

أما أنه ادعى الألوهية ؛ وما يرمى به من الكفر ، وصدور السجلات باسقاط الصلوات ، فغير صحيح ولا يقوله ذو عقل. ولو صدر من الحاكم بعض ذلك لقتل لوقته ، فمذهبهم فى الرفض معروف محدود . ولعل ذلك من مبالغة بعض المتزلفين فى احترامهم والمغالاة فى مدحهم فقد قال فيهم شعراؤهم شيئا كثيرا ومنه مايعتبر كفرا صريحا

لا نريد بهذا أن نبرىء الحاكم من قبيح نسب إليه ، أو نبرره من جبروت كان منه (كلا ، ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى) وقديما قال فرعون (أنا ربكم الأعلى)

ولكن نريد أن نتلمس شيئاً نعلل به ما ربما كان من مقاصده في أوامره ونواهيه ، فلقد كان عيبه الوحيد فيها أنه لا يذكر الاسباب . وربما كانت وجهته في ذلك أن يرى هل يطيعه الشعب الطاعة العمياء التي تجب لمثله ، وقد كان من جراء هذا الجبروت أن القصاصين ألصقوا به سيئات قد يكون بعيداً عن اقترافها ، فحكوها عنه في طريق التدليل على سخفه وحمقه وإبرازه للناس في صورة تنفر منه ومن شيعته

الظاهر لإعزاز دين الله

هو أبو هاشم أو أبو الحسن على بن الحاكم بأمر الله المصرى المولد والمنشأ والوفاة ، الرابع من خلفاء مصر من بنى عبيد ، ولد فى رمضان سنة ٣٩٥ ، وولى الخلافة بعد قتل أبيه الحاكم فى شوال سنة ٤١١ على الصفة التى بيناها ، قيل : كانت ولايته بعد أبيه بمدة لأن أباه فقد فى شوال وكان الناس يرجون ظهوره ويتبعون آثاره إلى أن تحققوا عدمه ، فأقاموا الظاهر هذا يوم عيد النحر

ولصغره قامت عمتـــه ست الملك بتدبير مملكته وأحسنت كل الاحســــان ، فبذلت العطاء فى الجند وساست الناس سياسة رشيدة أربع سنوات ثم ماتت ، وعمر الظاهر نحو إحدى وعشرين سنة

وكانت مملكة الظاهر مصر والشام والمغرب فاستقامت له كل المدة ، وكان عاقلا جوادا يميل إلى دين وعفة وحلم وتواضع ، أزال الرسوم التى جددها أبوه الحاكم إلى خير ، وعدل فى الرعية وأحسن السيرة . وأعطى الجند والقـــواد الأموال وولى نوابه البلاد الشامية ، ولا بأس به بالنسبة لآبائه وأجداده إذ كان لا يدعى دعاواهم فى معرفة النجوم وغيرها من الأشياء المنكرة ، قيل إن رجلا ممن استغواهم الحاكم أبوه وأفســـد عقائدهم وثب إلى الحجر الأسود بالبيت الحرام وضربه بدبوس حتى شعثه وكسر قطعا منه ، وذلك سنة ٤١٦ فعاجله الناس وقتلوه ثم ثار المكيون بالمصريين فقتلوا منهم جماعة ونهبوهم ، فلما بلغ الظاهر ذلك شق عليه وكتب كتابا فى هذا المعنى على لسان المصريين ، ومما جاء فيه:

(وذهبت طائفة من النصيرية ـ فرقة من غلاة الشيعة ـ إلى الغلو في أبينا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضوان الله عليه ، غلت وادعت فيه ما ادعت النصارى في المسيح ، ونجمت من هؤلاء الكفرة فرقة سخيفة العقول ضالة بجهلها عن سواء السبيل ، فغلوا فينا غلوا كبيرا ، وقالوا في آبائنا وأجدادنا منكرا من القول وزورا ، ونسبونا بغلوهم الاشنع ، وجهلهم المستفظع إلى مالا يليق بنا ذكره ..... وقد علمتم يامعشر أوليائنا ودعاتنا ما حكمنا به من قطع دابر هؤلاء الكفرة الفساق والفجرة المراق ..... وكان من جملة من دعاه الخوف منهم إلى الانتزاح ، رجل من أهل البصرة أهوج أثول ضال مضل ، سار مع الحجيج إلى مكة حرسها الله ، فرقا من وقع الحسام ، وتسترا بالحج إلى بيت الله الحرام ، فلما حصل في البيت المفضل المعظم ، والمحل المقدس المكرم ؛ أعلن بالكفر وما كان يخفيه من المكر وحمله لمم في عقله على قصد الحجر الأسود ...... ولعمرى أن هذه لمصيبة في الاسلام قادحة ونكاية فادحة فانا لله وإنا اليه راجعون ......) إلى آخر ما قال مما يختلف في شيء كثير عن المعروف في أصول دعوات الشيعة.

وأهم الحوادث والظاهر تحت إشراف عمته : انه كان على حلب عند هلاك الحاكم فاتك الوحيدي ، وقد استفحل أمره وحدثته نفسه بالعصيان ، فلاطفته ست الملك وراسلته وآنسته وبعثت اليه بالخلع والخيل ولم تزل تعمل عليه الحيل حتى أفسدت غلامه بدرا وكان مالك أمره وقائد غلمانه ، فبذلت له العطاء الجزيل على الفتك به ووعدته أن توليه مكانه — وكان لفاتك غلام هندي فاستغواه بدر وقال له : قد عرفت من مولاك ملالك وتغير نيته فيك ، عزم على قتلك ندافعته عنك دفعات وأنا أخاف

عليك ، ثم تركه أياما ووهب له دنانير وثيابا ، ثم قال له : إن علم الأمير بنا قتلنا، وانتهى الأمر بينهما على قتله فى ليلة عيناها ودخلا عليه وقد ثقل فى نومه أو من سكره، فغمز بدر الغلام فضربه بالسيف وقطع رأسه فصاح بدر بالغلمان فقتلوا الهندى، واستولى على القلعة وما فيها وكتب إلى ست الملك بماجرى فاظهرت الوجد على فاتك فى الظاهر وشكرت بدرا فى الباطن وبعثت اليه بالخلع ووهبته جميع ماخلفه مولاه وقلدته موضعه

بهذا ومثله أعادت ست الملك إلى ابن أخيها غضارة دولته وعمرت الخزائن بالأموال واصطنعت الرجال ، وكانت عارفة مدبرة غزيرة العقل ، ولذلك ظل أمر الظاهر مستقيما مدة ، ثم انتقض عليه أمره لاقباله على اللهو وانغماسه فى الترف وشربه الخمر وترخيصه للناس فيه وتركه أمور الدولة - بعد أن كان ينظر فيها بنفسه - إلى ثلاثة من الرجال استأثروا بالظاهر حتى صار لا يدخل عليه أحد غيرهم إلا بأمرهم ، وكانوا يدخلون كل يوم خلوة ويخرجون فيتصرفون فى سائر أمور الدولة والخليفة مشغول بلذاته ، وحصل أن الغلاء اشتد فى أيامه لنقص النيل وعزت الأقوات وفشت الأمراض وكثر الموت فى الناس وتحدث زعماء الدولة بمصادرة التجار فاختلف بعضهم على بعض وتحاسدوا وكثر ضجيج العسكر من الفقر فلم يجابوا واستعمل العبيد النهب حتى اتقاهم الناس بالخندقة عليهم ، وتفاقم الأمر وانقطع الحج واحتاج الظاهر إلى القرض ، فحمل بعض أهل الدولة اليه مالا وامتنع آخرون ومضت سنة ٤١٤ والناس على هذا الحال بمصر حتى انتهز بعض الولاة هذه الفرصة وأظهر الخروج والعصيان ، بل إن بعضهم زحف على مصر ووصل إلى الفرما كحسان بن الجراح وصالح ابن مرداس، بالبلاد الشامية — ويظهر أنهما استمرا على خروجهما واستوليا

على الأعمال هنالك إلى سنة ٤٢٠ حيث أغارا وانتهيا إلى غزة ، لكن الظاهر جهز لحربهما جيشـــا عليه أمير الجيوش منتخب الدولة التركى المعروف بأنوشتكين ، فالتقى معهما فانهزم حسان وقتل صالح وابنه الأصغر ؛ أما ابنه نصر فقد أفلت إلى حلب وملكها فطمع فيه صاحب انطاكية ولكن نصرا هزمه وغنم ماله وعسكره ، فسر الظاهر بنصره لكون الاسلام يجمع بينهما .

وفى شعبان سنة ٤٢٧ مات الظاهر وعمره نحو ٣٢ سنة وكانت خلافته نحو ١٦ سنة ، ومع أنه كان فى بعض الأحوال يخالف أهواءه ويظهر التدين فقد كان شغوفا فى كثير منها باللهو محبا للغناء ، فتأنق النـــاس فى أيامه بمصر واتخذوا المغنيات والرقاصات وبلغوا من ذلك مبلغا عظيما ، وقد اتخذ الظاهر حجرا للمماليك وعلمهم أنواع العلوم وسائر فنون الحرب واتخذ خزانة للبنود والأعلام الكبيرة ، وأقام فيها ثلاثة آلاف صانع وراسل الملوك واستكثر من شراء الجواهر

ولما وقع الفناء فى ذوات الأربع سنة ٤١٧ منع من ذبح البقر السليمة من العيوب التى تصلح للحرث وغيره ، وكتب على لسانه كتاب قرىء على الناس فيه : إن الله تعالى بتتابع نعمته وبالغ حكمته خلق ضروب الأنعام ، وجعل فيها منافع الانام ، فوجب أن تحمى البقر المخصوصة بعمارة الأرض المذللة لمصالح الخلق ، فان فى ذبحها غاية الفساد واضرارا للعبـاد والبلاد ، وأباح ذبح مالا يصلح للعمل ولا يحصل به النفع » فمنع النـــاس ذبح البقر وحصل بذلك النفع التام

ولكن الترف الذى ساد فى أيامه زعزع أساس الدولة فظهرت أعراض الهرم ، ولم يتداركها بالعلاج الواقى من الفناء أو المبطىء بالانحلال من جاء

من بعده من الخلفاء

فقد بنى الظاهر ثانية مايسمى قصر اللؤلؤة وكان من أحسن القصور وأعظمها زخرفة ، وهو أحد متنزهات الدنيا ، يشرف من شرقيه على البستان الكافورى ، ومن غربيه على الخليج ،وكان الجالس فيه يرى أرض الطبالة وسائر أرض اللوق وماهو من قبليها ويرى نهر النيل من وراء البساتين العظيمة الممتدة غربى الخليج ـ وكان هذا القصر متنزها للظاهر ومن جاء من بعده من ذريته وأقاربه ، وصار الخلفاء منهم يقيمون به أيام مد النيل للنزهة فى حرمهم وخرسهم ، وقد مات به الآمر والحافظ والفائز ولما وفد نجم الدين على ابنه صلاح الدين بمصر أنزل بهذا القصر فسكنه إلى آخر حياته

المستنصر بالله

هو أبو تميم معد بن الظاهر ، الخامس من خلفاء بنى عبيد بمصر ، ولى الخلافة فى شعبان سنة ٤٢٧ بعد موت أبيه ، وكان ولى عهده من سنة ٤٢١ وكان عمره يوم ولى الخلافة سبع سنين ، ثم بقى فيها ستين سنة وأشهراً ، وخطب له بأمير المؤمنين على منابر العراق سنة ٤٥١ وإن كان المعز بن باديس حفيد بلكين بن زيرى والى إفريقية والمغرب قطع الخطبة له من سنة ٤٤٣ أوقبل ذلك وخطب لبنى العباس ،وخرج من طاعة بنى عبيد ، فلم تزل الدعوة للعباسيين هنالك إلى ظهور ابن تومرت الذى تلقب : بالمهدى فلما قام بعده عبد المؤمن قطع الدعوة لبنى العباس فى أيام المقتفى

و بالتأمل نرى أن المستنصر عاش سبعا وستين سنة ، ولم يل أحد

من الخلفاء الامويين ولا العباسيين ولا المصريين مثل مدته ؛ ولكن كانت فيها أنباء وقصص شنيعة بديار مصر ، وكان السب والرفض فيها فاشيا والسنة والاسلام غريبا ، والحرب والغلاء والوباء والقحط والفتن ، كل ذلك كان أشد ماعرف من نوعه ، وتوالى فى سنى خلافته شيء كثير لا يدخل تحت حصر من الاضطراب ، نذكر من أسباب ذلك : أنه فى سنة ٤٥٣ كثر صرف الوزراء والقضاة ولايتهم لكثرة مخالطة الرعاع للخليفة وتقدم الاراذل ، بحيث كان يصل اليه كل يوم ٨٠٠ رقعة فيها المرافعات والسعايات ، فاشتبهت عليه الامور وتناقضت الأحوال ووقع الاختلاف بين عبيد الدولة ، وضعفت قوى الوزراء عن التدبير ، لقصر مدة كل منهم وخربت الأعمال وقل ارتفاعها ، وتغلب الرجال على معظمها مع كثرة النفقات والاستخفاف بالامور ، وطغيان الأكابر إلى أن آل الامر إلى حدوث الشدة العظمى من سنة ٤٤٦ إلى سنة ٤٥٤ حيث اشتد الغلاء وفشا الوباء وعم الخراب وحدثت مع ذلك فتنة عظمى لا بأس من بيانها .

خرج المستنصر على عادته فى كل سنة على النجب مع النساء والخدم الى موضع خارج القاهرة ، فجرد بعض الاتراك — وهو سكران — سيفا على أحد عبيد الشراء فاجتمع عليه كثير من العبيد وقتلوه ، فحنق لقتله الاتراك وساروا بجمعهم إلى المستنصر ، وقالوا إن كان هذا عن رضاك فالسمع والطاعة وإن كان من غير رضا أمير المؤمنين فلا نرضى بذلك ، فتبرأ المستنصر مما جرى ، وأنكره ، فتجمع الاتراك لمحاربة العبيد ، وكانت بينهما حروب شديدة بكوم شريك ، قتل فيها عدة من العبيد وانهزم من بقى منهم ، فشق ذلك على أم المستنصر ، فانها كانت السبب فى كثرة العبيد السود بمصر ،

وذلك أنها كانت جارية سوداء فأحبت الاستكثار من جنسها ، واشترتهم من كل مكان ، وعرفت رغبتها فى هذا الجنس ، فجلبت الناس إلى مصر منهم ، حتى يقال إنه صار فى مصر اذ ذاك مايربو على خمسين الف عبد أسود — فلما كانت وقعة كوم شريك امدت العبيد بالأموال والسلاح سراً ، وكانت قد تحكمت فى دولة ابنها ، وحقدت على الأتراك وحثت على قتلهم مولاها أباسعد التسترى الذى استدنته ورقته درجة علية حتى انبسطت يده على الوزراء ، وأصبحوا يأتمرون بأمره ، ومن أجـــل ذلك كرهه الأتراك وكرههم واضطدهم فقويت شوكة العبيد بذلك ، واتفق أن الأتراك ظفروا بشيء من المـال والسلاح قدبعثت به أم الخليفة تمدهم به بعد تلك الموقعـة فاجتمعوا بأسرهم ودخلوا على المستنصر واغلظوا فى القول ، فحـــلف أنه لم يكن عنده علم ، وصار إلى امه ، فأنكرت مافعلت ، وخرج الاتراك فصـار السيف قائما ، ووقعت الفتنة ثانيا ، فانتدب المستنصر من أصلح بين الطائفتين فاصطلحا على غل ، وخرج العبيد إلى شبرا دمنهور ، فكان هذا أول اختلال الأحوال بمصر ، ودبت عقارب العداوة بين الفئتين إلى سنة ٤٥٩ ، فقوى الاتراك ، وضروا على الخليفـه وزاد طمعهم فيه ، وطلبوا منه الزيادة فى واجباتهم ، وضاقت أحوال العبيد واشتدت ضرورتهم ، وكثرت حاجتهم ، وقل مال السلطان واستضعف جانبه ، فبعثت أم الخليفـة إلى قواد العبيـد تغريهم بالاتراك فاجتمعوا بالجيزة ، وخرج اليهم الاتراك وكان مقـدمهم ناصر الدولة الحسن بن حمدان التغلبي ، وكان آخر من بقي من أبناء حمدان ملوك حلب ، وكان فى أول أمره نائبا للمستنصر بدمشق ثم أمره أن يتوجه إلى حلب لقتال العرب الذين استولوا عليها فانهزم هزيمة منكرة واستولى العرب

على أثقاله وعاد إلى مصر جريحا . فلما حصلت فتنة العبيد والترك قاد هؤلاء، وحصلت بين الفريقين وقائع ظهر فى آخرها الاتراك وهزموا العبيد إلى الصعيد، فعاد ابن حمدان إلى القاهرة وقد عظم أمره وقوى جأشه وكبرت نفسه، واستخف بالخليفة — ثم تجمع العبيد وأمرت أم الخليفة من بحضرتها منهم بالايقاع على غفـــلة بالأتراك ، فخرج ابن حمـدان إلى ظاهر القـاهرة وتلاحق به الاتراك وبرز اليهم العبيدوحاربوهم طويلا ، وحلف ابن حمدان لا ينزل عن فرسه حتى ينفصل الأمر ، إما له وإما عليه ، وجد كل من الفريقين فى القتال . فظهرت الأتراك وأخذوا فى القتل والأسر ، ثم سار ابن حمدان إلى عبيد الاسكندرية وحاصرهم حتى سـألوه الأمان .

ولما رأى الاتراك ذلك خرقوا ناموس المستنصر واستهانوا به واستخفوا بقدره ، واستنفدوا ما فى خزائنه من مال ، ثم بعثوا يطالبونه فاعتذر فـــلم يعذروه وقالوا : بع ذخائرك فلم يجد بدا من إجابتهم ، فباعوها بثمن بخس.

ثم سار ابن حمـدان إلى الصعيد ، فحصل بينه وبين العبيد حروب انهزم فيها الترك إلى الجيزة ، فاتهموا المستنصر بمباطنة العبيد وتقويتهم فأنكر ذلك وحلف عليه ، فاخذوا فى إصلاح شأنهم وساروا لقتال العبيد فكسروهم كسرة شنيعة ، وقتلوا منهم كثـــيرا ، وفر من بقى ، فذهبت شوكتهم وزالت دولتهم

وعاد ابن حمدان إلى القاهرة وقد كشف القناع قناع الحياء وجهر بالسوء للمستنصر ، واستبد بسلطة البلاد وجفا المستنصر ، فثقل مكانه من الاتراك . وفرغوا من أمر العبيد والتفتوا اليه وقد استبد بالأمور دونهم واستأثر بالأموال عليهم ففسد ما بينهم وبينه ، وشكوا منه إلى الوزير فأغراهم

به ولامهم على ما كان من تقويته ، وحسن اليهم الثورة به ، فصاروا إلى الخليفة ووافقوه على ذلك ، فبعث إلى ابن حمدان يأمره بالخروج من مصر (وبخاصة لأنه بلغه أن ابن حمدان قد اتفق مع بعض الأشراف الحسينيين وهو الشريف حيدرة بن ابراهيم على أن يقتل بدرالجمالى أمـــير الجيوش بدمشق ، فاذاتم له ذلك أقامه خليفة مكان المستنصر لنسبه الصحيح) ويهدده إن امتنع ، فلم يقدر على الامتناع ، لفساد الاتراك عليه ، وميلهم مع الخليفة، فخرج إلى الجيزة وانتهب الناس دوره ودور حواشيه ، فلما جن عليه الليل عاد سرا وترامى على بعض القواد وسأله النصرة فأجابه ؛ وأحدث فى الصباح فتنة ، فسارع ابن حمدان مستعدا للحرب ، فخرج الخليفة نفســـه واجتمع اليه الأجناد والعامة وكان بينهما حروب انتهت بهزيمة ابن حمدان ففر إلى الأسكندرية واتصل بجماعة من عرب البحيرة وتزوج منهم وتقوى بهم فصار يشن الغارة على أعمال مصر؛ والمستنصر لا يقدر على شىء من أمره من شدة الغلاء وقلة الأقوات وسوء الحال الذى نجم عن الحروب من نقص الأموال وكثرة النهب وقطـــع الطرق حتى أكل النـاس الجيف والميتات وهلك من أهـل مصر فى هذه الحروب والفتن مالا يدخل تحت حصر وامتد ذلك إلى سنة ٤٦٣

ثم جهز الخليفة العسا كر لقتال ابن حمدان فكسرها واحتوى على ما كان معها من سلاح وكراع ومال ، فتقوى به ، وقطع الميرة عن القاهرة ونهب أكثر الوجه البحرى وقطع منه الخطبة للمستنصر ، ودعا للخليفة القائم بأمر الله العباسى بالأسكندرية ودمياط ، واشتد الجوع ، وتزايد الموت بالقاهرة ومصر ، ومدت الأجناد أيديها إلى النهب ؛ فخرج الأمر عن الحد

ونجا أهل القوة بأنفسهم من مصر ، وساروا إلى الشام والعراق ، وخرج من خزائن القصر ما يجل وصفه ، فاضطر الأجناد لما هم فيه إلى مصالحة ابن حمدان ، بشرط أن يقيم فى مكانه ، ويرسل اليه مال مقرر ، وينيب عنه فى القاهرة ، فرضى وسير الغلال إلى القاهرة فسكن ما بالناس قليلا ، وسرعان ما وقع الخلاف بينه وبين نائبه وعادت الحرب فاشتد الكرب وعظم الغلاء وسار بن حمدان إلى القاهرة فملكها ، وامتنع الخليفة بالقصر ، فسير اليـــه رسولا يطلب المـال ، فوجد الخليفة قد جلس على الحصير بدل الديباج والحرير ، فبكى وعاد فأخبر ابن حمدان بما شاهد فكف وأطلق للخليفة فى كل شهر مائة دينار ، وامتدت يده وبالغ فى إهانة المستنصر ، وقبض على أمه وعاقبها أشد العقوبة ، واستصفى أموالها ، فحاز منها شيئاً كثيرا ، وتفرق عن المستنصر جميع أقاربه وأولاده من الجوع ، فمنهم من سار إلى المغرب ومنهم من سار إلى الشام والعراق سنة ٤٦٠ ، وبعد أيام اتفق إلدكز التركى وغلامه على قتل ابن حمدان فقتلوه ومن لف لفه سنة ٤٦٥ وجاءوا إلى قصر الخليفـــة ومعهم رءوس القتلى ، وقالوا قد قتلنا عدوك وعدونا ، ونريد الأموال ، فقال المستنصر : أما المال فما ترك ابن حمدان عندى مالا ، وأما ابن حمدان فما كان عدوى ، وإنما كانت العداوة بينك وبينه يا إلدكز ، فهلكت الدنيا بينكما إلى ما اخترت ما فعلت من قتله ولا رضيته وستعلم غب الغدر ونقض العهد ، ثم اضطر الخليفة مع ذلك إلى بيع شىء من متاعه وأرسله إلى إلدكز ، ثم رأى أن إلدكز سيحل محل ابن حمدان حتما ، فأرسل إلى بدر الجمالى فجاء وقبض على إلدكز وقتله ، وأخذ فى إصلاح أمور مصر أعلاها وأسفلها ، وقضى على الفتن وأسبابها ، وخلع عليه الخليفة خلعة الوزارة فلبسها سنة ٤٦٨ ، وإن

كانت منزلته قبل ذلك أجل من الوزارة ولكن لبسها حتى لا يترتب أحد فيها فينازعه - ولم يزل المستنصر مدة أمير الجيوش بدر ماجحا عن التصرف إلى أن مات بدر فى سنة ٤٨٧ فأقام العسكر من بعده فى الوزارة ابنه الأفضل شاهنشاه، فباشر الأمور يسيرا حتى مات المستنصر فى ذى الحجة من هذه السنة وانتهى من تلك الحياة الطويلة التى كانت مليئة بالهموم والاكدار والأهوال والشدائد، والتى آلت به وهو الخليفة إلى أن جلس على نخ، وفقد القوت، فلم يقدر عليه حتى كانت تتصدق عليه امرأة من الاشراف كل يوم بقعب فيه فتيت فلا يأكل سوى مرة فى اليوم، فسبحان من يذل من يشاء

أما بدر الجمالى فكان أرمنياً فاتكا جبارا شيعياً يؤذن بحى على خير العمل ويقتل علماء السنة والجماعة، وقد كتب سب الصحابة على الحيطان وكان من مساوى الدنيا

وهو الذى بنى جامع العطارين بالاسكندرية بعد أن فتحها وكان ابنه عصى عليه وتحصن فيها

وأما ابنه الأفضل فقد سار بعده فى الرعية سيرا حسناً لكنه عظم فى الدولة حتى صارت مكانته أضعاف مكانة أبيه

ومن هنا يتبين لك أن دولة الفواطم أصبحت لخلفائها بالاسم وللوزراء بالفعل، وأن هذا مع الحروب الداخلية والفتن والاستعانة بالترك والسودان دون من قامت بسيوفهم الدولة من العرب والبربر - كان من أهم العوامل فى هدم الدولة وضعفها إلى أن انقرضت باضافة عوامل أخرى مكنت نور الدين من تمهيد مصر لصلاح الدين على ماسيجىء

حديث الخطبة للمستنصر فى بغداد

أما وقد بينا ماكان من أحوال المستنصر فى خلافته وما أصابه من محن على طول مدته ، فانه لابد من بيان قضية الخطبة له فى بغداد ، وامتداد ملكه وسلطانه على حضرة العباسيين ، مما كان لا يخطر على بال أحد من أجداده على قوتهم وعلو شأنهم وذيوع صيتهم

كان الأمير أرسلان البساسيرى مقدما على الأتراك . خصيصا عند القائم ، لا يقطع أمرا دونه ؛ فتجبر وطغى ، حتى استوحش منه الخليفة سنة ٤٤٦ ، وكتب إلى طغرلبك السلجوقى سرا يستنهضه إلى المسير إلى العراق ، وكان بنواحى خراسان ، فلما دخل طغرلبك بغداد سنة ٤٤٧ هرب البساسيرى منها ، وكاتب المستنصر صاحب مصر وسارت الرسل بينهما

ثم انضم إلى ابراهيم أخى السلطان طغرلبك السلجوقى أول ملوك السلجوقية ببغداد بعد البويهية . وأخذ يطمعه فى الملك حتى خالف ابراهيم أخاه وساق العساكر إلى الرى ، فساق إليه السلطان جيشا والتقى الجمعان فانهزم السلطان إلى همدان فحاصره أخوه بها . وأرادت خاتون زوجة السلطان إنجاده بالجيش فخلت بغداد من الحماة واضطربت وقامت بها الفتن ، فكانت أحوالها موافقة أى موافقة لمأربه البساسيرى ، فدخل بغداد بالراية المستنصرية وعليها ألقاب المستنصر

وفرح بالبساسيرى أهل باب الكرخ من بغداد ، لأن التشيع والرفض يجمع بينهم جميعا وبين خلفاء مصر — من أجل ذلك انضموا إلى البساسيرى وانتقموا من أهل السنة

وكان أهل باب الكرخ قد غالوا فى سب الصحابة . ولم يك للخليفة

عليهم أمر ولانهى لما كان من ميل بنى بويه إليهم فى الباطن ، وكانوا لا يظهرون ذلك خشية الفتنة . وكانوا فى ذلك الوقت سلاطين بغداد وأصحاب الأمر والنهى فيها

ولما انضم أهل باب الكرخ إلى البساسيرى أعلنوا الاذان بحى على خير العمل فقام الخليفة العباسى (القائم) وانضم إليه أهل السنة . وفشت الحروب أربعة أيام، فتمت بذلك الفرصة للبساسيرى وأصحابه . وعبر بجنده إلى الجانب الشرقى من بغداد

واستعملوا النار والنهب حتى استجار القائم بأمير العرب قريش العقيلى فأجاره ، ونقل من داره فنهبها العامة، فلما كان يوم الجمعة لم تؤد الصلاة فى مسجد الخليفة ، وخطب للمستنصر بجميع المساجد سنة ٤٥٠ . وقطعت الخطبة للعباسيين بالعراق ، وهذا مالم يك يحلم به أحد من العبيديين

ثم اختلف البساسيرى وقريش على مصير القائم ، وانتهيا إلى أن يكون عند صاحب حديثة عانه إلى أن يقطعا فى شأنه ومصيره، فجمع حينئذ البساسيرى القضاة والاشراف ببغداد وأخذ عليهم البيعة للمستنصر ، فبايعوا قهرا . ومن العجب أن فريقا من أهل السنة كان يعاون البساسيرى ، لأنهم كانوا موتورين من موالى الأتراك .

ولما خطب للمستنصر فى بغداد وجاءت البشائر بذلك إلى مصر غنته مغنية بقولها

يابنى العباس صدوا ملك الأمر معد
ملككم كان معارا والعوارى تسترد

فطرب المستنصر لذلك ووهبها أرضا بمصر رزقا لها ، وهى أرض الطبالة؛ وهى تلك المرأة التى كانت تقف فى المواسم والأعياد وتسير أيام الموالد ونحوها وحولها طائفتها وهى تضرب بالطبل (أرض الطبالة الآن : بين الخليج المصرى والفجالة والظاهر)

عود — وركب البساسيرى يوم عيد الأضحى من سنة ٤٢٨ وعلى رأســـه الألوية المصرية وعبر إلى المصلى بالجانب الشرقى وأحسن إلى الناس . وأجرى الجرايات على الفقهاء ، ولم يتعصب لمذهب ، وأفرد لوالدة الخليفة العباسى دارا وراتبا ، وكانت قد قاربت التسعين

ولما بعث البساسيرى البشرى إلى مصر ،كان محمد بن جعفر المغربى وزيرا ، لهوكان ممنهرب من البساسيرى . فذم للمستنصر فعله وخوفه من سوءعاقبته ، فتركت أجوبته مدة ، وعادت على البساسيرى بغير الذى أمله . ومع هذا سار إلى واسط وإلى البصرة وخطب بهما أيضا للمستنصر وعاد إلى العراق وقد قل ماله فضعف بالضرورة،ولوأن المستنصر لم يتخوف منه وشجعه على ما أراد ؛ لتمت الدعوة للمستنصر بالعراق واستمرت زمانا طويلا ، فانه كان قدأمد البساسيرى بحمل مستكثره : من المال خمسمائة الف دينار ،ومن الثياب ماقيمتهذلك ، وخمسمائة فرس وعشرة آلاف قوس، ومن السيوف ألوف ،ومن الرماح والنشاب شىء كثير، ولودام المستنصر على عطائه للبساسيرى لافتتح له عدة بلاد ، ولذهب مذهب أهل السنة فى العراق صرخة فى واد ، وتملكها الرافضة بأجمعها كما تملكوا مصر، ولكن الله سلم — فان طغرلبك انتصرعلى أخيه إبراهيم وقتله وكر راجعا إلى العراق ، ليس له هم الا اعادة الخليفة إلى رتبته ،فظفر بالبساسيرى وقتلهشرقتله، واعاد

الخليفة القائم من حديثة عانة وأعيدت الخطبة باسمه ، وأبطل اسم المستنصر من بغداد والعراق، وكان ذلك فى آخر سنة ٤٥٠ وهى السنة التى انقرض فيها ملك بنى بويه من بغداد وحل محلها السلجوقية

هذا، وفى أيام المستنصر ملك الروم صقلية ، وكان بها وال بعث اليه المستنصر يطلب المال وكان عاجزا عنه ، فبعث إلى الروم وفتح لهم باب البلد فدخلوا وقتلوا وملكوا الجزيرة سنة ٤٦٣ ، وفى السنة التى قبلها ابطل صاحب مكة وصاحب المدينة خطبة المستنصر وخطبا للقائم العباسى ، فلم يلتفت المستنصر لذلك لشغله بنفسه ورعيته من عظم الغلاء ، ثم أعيدت اليه بمكة سنة ٤٦٧ وهى السنة التى مات فيها القائم العباسى الذى كان معاصرا للمستنصر ، وكلاهما مكث فى الخلافة مالم يمكثه غيره من آبائه وأجـــداده، فالقائم لبث خليفة ٤٤ سنة، والمستنصر ٦٠ كما علمت — وفى أيام المستنصر أغار السلجوقيون علي كثير من جهات الشام ، وكان بينهم وبين بدر الجمالى وقائع كانت تنتهى أحيانا باسترداد شىء منها ، كما أغار الروم أيضا على بعض الجهات

ولما مرض المستنصر جعل لابنه نزار ولاية العهد، لأنه أكبر أولاده ، ولكنه أراد أخذ البيعة له ، فتقاعد الأفضل ودافع المستنصر من يوم إلى يوم حتى مات، فبادر الأفضل بمبايعة أحمد بن المستنصر، ولقبه المستعلى بالله، وذلك بكرة يوم الخميس لاثنتى عشرة ليلة بقيت من ذى الحجة سنة ٤٨٧

المستعلى بالله

هو أحمد بن المستنصر، السادس من خلفاء مصر الفاطميين ، بويع بالخلافة فى ذى الحجة من سنة ٤٨٧، وسنه نحو عشرين سنة — وكان القائم بتدبير شأنه الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى

ولما مات المستنصر اجتمع بالأمراء والخواص وخوفهم من نزار بن المستنصر ولى العهد، وأشار عليهم بتولية أخيه احمد هذا، فرضوا ، فبادر باخراجه وبايعه ونعته بالمستعلى بالله ، وأجلسه على سرير الخلافة ، وجلس هو على دكة الوزارة ، وحضر قاضى القضاة والشهود معه ، وأخذوا البيعة على مقدمى الدولة ورؤسائها وأعيانها، ثم مضى إلى اخوى المستعلى الآخرين وأخبرهما بتمام البيعة للمستعلى فقالا : السمع والطاعة ، فكتب الافضل بذلك سجلا وقرىء بديوان الانشاء على الامراء

أما نزار فقد خرج مع أحد أخويه إلى الاسكندرية وعليها أفتكين التركى من موالى بدر الجمالى، فعرفاه الحال ، ووعده نزار بالوزارة ، فبايعه وبايعه أهل الاسكندرية ، واقبه أفتكين : ناصر الدولة ، وساعده قاضى الاسكندرية ابن عمار ، فتوجه الأفضل إلى الاسكندرية فهزمه أفتكين، ولكنه عاد فحشد ونازل الاسكندرية وفتحها عنوة، وقتل أعيانها واعتقل نزارا والوالى والقاضى ، ثم قتل القاضى وعاد بالوالى إلى القاهرة فقتله المستعلى بيده، ثم بنى على أخيه نزار حائطا فهوى تحته

وسبب العداء بين الافضل ونزار أنه خرج ذات يوم فى حياة أبيه فاذا الافضل راكب فصاح به: انزل ياأرمنى ياخبيث، فحقدها عليه الافضل وصار كل منهما يكره الآخر

حركة الصليبيين فى عصره

أول ماكان من حركة الصليبيين لأخذ سواحل الشام أنهم خرجوا فى حملتهم الاولى جماعات جماعات . واتفقوا على أن يكون اجتماعهم فى القسطنطينية فكان ، ثم عبروا الى الاناضول واخذوا نيقية حضرة سلاجقة الروم سنة ٤٩٠ . وفى السنة التى بعدها ساروا الى المعرة فأخذوها ثم رجعوا الى أنطاكية واستولوا عليها وقتلوا من أهلها وسبوا

ولما وقع ذلك اجتمع ملوك الشام من السلاجقة وحاصروا انطاكية حصارا شديدا ولكن الفرنج خرجوا اليهم مستقتلين ففرقوا جموعهم ، لأن هؤلاء الملوك لم يخلصوا الاسلام ولو أخلصوا اقضوا على الحملة الصليبية من أساسها . كل ذلك وعساكر مصر لم تتحرك للخروج - ويظهر أن الأفضل قنع بمصر . وخشى أن يخرج إلى الشام بالجند فيثور الرجعيون أصحاب نزار أوغيره ، فلا هو يملك الشام ولا تبقى بيده مصر . وشغلته مصر وأمورها عن الشام فملكها الفرنج ، ثم ندم ولات ساعة مندم

ثم أخذ الصليبيون بيت المقدس سنة ٤٩٢ . وكان منذ افتتحه عمر ابن الخطاب سنة ١٦ هـ لم يزل بأيدى المسلمين إلى هذه السنة ، وكان عليه وال من قبل المستعلى ، فحاصره أهل الصليب ، وقتلوا فى الحرم مائة ألف وسبوا مثلهم ، وأخذوا من المسجد الاقصى وقبة الصخرة قناديل الذهب والفضة والتنانير ، وأحدثوا من القبائح ما أحدثوا ، وكتبوا إلى البابا يقولون : إذا أردت أن تحيط علما بما أحدثنا فى الاعداء ، فتأكد أن خيولنا بين هيكل سليمان ومعبده كانت تخوض فى دمائهم إلى ركبتيها

ولما بلغ الأفضل ان الفرنج ضايقوا بيت المقدس خرج فى عشرين ألفا

و جد فى السير حتى وصل إلى القدس بعد فتحه بيوم ولم يعلم بذلك، فقصده الفرنج وقاتلوه ولم يثبت لهم، ودخل عسقلان فتبعوه واحرقوا ما حول عسقلان وعادوا، وعاد الأفضل إلى مصر، واستمر بيت المقدس فى أيديهم إلى أن فتحه صلاح الدين . واستمروا يغزون بلاد الشام حتى استولوا على ساحله برمته، وأسسوا لهم خمس إمارات جعلوا بيت المقدس واحدة منها، وانتخبوا جدفرى دوق اللورين ملكا عليها، فاكتفى بلقب قبر حامى المسيح.

هذا ما كان من المصائب أيام المستعلى وقد مات فى سنة ٤٩٥ وله ٢٧ سنة، وقد لبث فى الخلافة سبع سنين وليس له من الأمر شىء وكانت مملكته اقطار المصرى لاخير وكان ملازما للقصر كأبيه، مكتفيا بالافضل فيما يريده، متقاعدا عن الجهاد مغاليا فى الرفض والتشيع . كان يقع منه يوم عاشوراء المبالغة فى النوح والمأتم، ولعل ذلك كان منه ، للحال التى هو فيها . لأنه كان يزيد على ما كان يفعله آباؤه وأجداده فى هذا اليوم مع أن الجميع رافضة.

الآمر بأحكام الله

هو منصور بن المستعلى بالله ، السابع من خلفاء مصر الفاطميين بنى عبيد ، ولى الخلافة سنة ٤٩٥ وله خمس سنين ، ولبث فيها نحو ثلاثين سنة، وكان رافضيا كأبيه فاسقا ظالما جبارا جائرا السيرة سيء الرأى مستهترا متظاهرا بالمنكر واللهو، ذا كبر وجبروت — وكان الأفضل مدبر سلطانه وولى أمره. فلما كبر قتل الأفضل وأقام المأمون البطائحى فظلم وأساء السيرة، فقتله الآمر بعد أن صادره

وفى أيامه أخذ الصليبيون عكا وطرابلس وصور وصيدا وبيروت بل إن بردويل الأفرنجى قصد مصر ليأخذها، ودخل الفرما وأحرق جامعها ومساجدها، ولولا أن الله أهلكه قبل أن يصل إلى العريش لدخل القاهرة وملك مصر، وهذا كله باستخلاف الآمر المشئوم الطالع ، وقد كان يتناهى فى العظمة ويتقاعد عن الجهاد. فانه لم ينهض لقتال الافرنج البتة. وقد كان لأبيه نوع اهتمام بأمر الجهاد، وإن أخذ النصارى بيت المقدس فى عهده ، أما هذا فقعد حتى تيقن النصارى ضعفه، فاستولوا على ما استولوا عليه من مدن الشام وهم آمنون. واجتمع ملوكهم على حصار طرابلس من جهة البر سنة ٥٠٢ حتى أيقن أهلها بالهلاك ، وكانوا ينتظرون أسطول مصر فتأخر عنهم ولو أدركهم الاسطول فسارع إلى إغاثتهم لحال بين النصارى وبين هذه المدينة ولكن شيئا من ذلك لم يكن. وأخذ النصارى طرابلس ، من إهمال مصر وعدم اكتراثها بحركات الصليبيين ، وانقطاع الخليفة والافضل ومن حولهما إلى الدعة واللهو ، وكذلك فعل الخليفة وعصبته فى أمر صور التى لم يترك أهلها ممكنا فى قتال أهل الصليب تارة ، ومهادنتهم تارة أخرى رجاء

النجدة تأتيهم من مصر فلم تأت. فاضطروا إلى تسليمها للفرنج بالأمان سنة ٥١٨ — وكذلك كان أمر عكا من قبل طرابلس سنة ٤٩٧

والعجب أن الآمر هذا قد انفرد من بين جميع خلفاء الفواطم بحفظ القرآن الكريم . ولكنه كان ضعيف الحظ

وفى سنة ٥١٣ وهى الثامنة عشرة من خلافة الآمر وقعت المباينة بينه وبين الأفضل واحتجب الآمر عنه وتعلل بمرض ، واجتهد الأفضل أن يغتاله بالسم ودسه اليه مرارا فلم يصل اليه ، وكان للآمر قهرمانة كاتبة فاضلة تعرف أنواع العلوم ومنها الطب فاحترزت على الآمر ولم تزل تدبر على الافضل حتى اتفق الآمر مع جماعة على قتله فقتلوه سنة ٥١٥ وأراحوا الآمر منه فقد بالغ فى التضييق عليه حتى منعه من شهواته ، ثم أراد قتله بالسم فلم يفلح ، وقد ترك الافضل من الاموال والقماش والماشية ما يستحيا من ذكره كثرة ، وكانت وصايته ٢٨ سنة ، وكان حسن السيرة عادلا سريا

وفى سنة ٥١٩ قتل الآمر وزيره البطائحى وأخاه بعد أن استولى على أموالهما لانهما دبرا على قتله

قتل الآمر

كان الآمر مطلوبا من أعوان عمه نزار المقتول بيد أبيه المستعلى بعد وقعة الاسكندرية لان الآمر وأباه غصبا الخلافة اذ أن ولاية العهد كانت لنزار كما سلف

فاتصل بالآمر أن هؤلاء يريدون قتله . فاحترز وتحيل فى قبضهم فلم يقدر له ذلك ، ونشأ أمرهم وكانوا عشرة تخافوا أن يقع عليهم الامر فيقتلهم قبل قتله ، فاجتمعوا فى بيت وقالوا قد نشأ أمرنا ومن المصلحة أن نقتل

واحدا منا ونلقى رأسه بين القصرين فان عرفه القوم فلامقام لنا وإن لم يعرفوه تم لنا مانريد

وبعد نقاش قام صاحب هذا الرأى وقتل نفسه فأخذوا رأسه فرموه فى الليل بين القصرين ، وأصبحوا متفرقين ينظرون مايجرى فى البلد بسبب الرأس فلم يسمعوا أحدا يقول أنا أعرفه مع كثرة عرضه ، ففرح التسعة ووثقوا بالمقام بالقاهرة لقضاء مرادهم

واتفق للآمر أنه كان يمضى إلى الروضة، وأنه يجوز على الجسر الذى يعبر عليه من مصر اليها للمقام بها أياما ، فعلم هؤلاء النزارية بركوبه فجاءوا إلى الجزيرة وكمنوا فى فرن تجاه الجسر فلما طلع عليهم الخليفة وقد تفلل عنه الحرس ، لحرج الجواز على الجسر من ضيقه . وثبوا عليه وثبة رجل واحد وضربوه بالسكاكين حتى إن واحدا منهم ركب وراءه وضربه عدة ضربات ، وأدركهم الناس فقتل التسعة ، وحمل الآمر إلى قصر اللؤلؤة فى سفينة على النيل ففاضت روحه قبل وصوله سنة ٥٢٤

وكانت سيرته قد ساءت بالظلم والعسف والمصادرة ، ولما قتل وثب غلام له ارمنى فاستولى على القاهرة وفرق الاموال فى العساكر ، وأراد أن يتأمر على الناس فخالفه جماعة ومضوا إلى أحمد بن الافضل الوزير ، فعاهدوه وجاءوا به إلى القاهرة فخرج الغلام الارمنى فقتلوه وولوا الحافظ

الحافظ لدين الله

هو عبد المجيد بن محمد بن المستنصر الثامن من خلفاء الفواطم بمصر، ولى بعد قتل ابن عمه الآمر، ولم يك من خلفاء مصر من أبوه غير خليفة سواه والعاضد الآتى ذكره

وقد وزر له أحمد بن الأفضل ولقب أمير الجيوش والأكمل. فأحسن إلى الناس وعاملهم بالخير ورد عليهم ماصادرهم فيه الآمر، وكان شجاعا شهما كأبيه الأفضل وجده بدر، ملك ناصية الأمر والبلاد مضطربة لأن الآمر مات ولم يخلف ذكرا، وترك امرأة حاملا نص على حملها قبل موته فوافق على تولية الحافظ ليشغل الوقت به حتى تلد الحامل، فولدت بنتا ولكنه استمر كالمحجور عليه، إذ ضيق عليه وحجره ومنعه الظهور وأودعه فى خزانة لايدخل عليه أحد الا بأمره، وطلع إلى القصر وأخذ جميع مافيه وقال هذا كله مال أبى وجدى، ثم أهمل خلفاء بنى عبيد والدعاء لهم لأنه كان سنيا كأبيه، وأظهر التمسك بالامام المنتظر فى آخر الزمان فجعل الدعاء له فى الخطبة، وغير قواعد الرافضة، فابغضه الأمراء والدعاة لأن غالبهم كان رافضية، ثم أمر الخطباء بأن يدعوا له بألقاب اختصها لنفسه، فلما كرهه الشيعة صمموا على قتله، فخرج إلى لعب الكرة فكمن له جماعة وحمل عليه مملوك أفرنجى للحافظ فطعنه فقتله. ثم أخرجوا الحافظ وبايعوا له ثانية ونهبوا دار الاكمل، فاستوزر الحافظ مملوكه يانس الحافظى صاحب حارة اليانسية (درب الأنسية) فظهر شيطانا ماكرا بعيد الغور حتى خاف منه الحافظ فدس له السم فى ماء الاستنجاء فاستعمله فمات من جرائه

وقد استمر الحافظ خليفة نحو تسع عشرة سنة (٥٢٤ — ٥٤٤)

وكان له أولاد ولى كبيرهم العهد وجعله وزيرا ليستريح من مقاساة الوزراء الذين يضيقون عليه فى أمره ونهيه فمات فرشح الامراء ابنه حسنا فلم يستصلحه أبوه، فدعا لنفسه وكاتب الامراء وعول على اعتقال أبيه واطمع الناس فيما يصلهم به إذا تم له الأمر وكاتبه الأمراء ثم عادوا فانحازوا إلى أبيه لاعتقادهم أن الأمر لايتم مع وجود الخليفة فسير أبوه الكتب اليه فرجع فاحتفظ به وحرص عليه ، فلما علم من بقى من الأمراء وهم على تخوف منه اجتمعوا على طلبه من أبيه ليقتلوه ويأمنوا أمره ، فوقفوا بين القصرين فى عشرة آلاف ، فراسلهم الخليفة بلين الكلام وتقبيح مرادهم من قتل ولده ، وأنه قد أزال عنهم أمره ، وأن ضمانه عليه فى ألا يتصرف أبدا ووعدهم بالزيادة فى الأرزاق والأقطاعات ، فلم يقبلوا شيئا من ذلك بوجه ، وقالوا : إما نحن وإما هو ، وإن لم تتحقق الراحة الأبدية منه فلا حاجة لنا بك أيضا ونخلع طاعتك — وأحضروا الاحطاب والنيران لتحريق القصر ، وبالغوا فى الاقدام عليه — فلم يجد الخليفة من ينصره عليهم لانهم أنصاره وجنده ، فألجأته الضرورة أن استصبرهم ثلاثة أيام ليتروى فيما يعمل فى حق ولده فلم ير إلا أن يقتله وعمل له ابن قرقة اليهودى أحد طبيبى الحافظ سقية فشربها حسن فمات ؛ فلما علم المحاصرون تفرقوا

وكان قد وقع بين حسن هذا وبين أخيه حيدرة — قبل خروج الأمراء لطلبه من أبيه — خلاف بحضرة الحافظ والدهما سنة ٥٢٨ فانقسم العسكر فرقتين إحداهما على مذهب أهـــل السنة والأخرى مع مذهب الرافضة ، ووقع القتال فكان النصر لحسن ، فأباد من تبع أخاه من السودان والامراء بالقتل

وكان الحافظ قد استوزر رضوان بن ولخشى وجعله مدبر ممالكه ببلاد مصر وغيرها فلما تمكن من الوزارة ضيق على الحافظ وسلك طريق الأفضل فى الحجر على الخلفاء ، بل زاد أمره حتى دس عليه الحافظ السودان فوثبوا عليه وقتلوه سنة ٥٤٢ ، وهذا من ضروب سياسته

وكان الحافظ يجرد العساكر فى كل ستة أشهر إلى عسقلان وكان له وال هنالك يخبره أولا فأولا بحركات الفرنج وقتهم وكثرتهم إلى أن سلمتها حاميتها إلى الفرنج بالأمان فى عهد الظافر سنة ٥٤٥

وكان الغالب عليه الحلم بل الطرف المائل من هذا الخلق الكريم إلى الجبن ، وقد مرض مرضته التى توفى فيها فحمل إلى اللؤلؤة فأثخن فى المرض فمات بها سنة ٥٤٤ ، وقد أوصى لأصغر بنيه وهو الظافر

الظافر بالله

وهو اسماعيل بن الحافظ التاسع من خلفاء بنى عبيد بمصر ، بويع بالخلافة بعد موت أبيه وهو ابن سبع عشرة سنة ، وذلك سنة ٥٤٤ وكانت أيامه مضطربة لصغر سنه واشتغاله باللهو واللعب والخلاعة والتفرد بالجوارى واستماع المغانى ، وكان من أحسن الناس صورة

فى أيامه الأولى أخذت عسقلان كما سلف فظهر الخلل فى الدولة بارزاً ، وقد وزر له ابن مصال فلم يرض عنه وإلى الاسكندرية والبحيرة على بن السلار فسار إلى القاهرة حاشداً وفر ابن مصال ووثب ابن السلار على الوزارة وتلقب بالعادل وقتل ابن مصال فقوى واستوحش منه الظافر فخاف ابن السلار منه واحترز على نفسه وجعل له حرسا مؤلفاً من ستمائة يمشون فى ركابه ، ونقل الظافر من القاعة إلى الايوان حتى يتسع لهؤلاء إذا دخلوا

معه ثم تأكدت النفرة بينهما إلى أن قتله ربيبه عباس بن تميم الصنهاجى بيد ابنه نصر واستقر مكانه فى الوزارة

وكان بين نصر هـذا وبين الظافر مودة أكيدة ومخالطة ، بحيث كان الظافر يشتغل به عن كل أحد ، ويخرج من قصره إلى دار نصر (هى مدرسة السيوفية الآن) فخاف الوزير من جرأة ابنه وخشى أن يحمله الظافر على قتله فيقتله كما قتل ابن السلار ، فنهى ابنه عن ذلك الاختلاط وألحف فى تأنيبه وأفرط فى لومه

وكان الوزير قد اتخذ أسامة بن منقذ صاحباً ومشيراً وقربه فأخذ يغرى الوزير بابنه ويبالغ فى تقبيح مخالطته للظافر ، وقال مرة كيف تصبر على مايقول الناس فى حق ولدك من أن الخليفة يفعل به ويفعل فأثر ذلك فى نفس الوزير ، واتفق أن الظافر أنعم على نصر بقليوب فلما أعلم أباه بذلك وأسامة حاضر قال له : ماهى فى جهرك بغالية ، يعرض له بالفاحشة ، فاغتاظ الوزير واستشار ابن منقذ فى كيفية الخلاص من هذا

فأشار عليه بقتل الظافر إذا جا إلى دار نصر على عادته بالليل ، فأمره بمفاوضة ابنه نصر فى ذلك فاغتنمها فرصة ومازال بنصر يشنع عليه ويحرضه حتى وعده بذلك ، فلما كان ليلة الخميس آخر المحرم من سنة ٥٤٩ خرج الظافر من قصره متنكرا ومعه خادمان كما هى عادته ومشى إلى دار نصر فاذا به قد أعدله قوما ، فعند ماصار فى داخل داره وثبوا عليه وقتلوه هو وأحد الخادمين وأفلت الآخر . وفر إلى القصر ، ثم دفنوا الظافر والخادم تحت الارض

وكانت سنه يوم قتل إحدى وعشرين سنة وتسعة أشهر ، منها فى الخلافة بعد أبيه أربع سنين ، ولما أصبح الوزير ذهب إلى القصر واتهم أخوى

الخليفة بقتله فقتلهما وأخرج الفائز وبايعه

وبلغ أهل القصر مافعل نصر فكاتبوا طلائع بن رزيك وكان على الاشمونين، وبعثوا اليه بشعور النساء يستصرخون به على عباس وابنه فقدم، وعند قدومه فر عباس وابنه واسامة، ودخل طلائع وعليه ثياب سود وأعلامه وبنوده كلها سود، وشعور النساء التى أرسلت اليه من القصر على الرماح (فكان فألا عجيبا، فانه بعد خمسة عشر سنه دخلت اعلام بنى العباس السود القاهرة لمآتم العاضد. واستبد صلاح الدين بملك ديار مصر) وتربع طلائع على الوزارة ولقب بالصالح

وكان أول مابدأ به طلائع أن مضى ماشيا إلى دار نصر، وأخرج الظافر والخادم وغسلهما وكفنهما وحمل الظافر فى تابوت مغشى، ومشى طلائع حافيا والناس كلهم حتى وصلوا إلى القصر، فصلى عليه ابنه الفائز ودفن فى تربة القصر

أما عباس وابنه ومن معهما فقد فروا إلى الشام، فكاتبت اخت الظافر الفرنج الذين أخذوا عسقلان من مدة، وشرطت لهم مالا جزيلا فقتلوا عباسا، وأفلت ابن منقذ وأرسلوا نصرا فى قفص إلى مصر، فخلعت أخت الظاهر يده وضرب ضربا مهلكا وقرض جسمه بالمقاريض ثم صلب على باب زويلة حيا حتى مات فأنزل وأحرقت عظامه

الفائز بنصر الله

هو عيسى بن الظافر العاشر من خلفاء مصر من بنى عبيد الفاطميين، ولى الخلافة وعمره خمس سنين ولبث فيها نحو ست سنوات ونصف. وهاك قصة توليته :

لما أصبح الوزير عباس ركب إلى القصر ودخل إلى موضع الوزارة من غير استدعاء، فاطال جلوسه، ولما لم يجلس له الخليفة استدعى زمام القصر (كبير موظفيه) وقال: إن كان لمولانا مايشغله عنا فى هذا اليوم عدنا إليه فى الغد. فمضى وهو حائر وقد فقد الخليفة. فدخل إلى أخوى الخليفة وهما رجلان أحدهما مكتهل، فاخبرهما بالقصة، ولم يك عندهما من خروج أخيهما البارحة إلى دار نصر خبر، ولا اطلعا عليه إلا فى هذه الساعة فما شكا فى قتل أخيهما وقالا للزمام أخبر الوزير وأرادا أن يخبره سرا فقال ماثم إلا الجهر

قال إن الخليفة خرج البارحة لزيارة ولدك فلم يعد بغير العادة فقال تكذب ياعبد السوء، إنما أنت مبايع أخويه اللذين حسداه على الخلافة فاغتالاه. واتفقتم على هذا القول، فقال معاذ الله، قال الوزير فأين هما فخرجا إليه ومعهما ابن أخيهما حسن، الذى قتله والده الحافظ بالسم

فلما حضروا قال لهم الوزير: أين الخليفة، فقالوا حيث يعلم ابنك قال لا، قالوا بلى؛ وهذا بهتان منك، لأن بيعة أخينا فى أعناقنا، وهؤلاء الأمراء الحاضرون يعلمون ذلك، وإنا فى طاعته بوصية والدنا؛ وأقاما عليه الحجة؛ فكذبهما وأمر غلمانه بقتل الثلاثة، ثم قال للزمام أين ابن مولانا؟ قال حاضر، فقال قدامى إلى مكانه، ودخل بنفسه إليه فحمله على كتفه

وأخرجه للناس قبل رفع المقتولين وبايع له بالخلافة ولقبه الفائز بنصر الله ، فرأى الصبي القتلى ، فتفزع واضطرب ، ودام مدة خلافته لا يطيب له عيش من تلك الرجفة ، وتم أمر الفائز في الخلافة ووزر له عباس ، إلى ان وقع له مع طلائع بن رزيك ماقصصناه في تاريخ الظافر

تكفل الصالح طلائع أمر الفائز وساس الأمور وتلقب بالملك الصالح وسار في الناس أحسن سيرة وفخم أمره وكان كاتبا أديبا ، وخلع عليه كما خلع على الأفضل

ولما استفحل أمره أخذ في جمع المال وكان شرها حريصا على التحصيل وكان يميل إلى مذهب الامامية بل كان مغاليا في الرفض ، فمال على المستخدمين في الأموال ، وأخذ يعمل على الأمراء المقدمين في الدولة حتى شتت شملهم وخلت القاهرة له ، فأخذ في بيع الولايات عليهم وجعل لها أسعارا ومدتها ستة أشهر فتضرر الناس من تردد الولاة عليهم كل نصف سنة ، وضايق أهل القصر طمعا في صغر سن الخليفة ؛ فتعب الناس معه ، وجعل له مجلسا في أكثر الليالي يحضره أهل الأدب ، ونظم شعراً ودونه ؛ وصار الناس يهرعون إلى نقل شعره مع أنه كان لا يجيده وربما أصلحه له شاعر كان يصحبه يقال له ابن الزبير الملقب بالقاضي المهذب ويقال ان أكثر الشعر الذي في ديوان الصالح إنما هو من شعر المهذب

ثم توفى الفائز في سنة ٥٥٥ . ولما مات دخل طلائع القصر وسأل عمن يصلح ، فاحضر له منهم انسان كبير السن فقال له بعض أصحابه سرا لا يكون عباس أحزم منك حيث اختار الصغير ، فعدل عن كبرائهم إلى صغرائهم لمكان استبداده . ووقع اختياره على العاضد ولم يكن أبوه خليفة

وكان مراهقا فى ذلك الوقت فزوجه الصالح بابنته ونقل معه من الجهاز مالا يسمع بمثله

العاضد بالله

هو عبد الله بن يوسف بن الحافظ ، الحادى عشر من خلفاء بنى عبيد فواطم مصر ، بويع بعد موت ابن عمه الفائز سنة ٥٥٥ ، وهو ابن احدى عشرة سنة ، وكانت مدة خلافته احدى عشرة سنة ، وأبوه يوسف أحد الأخوين اللذين قتلهما الوزير عباس بعد قتل الظافر — وتوفى العاضد يوم عاشوراء سنة ٥٦٧ وعمره ثلاث وعشرون سنة ، قيل انه مات من كثرة مافكر فى إدبار أمره ، وقيل مات غما لما قطع صلاح الدين الخطبة اليه وخطب لبنى العباس ، وقيل انه لما أيقن بزوال ملكه مص سما فمات منه — وكان وزيره لأول مااستخلف الصالح طلائع كما سلف .

مقتل الصالح طلائع وولاية ابنه رزيك وقتله وولاية شاور

لما استفحل أمر الصالح على مابينا وعظم استبداده بجباية الأموال وحجر العاضد تنكرله الحرم ودسس إلى الأمراء بقتله ، وتولت كبر ذلك عمة العاضد الصغرى وكانت كافلة الفائز بعد أختها الكبرى التى دبرت لقتل طلائع ولم تفلح لأنه علم بأمرها فقتلها ونقل كفالة الفائز إلى هذه الصغرى التى طيب قلبها وراسلها فما حماه ذلك منها بل رتبت قتله وسعى لها فى ذلك اصحاب أختها المقتوله ، فرتبت قوما من السودان الأقوياء وغيرهم طلائع فدخل على العاضد فى خامس رمضان سنة ٥٥٦ ولما خرج كان معه ابنه رزيك فهجموا عليهما وضربه أحدهم فاثبته وضرب ابنه فجرح وقيل قطع عضده الايمن .

فاما الصالح فحمل إلى داره وبقى يجود بنفسه يومه ذلك ومات من الغد - وأما رزيك فانه شفى مما أصابه وأرسل اليه العاضد فولاه الوزارة مكان أبيه ولقبه العادل وأذن له فى الاخذ بثأر أبيه فقتل الملك العمة ورجالا آخرين وقام بحمل الدولة ، وأشير عليه بصرف شاور بن مجير السعدى من ولاية قوص — وقد كان أبوه أوصاه ببقائه وقال له تندمت على ولايته ولم يمكنى عزله فصرفه ، فاضطرب شاور ، وخرج إلى طريق الواحات وجمع ، وقصد القاهرة ، وجاء الخبر إلى رزيك فعجز عن لقائه وخرج فى جماعة من غلمانه بعدة أحمال من المال والثياب والجوهر وانتهى إلى ناحية قبض عليه فيها وجيء به إلى شاور فاعتقله واعتقل معه أخاه ، فأراد الهرب من محبسه فوشى به أخوه فقتله شاور لسنة من ولايته ولتسع سنين من ولاية أبيه ، ودخل شاور القاهرة سنه ٥٥٨ ونزل بدار سعيد السعداء وولاه العاضد الوزارة ولقبه أمير الجيوش وأمكنه من أموال بنى رزيك فاستصفى معظمها وزاد اهل الرواتب والجرايات عشرة أمثالها واحتجب عن الناس — وكان الصالح قد أنشأ فى ولايته أمراء يسمون بالبرقية وكان مقدمهم ضرغام بن عامر ، وكان صاحب الباب ، فنازع شاور فى الوزارة لتسعة أشهر من ولايته وثار عليه وأخرجه من القاهرة فلحق بالشام ، وقتل ولده طيئا وكثيرا من أمراء المصريين حتى ضعفت الدولة وخلت من الأعيان وأدى ذلك إلى خرابها

كان ضرغام فارسا شجاعا ، فلما فر من وجهه شاور وثب على الوزارة وكانت عادة المصريين أنه إذا غلب شخص صاحب المنصب وعجز عن دفعه وعرفوا عجزه ، ثبتوا للقاهر منهم ورتبوه ومكنوه ، فان قوتهم إنما كانت

بعسكروزيرهم ، وهوملقب عندهم بالسلطان ، من أجل ذلك عاو نواضرعاما وكأن شاور لم يكن وزيرا لهم

مسير شيركوه وعساكر نورالدين الى مصر مع شاور

ولما لحق شاور بالشام نزل على الملك العادل نور الدين بدمشق صريخا ، وشرط له ثلث الجباية على أن يقيم له العساكر ، فجهز له نورالدين شيركوه وكان مقدما فى دولته فساروا فى جمادى الاخرة سنة ٥٥٧ وكان مع شيركوه ابن أخيه يوسف صلاح الدين

وتقدم نور الدين إلى شيركوه بأن يعيد شاور إلى وزارته وينتقم له ممن نازعه — سار نور الدين بالعساكر إلى طرف بلادالصليبيين ليمنعهم من اعتراض شيركوه إن هموا به

ولما وصل شيركوه وشاور إلى بلبيس لقيهما جند ضرغام فهزم ودخل شيركوه القاهرة ومعه أخو ضرغام أسيرين ، ففر ضرغام فقتل عند مشهد السيدة نفيسة وقتل أخواه وأعيد شاورإلى وزارته فاستولى على القاهرة واستقام أمره فيها ثانية

ولكنه نكث عهده مع شيركوه ، وسلطان شيركوه ، فلم يف بشيء مما شرط فسار شيركوه باشارة صلاح الدين واستولى على بلبيس ، فارسل شاور يستنجد بالفرنج على إخراج شيركوه من البلاد ، فسار الافرنج واجتمع معهم شاور بعسكر مصر ، وحصروا شيركوه ببلبيس ودام الحصار ثلاثة أشهر ، ثم بلغ الفرنج حركة نور الدين وأخذه حارم فراسلوا شيركوه فى الصلح وفتحوا له ، فخرج من بلبيس بمن معه من العسكر ووصلوا إلى الشام سالمين ، وتعهد له الصليبيون بعدم التدخل فى أمور مصر

فتنة أسد الدين شيركوه مع شاور وحصاره

لما رجع شيركوه إلى الشام أقام مدة فى خدمة نور الدين ثم استأذنه فى العود الى مصر فأذن له بعد أن جهزه بعسكر جيد وكان نور الدين قد علم أن الصليبين اتفقوا سرا مع شاور ؛ فهذا ما حمله على اجابة ملتمس شيركوه

سار شيركوه الى مصر ثانية ونازل الفرنج فى طريقه ؛ ثم وصل الى إطفيح وعبر النيل الى الجانب الغربى ونزل الجيزة واستولى عليها ؛ فاستنجد شاور بالفرنج وخرج معهم للقاء شيركوه ، وحصل بين الفريقين موقعة دامية انتصر فيها شيركوه وانهزم شاور وملك الفرنج مرى وطلبوا القاهرة فلو ساق شيركوه خلفهم فى الحال ملك القاهرة ، ولكنه عدل الى الاسكندرية فتلقاه أهلها طائعين فدخلها وولى عليها صلاح الدين وسار شيركوه الى الصعيد فاستولى عليه ، فاجتمع عسكر مصر والافرنج وحاصروا صلاح الدين أربعة أشهر وأهلها يقاتلون معه ويقوونه بالمال وبلغ شيركوه تجمع عرب البلاد وسار إلى الاسكندرية ، فعاد شاور إلى القاهرة . وراسل شيركوه على الصلح ، فلم على مال يحملونه إلى شيركوه ويسلم إليهم الاسكندرية ويعود إلى الشام فسلم وعاد إلى دمشق سنة ٥٦٢ ، واعتذر إلى نور الدين بكثرة الفرنج والمال

أما الفرنج مع شاور فقد طلبوا منه أن يكون لهم شحنة بالقاهرة ، وتكون أبوابها بأيدى فرسانهم ، وتحمل إليهم فى كل سنة مائة ألف دينار ، ومن سكن منهم بالقاهرة يبقى على حاله وغير ذلك فاجابهم شاور إلى ما طلبوا ، فساروا إلى الساحل — كل ذلك والعاضد لا يعلم بشىء

وكان نور الدين يخاف على مصر من غلبة الفرنج ، فهاجم بعض قلاعهم فخاف من بمصر من الفرنج وبينما هو فى ذلك عاد الفرنج من الساحل إلى مصر فى سنة ٥٦٤ وطمعوا فى أخذها، فساروا من عسقلان حتى نزلوا بلبيس وأغاروا على الريف وأسروا وقتلوا — فلما علم شاور أخرج من بمصر من الفرنج وقتل منهم جماعة وهرب الباقون ، ثم أمر أهل الفسطاط بالهجرة إلى القاهرة وأحرقها ، فبقيت النار فيها أربعة وخمسين يوماً

ثم سار الفرنج من بلبيس حتى نزلوا القاهرة فلم يجد شاور بداً من مكاتبة نور الدين بأمر العاضد ، وصانع الفرنج على ألف ألف دينار يحملها إليهم وحمل إليهم مائة ألف وسألهم أن يرحلوا عن القاهرة ليقدر على جمع المال وتحصيله فرحلوا

أما نور الدين فأنه علم تمكن الفرنج من مصر وتحكمهم فى المسلمين بها حتى ملكوا بلبيس وحاصروا القاهرة ثم جاءته كتب شاور والعاضد ، فحركه ذلك إلى دعوة شيركوه ليقود العساكر إلى مصر ، وقال لصلاح الدين اخرج مع عمك فامتنع

أحب نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهاب الملك من بيته ، وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم)

سار شيركوه إلى مصر للمرة الثالثة مزودا بالمال والرجال والدواب والثياب والسلاح ، فلما قارب مصر فر الافرنج من وجهه إلى الشام فكان هذا لمصر فتحا جديدا

وصل شيركوه إلى القاهرة . فاستدعاه العاضد إلى القصر ، وخلع عليه فى الايوان خلعة الوزارة ، ولقبه المنصور ، فعاد بالخلعة الى خيامه وأجرى عليه وعلى عسكره النفقة الوافرة ، فأقام شيركوه وأرباب دولته يترددون على العاضد فى كل يوم . ولم يقدر شاور على منعهم لميل العاضد إلى شيركوه ، و كثرة جند شيركوه . لكنه ماطل فيما كان بذله لنور الدين من تقرير المال ثلث إيراد البلاد وكاتب الفرنج ثم أراد الغدر بشيركوه فمنعه ابنه الكامل بن شاور فقال له والله لئن لم تفعل لنقتلن كلنا ، فقال له ابنه لأن نقتل والبلاد بيد المسلمين خير من أن نقتل والبلاد بيد الفرنج ولئن لم تنته عن هذا الأمر لاعرفن شيركوه

غير أن خبر الغدر وصل إلى عسكر شيركوه فعزموا على الفتك بشاور . واتفق على ذلك صلاح الدين وأمير آخر فنهاهم شيركوه عنه واتفق ان شاورا قصد شيركوه على عادته فلم يجده فى المخيم وكان قد مضى لزيارة الشافعى . ووجدهما فساروا جميعا إلى شيركوه . فوثب صلاح الدين وزميله على شاور والقياه على الأرض عن فرسه وامسكاه فهرب أصحابه عنه وأرسلا فأعلما شيركوه بما فعلاه فحضر ولم يمكنه إلا إتمام ذلك

وسمع العاضد فارسل الى شيركوه يطلب منه انفاذ رأس شاور فقتله وأرسل رأسه الى العاضد . ودخل بعد ذلك القصر فخلع عليه وسار بالخلع الى دار الوزارة التى كان فيها شاور واستقر فى الأمر وكتب له منشورا بذلك كان فيه تفويض أمر الخلافة اليه . أما الكامل بن شاور فانه دخل القصر فكان آخر العهد به ولما لم يك لشيركوه منازع أتاه أجله (حتى اذا

فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة)فتوفى فى جمادى الآخرة سنة ٥٦٤ . فكانت ولايته شهرين وخمسة أيام

صلاح الدين فى الوزارة

لما مات شيركوه طلب جماعة من الأمراء النورية التقدم على العسكر وولاية الوزارة العاضدية وجمع كل أصحابه للمغالبة ، ومال العاضد إلى صلاح الدين لصغره وضعفه عنهم ، ووافقه أهل دولته على ذلك فاستدعاه وولاه الوزارة ، فاضطرب أصحاب صلاح الدين وكان معه الفقيه عيسى النكارى فاستمالهم اليه فمالوا إلا واحدا قال أنا لا أخدم يوسف وعاد إلى نور الدين وقام صلاح الدين بالوزارة على أنه نائب نور الدين أيضا ، وكان هذا يكاتبه بالأمير الاسفهلار ويكتب علامته على رأس الكتاب تعظيما عن أن يكتب اسمه ، وكان لا يفرده بكتاب ، بل يكتب : إلى الأمير صلاح الدين وكافة الامراء بالديار المصرية يفعلون كذا وكذا . وقوى أمر صلاح الدين واستقام أمره كل ذلك والخطبة باسم العاضد إلى سنة ٥٦٧

ولما تم أمر صلاح الدين خاف العاضد عاقبة أمره . وكان للعاضد خادم يقال له مؤتمن الخلافة ، وكان مقدم السودان والخدم والمشار اليه بالقصر ، فأمره العاضد بقتال الترك والغز ، واتفق العسكر المصرى مع الخادم وثاروا على الترك وكان بينهم وبين صلاح الدين وعسكره وقعة عظيمة بين القصرين ، انهزم فيها السودان وقتل منهم خلق كثير وقتل مؤتمن الخلافة فأرسل العاضد إلى صلاح الدين يعتب عليه ويقول : فأين أيمانكم ؟ هذا الخادم جاهل ، فعل ما فعل بغير أمرنا ؛ فقال صلاح الدين نحن على الايمان

والعهود ماتتغير . وما قتلنا إلا من قصد قتلنا — وحكم على القصر ، وأقام فيه بهاء الدين قراقوش الاسدى ، وكان خصيا أبيض ، وبقى لايجرى فى القصر صغيرة ولا كبيرة الا بأمر صلاح الدين

وفى سنة ٥٦٥ حاصر الفرنج دمياط فشحنها صلاح الدين بالرجال والذخائر وأمده العاضد بالاموال والثياب ، ثم أغار نور الدين على بلادهم بالشام فنكصوا على أعقابهم ولم يظفروا بشىء منها ، وكان حصارهم لها خمسين يوماً — وفى السنة التى تليها خرج صلاح الدين فغزا بلاد الفرنج قرب عسقلان والرملة ثم خرج إلى أيلة وهى للفرنج فحصرها براً وبحراً وفتحها واستباح أهلها وما فيها وعاد إلى مصر

ثم هدم دار المعونة التى كانت حبسا وبناها مدرسة للشافعية وبنى لهم مدرسة أخرى وعزل جميع قضاة الشيعة ورتب قضاة شافعية ، وكذلك اشترى تقى الدين عمر وهو ابن أخى صلاح الدين منازل العز وبناها مدرسة للشافعية ، فغص الشيعة وأولياؤهم بصلاح الدين ودبروا له وكادوا ، فجمعهم صلاح الدين وشنقهم فى يوم واحد بين القصرين

قطع الخطبة للعاضد وانقراض العلوية بمصر

كتب نور الدين فى أول سنة ٥٦٧ إلى صلاح الدين بعد أن استولى على القصر وقوى أمره وضعف أمر العاضد بقطع الخطبة لبنى عبيد وأن يخطب بمصر لبنى العباس ، فخاف صلاح الدين من أهل مصر ألا يجيبوه ، ولم يسعه مخالفة نور الدين ، وقال ربما وقعت فتنة لا تتدارك فكتب إلى نور الدين يخبره بذلك ، فلم يسمع منه وخشن عليه فى القول وألزمه إلزاماً لا محيد عنه

ومرض العاضد ، فجمع صلاح الدين الأمراء والأعيان واستشارهم في أمر نور الدين بقطع الخطبة للعاضد والدعاء لبنى العباس ، فمنهم من وافق ومنهم من خالف وقالوا هذه فتنة وكاتبوا نور الدين فلم يلتفت اليهم وكتب إلى صلاح الدين يستحثه فى ذلك فأمر باقامتها للخليفة المستضىء وقطعها عن العاضد ، وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعلم أحد من أهله بقطع خطبته — ثم توفى العاضد يوم عاشورا سنة ٥٦٧ وانقضت دولة الفاطميين من مصر بموته وندم صلاح الدين على قطع خطبته ، وقال ليتنى صبرت حتى يموت ، فان الخطبة قطعت فى أول جمعة من المحرم فقط — ثم كتب صلاح الدين بخبر نور الدين فكتب نور الدين كتابا إلى بغداد ، وصفا الوقت لصلاح الدين وصار يخطب باسمه على منابر مصر بعد الخليفة العباسى ونور الدين — وسمى السلطان

مرض العاضد من أواخر ذى الحجة سنة ٥٦٦ فلما اشتدت عليه الحمى أمسك طبيبه عن الحضور اليه وامتنع من مداواته وخذله مساعدة عليه للزمان وميلا مع الأيام ، ثم مات العاضد بعد قطع الخطبة له بأيام ثلاثة وكان لموته بمصر يوم عظيم إلى الغاية ، وعظم مصابه على المصريين عامة ووجدوا عليه وجدا عظيما لاسيما الرافضة ، فان نفوسهم كادت تزهق حزنا لانقضاء دولة الرافضة من ديار مصر وأعمالها فسبحان الباقى

وجلس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصر الخلافة ومافيه ، وكانت كثرته تخرج عن الاحصاء وكان فى خزائنهم من الذخيرة مالم يسمع بمثله من أصناف الجواهر واليواقيت وحلى الذهب وآنية الذهب والفضة والموائد والطسوت والأباريق والقدور والصحاف وأنواع الطيوب واللباس

والوشي مالا تقله الأوراق ، ومن الكتب ماينا هز ١٢٠٠٠٠ سفر أعطاها لعبد الرحيم البيساني كاتبه وقاضيه ومن الظهر والكراع والسلاح ، ومن الخدم والوصائف ٥٠٠٠٠ ومن المال خزائن خزائن ، وكلما استولى على خزانة وهبها أو انهبها ولا يبقى لنفسه شيئا

ونقل أهل العاضد إلى موضع من القصر ووكل بهم من يحفظهم ويقال حبسهم رجالا ونساء حتى ماتوا ، وأخرج جميع من فيه من عبد وأمة فباع البعض وأعتق البعض ووهب البعض وخلا القصر من سكانه وكأن لم يغن بالأمس

ولما مات العاضد اجتمع جماعة من الشيعة وبايعوا لداود بن العاضد فنمى خبرهم إلى صلاح الدين فقبض عليهم وقتلهم وأخرج داود من القصر وقام سليمان ابنه بعده فحبس حتى هلك — وكل مافعله صلاح الدين لازالة العلوية كان يستفتي فيه جماعة الفقهاء بمصر فلا يجد منهم إلا الموافقة ، قتلا للبدعة وإحياء للسنة .

سقوط الدولة الفاطمية

بينا كيفية سقوط هذه الدولة فى خلافة العاضد ، وما كان من التحاسد الوزارى بين شاور وضرغام ، مما أدى إلى دخول أسد الدين ، والاستعانة بالصليبيين ، وتعرف الفريقين طرق البلاد ومسالكها ، ومواطن الضعف فيها ، وانتهاء ذلك كله بقتل الوزيرين ، وإقامة الوزارة لأسد الدين ثم موته وإقامتها لصلاح الدين ، ثم ما كان من نور الدين بعد ذلك من إصداره الأوامر بإزالة الفاطمية ، وقطع الخطبة للعاضد وإعادتها للعباسية

ولكن الأسباب التى سقطت بها هذه الدولة لم تنشأ فى خلافة العاضد ، بل حدثت فى أيام الخلفاء الذين سبقوه منذ عهد المستنصر ، على الرغم من اتساع رقعة الدولة فى عصره ، والخطبة له بالعراق والجزيرة والشام ومصر والمغرب ، فان شيئا من ذلك كله كان مصطنعا لا طبيعيا ومؤقتا لا مؤبدا ؛ فحركة البساسيرى فى العراق لم تثمر أكثر من سنة ، وبلاد إفريقية والمغرب لم تلبث أن استقلت ، وبلاد الشام كانت مسرحا للمغيرين من رؤساء القبائل العربية ، والنازعين إلى الاستقلال بما فى أيديهم من ولاة الفاطمية

أما الخلفاء الذين جاءوا من بعد المستنصر فكانت لهم الخلافة بالاسم ، والعمل كله بيد المستبدين عليهم من الوزراء ، كالأفضل بن بدر الجمالى الذى قام بتدبير المستعلى بالله ، وحصلت فى أيامه الفتن التى أريق فيها العزيز الغالى من الدماء ؛ دماء الجند وكبار القادة . واستنفد فيها الكثير الوافر من الأموال أموال الدولة والأمة ؛ حتى ضعفت الدولة عن الاحتفاظ

بمستعمراتها وانقطعت دعوتها من أكثر مدن الشام باغارة أمراء السلجوقية على الاطراف الداخلية ، واغارة الصليبيين على الجهات الساحلية ، ومنها بيت المقدس ، قبلة المسلمين الاولى ، وكانت لم تزل بيد المسلمين منذ افتتحها عمر بن الخطاب سنة ١٦ إلى هذه الأيام من سنة ٤٩٢ ، ولم يستطع الافضل استردادها ، بل انهزم أمام الصليبيين مرة بعد مرة ، وإن نجح فى أخذها قبل ذلك من بنى أرتق ، وكان السلاجقة قد أقطعوها إياهم ، مما يدلك على أن الأحوال الداخلية بمصر شغلته أيام الافرنج فأضعفته وأعجزته ، وكان ذلك كله من جراء استبداده بالأمر ، وتولية المستعلى دون المستحق للخلافة وهو ولى العهد نزار بن المستنصر ؛ وعلى هذا فقس

على أن هنالك أسباباً أخرى اهرم هذه الدولة ، منها ماولد معها منذ استقرت بمصر ، ومنها مانشأ بعد ذلك وكان طبعيا فى دول الأرض بعد حصولها على الغاية وهى الملك ، أو كان خاصا نشأ فى دولة الفواطم على أثر ضروب السياسة التى اتبعت ، واختلفت وجهة النظر فيها باختلاف القائمين برسم خططها من الأمراء والوزراء

ويجمل بنا أن نبين شيئا من ذلك كله على وجه الاجمال فنقول

كان أهم الأسباب فى سقوط دولة الفواطم بمصر يرجع إلى الأمور الآتيـــة :

(١) النزاع المستمر بين أهل السنة والجماعة بمصر، وهم الأكثرية ، وبين الشيعة ، وهم الاقلية ، وبخاصة حينما غالى الشيعة فى إعلان مذهبهم ، معتمدين على أن الملك بأيديهم ، والدولة لهم ، فكان من جراء ذلك العداء المستحكم بين افراد الرعية، الذى يضعف معه التعاون ويكثر معه التصادم

وانتهاز كل من الفريقين الفرص للايقاع بالآخر ، وهذا هو الهدم المستمر فى كيان الدولة ، ومن شأنه أن يسارع بالهجوم اليها

(٣) استغناء الدولة عن العصبية — فقد قامت الفاطمية على الكتاميين والعرب بافريقية أولا ، وبهم فتحت مصر حينما سير المعز لدين الله ، جوهرا القائد سنة ٣٥٨ ، ولما هاجر المعز إلى مصر سنة ٣٦٢ كان قد وفد معه أكابرهم ووجوههم

فلما كان فى أيام العزيز بالله ، اصطنع الديلم والاتراك وقدمهم فتنافسوا وصار بينهم وبين كتامة تحاسد ، ولما تولى الحاكم أعاد لكتامة منزلتها ، فقدم ابن عمار الكتامى وولاه الوساطة وهى فى معنى رتبة الوزارة فاستبد بأمور الدولة ، وقدم كتامة وأعطاهم ، وحط من الاتراك والديلم الذين اصطنعهم العزيز ، فاجتمعوا إلى برجوان وكان صقلبيا ، فاغراهم بابن عمار حتى وضعوا منه ، فاعتزل الأمر وتقلده برجوان ، فاستخدم المصطنعين هؤلاء فى القصر ، وزاد فى اعطياتهم وقواهم ، ثم انتاب الحاكم كتامة ، فقتل ابن عمار وكثيرا من الكتاميين رجال دولة ابيه وجده فضعفت بذلك كتامة وقوى الترك والديلم

فلما تولى الظاهر انغمس فى اللهو ، ومال إلى الترك والمشارقة فازداد الكتاميون ضعفا وانحطاطا . إلى أن استولى المستنصر بعد الظاهر فاستكثرت أمه من العبيد ؛ واستكثر هو من الترك ؛ وتنافس الفريقان بالضرورة ، واشتد التنافس إلى أن وقعت الحرب بينهما ، ولم يستطع إذ ذاك الاستنصار بالعصبية التى تغار على الدولة وتعمل على حياطتها وحمايتها والذود عنها عنها مندفعة إلى ذلك بدافع فطرى لا مصطنع بالمال كما هو شأن هذين

الفريقين المتناحرين ، إذ لم يبق من العصبية من يصح أن يبلى بلاء حسنا فى هذا المضمار .

من أجل ذلك استمرت الحرب التى آلت إلى خراب مصر وزوال بهجتها والاضطرار إلى الاستنصار ببدر الجمالى الارمنى ، فأقام له جندا من الارمن فذهبت ريح كتامة وصاروا من جملة الرعية بعد أن كانوا وجوه الدولة وأكابر أهلها ، والعاملين على إعلاء كلمتها والمحافظين عليها ، فذهبت بذهاب ريحهم ، ريح الدولة الفاطمية بمصر

والاصل فى الاستغناء عن العصبية فى كل دولة يرجع إلى أن من طبيعة الملك الانفراد بالمجد ، فاذا حصل الملك وهو لا يحصل إلا بها ، غلب على الملك خلق الكبر . والانفة من المشاركة ، وجاءه خلق التأله ، فيجدع أنف العصبية حتى لا تسمو إلى مشاركته فى الحكم ، وينفرد به ما استطاع حتى لا يبقى لاحد منهم فى الامر ناقة ولا جملا ، وقد يتتبع رؤساءهم بالقتل أو يستأثر دونهم بالاموال ، فيشب أبناؤهم من بعدهم ويحسبون أن ماينالهم من السلطان ، إنما هو أجر عن الحماية والمعونة ، وهم لا يستأجرون أنفسهم على الموت فى ميدان الحرب ، فيصير ذلك كله وهنا فى الدولة ، وخضدا من الشوكة ، وتقبل به الدولة على الهرم والضعف لذهاب الناس من أهلها ثم لفسادها .

وأشد من ذلك وأنكى أن يحل محلهم الموالى والمصطنعون والمرتزقة ،
وليس التكحل فى العينين كالكحل

(٣) الترف والميل إلى الدعة والراحة ، وقد حصل هذا كله للفواطم كما حصل لغيرهم من أهل الدول السابقة واللاحقة ، سنة الله فى خلقه

أما أثر الترف فان الدولة تكون فى أولها بدوية ، فتكون بذلك قليلة المطالب لعدم الترف وعوائده ؛ ويكون خرجها قليلا ونفقاتها يسيرة فيكون فى الجباية وفاء ، بل يفضل كثير منها عن الحاجة فيدخر ، وتكثر الأموال فتكون الدولة غنية ، وتكون قوية مستعدة للدفاع والهجوم

فاذا أترفت الدولة وكثرت مطالبها وجرت على سنن الدول السابقة فى النفقات والعطاء ، كثر الخرج حتى يصير إسرافا ، فلا تفى حينئذ الجباية فيضطر السلطان إلى فرض الضرائب الجديدة ، وكلما زاد الترف زادت الضرائب وتنوعت ، حتى تصبح حملا ثقيلا على الرعية ؛ وينتابهم الفقر ويعجزون عن الوفاء ، إما من ثقل الضرائب ، وإما من انغماسهم بدورهم فى الترف تقليداً لاهل الدولة ، وتضعف الدولة عن تحصيل الأموال من الاعمال ، فتضعف الجباية ، وتقصر كثيرا عن الوفاء ، وربما اشتدت الرغبة إلى مصادرة التجار وأهل الاموال ، ونهب ما بأيديهم بالحق وبالباطل ، إجابة لسلطان الترف ، فتعم الفوضى ، ويكثر الاضطراب ويحل الهرم ، وهو إذا نزل بالدولة لا يرتفع إلا بتأييد سماوى ، ويختل العمران ، وتتزعزع أركان الدولة وتختل معالمها ، ولا يزال ذلك يزيد حتى تضمحل وتنحل عراها ، فاذا قصدها طالب ، انتزعها من أيدى القائمين بها ، وإلا بقيت وهى تزداد اضمحلالا وضعفا حتى تزول كالذبال فى السراج إذا فنى زيته

وقد نزل الترف بالفاطميين أخيرا ، ففرضوا المغارم على كل شىء حتى على الحاج فى الموسم ، وضعفت مقدرتهم عن الدفاع : حتى استولى السلاجقة والصليبيون على الشام سهلا وجبلا ، واستقل بنو بلكين بالمغرب واستولى على دولتهم بمصر أخيرا أسد الدين وصلاح الدين

وأما الميل إلى الدعة والراحة والسكون ، فقد كان منهم أيضا منذ أيام المستنصر على الاقل ، وإذا اتخذ أهل الدولة الراحه ، صار لهم خلقا وجبلة ونشأ أجيالهم فى غضارة العيش ، ونسوا أحوال البداوة التى كان بها الملك من شدة البأس ؛ وتعود الافتراس . وأخلاق البسالة والشجاعة التى كان بها الحماية والمدافعة ، حتى يصيروا عالة على حامية اخرى من الوزراء والأمراء والمرتزقة ، وتلبس الدولة بهم حينئذ ثياب الهرم من جراء مايحصل عادة من التنافس والتحاسد بينهم حتى ضعفوا ويضعف صاحب الدولة بضعفهم أو يزداد ضعفا فتضمحل الدولة ولا تقوى على صد من يقصدها الاستيلاء عليها وانتزاعها من أيدى أهلها

(٤) الفوضى فى اقامة الخلفاء وتنصيب الوزراء

وقد حصل ذلك ابتداء فى أواخر عصر الحاكم بأمر الله ، حيث قامت ست الملك أخته بالتدخل فى إجراءاته ، وجر ذلك إلى قتله ، فعملت من بعده على إقصاء ولى عهد الدولة . وإقامة الظاهر خليفة ولما يبلغ السابعة عشرة ، وقامت بدبير الملك ، واستعملت المال فى استمالة الامراء والوزراء إلى جانبها ، وظلت على ذلك ست سنوات ، فلما ماتت تنافس هؤلاء وقام ثلاثة منهم فاستبدوا بالظاهر وحالوا بينه وبين الناس ، وأمضوا الامور دونه لحسدهم بقية الامراء واشتغلوا بالتدبير عليهم ، وتمكنوا من قتل أحدهم وعمت الفوضى فتضعضع أمر الدولة وكثر المتغلبون على البلاد فاخذ ابن مرداس حلب ، وحسان بن مفرج أكثر مدن الشام ، اصغر سن الظاهر وضعف صحته ، وقيام الوزراء بتدبير شأنه وهم على ذلك الحال من التنازع

وقد صارت تولية الخلفاء الصغار بعد ذلك سنة ، فقد ولى المستنصر

وعمره سبع سنين ، وكان لامه فى تصريف أموره شأن ، فأنشأت جيشا من أبناء جلدتها السودان ، لتتمكن من تنفيذ أغراضها ، فحصل فى ايامه من الاضطراب والفتن الداخلية شيء كثير ، وعظم شأن الوزراء حتى لقد كان الوزير يجمع بين السلطتين التشريعية والتنفيذية . ويكون قاضى القضاه وداعى الدعاة ، ويلقب بالناصر للدين ، وغياث المسلمين وسيد الرؤساء وتاج الاصفياء ، كما اتفق ذلك للحسن بن على البازورى وزير المستنصر ، الذى مكنه هذا الخليفة فى الدولة حتى صار صاحب الامر كله ، وسأله المستنصر أن يكتب اسمه معه على السكة ، فكان ينقش عليها

ضربت فى دولة آل الهدى من آله طه وآل ياسين
مستنصر بالله جل اسمه وعبده الناصر للدين

ثم كثر فى أيام المستنصر تولية الوزراء وعزلهم ، حتى كان يتولى فى السنة الواحدة ثلاثة من الوزراء ، ومنهم اليهودى ومنهم النصرانى وكثرت السعايات والوشايات حتى اشتبهت الأمور على الخليفة ، وتناقضت الأحوال وضعف الوزراء عن التدبير لقصر مدة كل منهم ، وخربت الأعمال وقل ارتفاعها ، وحصل الاستخفاف بأمور الدولة ، حتى نزع عمال الاطراف إلى الاستقلال بما فى أيديهم ، كبنى بلكين فى إفريقية والمغرب ولما تمكن بدر الجمالى من الوزارة أقصى المستنصر عن التصرف بتاتا ، ولما تولى ابنه الافضل أقام المستعلى بالله خليفة ، فلم يكن له مع الافضل أمر ولانهى ولانفوذ كلمة ، وكانت قوى الدولة فى تلك الايام قد صرفت كلها فى الشئون الداخلية ، فاغار السلاجقة وأمراؤهم والصليبيون على الشام وانقطعت الدعوة الفاطمية منها ، وظلت الفوضى التى لاحدلها فى مصر بين الوزراء

والجند أحيانا وبين طوائف الجند أنفسهم أحيانا أخرى ، حتى استخلف الفائز وعمره خمس سنوات فوثب على الوزارة طلائع بن رزيك ، فلما قتل الخليفة ولى العاضد الخلافة وعمره إحدى عشرة سنة ، وقام بتدبيره ، فلما مات وثب ابنه رزيك بن طلائع ، فكان بينه وبين شاور بن مجير السعدى والى قوص ما أدى إلى وثوب شاور على الوزارة ، فثار عليه ضرغام ، ففر من وجهه إلى الشام مستنجدا بنور الدين ، واستبد ضرغام بالدولة فقتل أمراءها وأضعفها حتى طمع فيها الفرنج ، ثم وصل شاور إلى مصر ومعه أسد الدين شيركوه وصلاح الدين بن أخيه ، وكان ما كان مما انتهى بفناء الدولة الفاطمية وتأسيس الايوبية فى مصر

(٥) ومما يذكر من الأسباب أيضاً ماحدث من إغارة الصليبيين على أملاك الفاطميين بالشام وما كان من استعانة بعض الوزراء على بعضهم ، وما كان من دخول الجنود النورية لاعادة شاور إلى الوزارة ، وهذا كله أضعف الفاطمية وأفقرها من المال والرجال ، وسهل على الطامعين فى مصر من الصليبيين والنوريين ومكنهم من تعرف مسالك البلاد وطرقها والاحساس بضعفها ، وكشف ماهو مستور من أمورها ، حتى تأتي لهم منازلة مصر وهم على يقين من الاستيلاء عليها أو كانوا على بصيرة بأحوال أهلها ، وماهم عليه من ضعف ، ومابينهم من تحاسد وتخاذل ، ومازال نور الدين يرسل اليها جنوده بدعوة ومن غير دعوة ، خشية أن يسبقه إلى تملكها الصليبيون حتى تم له ذلك على يد أسد الدين شيركوه أولا ، وعلى يد صلاح الدين الأيوبى أخيرا ، وقضى على هذه الدولة الاسلامية العظيمة بعدأن لبثت قائمة بمصر نحو ثمان ومائتى سنة ، والله مالك الملك يؤتى الملك

من يشاء وينزع الملك ممن يشاء .

المدنية الاسلامية بمصر فى عهد الفواطم

بلغت المدنية الاسلامية بمصر فى عصر الفواطم الغاية ، وهى تتجلى فى أبهة الملك ، وجلال الخليفة ، ورونق الخلافة ، وذلك انهم بعد أن تم لهم الغلب ، انتقلوا إلى تحصيل ثمرات الملك ، من الرفه والحضارة التى هى التفنن فى الترف ، وإحكام الصناعات المستعملة فى وجوهه ، من المبانى الحافلة والامصار المتسعة ، وما تميل اليه النفوس البشرية من الملاذ والنعيم بالمآكل والمشارب والملابس والآنية والأسلحة ، مما كانوا يباهون به أمم الأرض أيام أعيادهم ومواسمهم وولائمهم

وإذا نظرنا إلى الصناعات وحدها من بين دلائل المدنية الرقاية وجدنا أن عصر الفواطم بمصر هو العصر الذهبى للصناعات الاسلامية على اختلاف أنواعها ، فقد بنى جوهر القاهرة ومسجدها وبنى القصرين لسيده المعز . ثم قفى خلفاؤه بمصر على آثاره فى بناء المساجد والدور والقصور والمناظر التى أحكموا بناءها وزخرفتها ونقش جدرانها بالآيات البينات . وأسماء الخلفاء والأمراء . وتزويق سقفها بصور الحيوان والطير والنبات المورق المثمر . وجعلوا فيها من الأثاث وأدوات الاستضاءة والزينة المتخذة من الذهب والفضة والنحاس كل جيد وكل ثمين

وأخذ الأمراء والوزراء وأهل الغنى والثروة يجارون الخلفاء فى أعمالهم هذه فنشطت الصناعات وأقيمت المصانع . وشرع الخلفاء يشجعون ذويها بالاقبال على بضاعتهم وتفضيلها على الواردات الأجنبية . ومنحهم المكافآت

بل كانوا يختارون المصانع عظماء الناس من الاعيان والسراة . ويرفعونهم إلى أعلى المراتب . ويخلعون عليهم الخلع . ويمنحونهم الأوسمة ويغدقون عليهم الأموال ، وقلد الخلفاء فى هذا الموضوع الوزراء والأمراء حتى استجيد كل شيء ، وتأنق الناس فى كل شيء ، وتنعموا بكل شيء ، وتجاوزوا ضرورات العيش وخشونته . إلى نوافله ورقته . وتفاخروا بأكل الطيب ولبس الانيق . وركوب الفارة . وحيازة الثمين من الآنيـــة والفرش وملك الفاخر من الدور والقصور . وورثوا ذلك أبناءهم جيلا بعد جيل

وقد ساعد الفواطم فى نهضتهم أمور منها :

(١) وفرة الأموال لديهم بمصر . مما نقلوه اليها من المغرب . ثم مما كان من خراج مصر والمغرب والشام ، ثم مما كان من الفرائض التى يفرضونها أو يفرضها داعى الدعاة على من قبل دعوتهم واعتنق مذهبهم ثم من المغارم الاخرى

وكذلك كان أهل البلاد ـ لنمو الأحوال الاقتصادية من الزراعة والتجارة والصناعة . بكثرة ما استحدث من وسائل الاصلاح المحدثة للرخاء كالجداول والطرق . ولخصب البلاد المعروف . ولمركزها الجغرافى الفذ فى جودته الذى يساعد جد المساعدة على ارتقاء تجارة الصادر والوارد

(٢) كثرة الأيدى العاملة والماهرة من أهل مصر نفسها أو من الذين وفدوا إلى مصر أيام الفواطم من أهل الحرف النوابغ . الذين جاءوا من تلقاء أنفسهم أو استوفدهم الفواطم من العراق والشام والروم وفارس وأرمينية والمغرب ، ليقوموا فى مصر بما قاموا به فى البلاد التى وفدوا منها

(٣) منافسة العباسيين فى أبواب الحضارة — وقد بلغ العباسيون

ذروة المجد فى كل شىء غير أنهم فى عهد الفواطم نزل بدولتهم الهرم فى حين أن دولة الفواطم كانت فى إبان نهوضها ، فابتدأت من حيث انتهى العباسيون ، وطغت مدنية القاهرة ، على مدنية بغداد ، وطمست معالمها وحلت فى مراتب أرقى من مراتبها ، وطبعت بطابع ميزها عليها ، فكانت جديدة وكانت طريفة ، وكانت مستملحة ، وكانت متقبلة ، إن لم يك للرغبة فيها ، لنضرتها وجدتها : للزهد فى أمثالها من العباسية لطول عهد الناس بها فالنفوس إلى الجديد أميل وهو اليها أحب ، وهى فى القديم ازهد ، ورغبتها فيه أضعف ، وبهذا الاقبال راجت الصناعات المصرية حتى فى الأسواق العباسية ، واغتنى الصناع من الربح الوفير فاستجادوا ، وتداركوا مافات صناع العباسية من التحسين ، وأصلحوا ماوقعوا فيه من الاغلاط ، حتى برز ماأخرجته أيديهم غير قابل للنقد ، ولامتطلب الزيادة فى الاستجادة

وبالتأمل ترى أن نهضة الفواطم بمصر تماثل نهضة اليابان فى العصر الحاضر ، والسبب فى الدولتين واحد ، وهو أن كلتيهما نسجت على منوال سوابقهما من الأمم ، واقتبست آخر ماوصل اليه الاختراع والابداع ، ولم تضع وقتا ولا مالا فى التجاريب ، بل جنت ثمار قرائح الأمم الراقية وجهودها فى عصور مضت ، وابتدأت من حيث انتهت هذه الامم ، فحسنت وأصلحت فلابدع أن تظهر صناعاتها فى الاسواق فى ثوب اجمل ورواء أحلى ، على أنك تشعر أن مدنية الفواطم بمصر لم تك مجهود جيل من الناس فحسب بل كانت مزيجا من أرقى ما وصلت اليه قرائح الذين أظلتهم مصر تحت سمائها من أهليها ومن الوافدين عليها ، متنافسين متعاونين مكرمين يجدون العطف الشامل من الخليفة ووزرائه وأمرائه ، ومن أفراد الشعب على

اختلاف درجاتهم — ولهذا بلغت الصناعات بمصر أعلى الدرجات وكانت مثلا أعلى ينسج على منواله من يجىء من بعدهم

وقد قضت الايام على قصورهم ودورهم ولم يبق إلا مساجدهم ولم يحفظ من آثارهم إلا شىء يسير جدا يوجد بدار الآثار العربية ، ومن أخص ذلك قطع من الخشب والابواب والمحاريب الخشبية والمصنوعة من الجص وكلها تحف فنية فريدة فى بابها ، وعليها رسوم هندسية وزخارف متناسقة من صور الحيوان والنبات ، وصورة للحياة العامـــة للفواطم من مناظر الصيد ومجالس الانس والرقص والموسيقى ، ومجموعات من الخزف المطلى المزخرف وكلها آيات فى الابداع وحسن الذوق وجمال الفن ، وقد كتب على شىء من ذلك كله حفرا بارزا أوغائرا آيات من الذكر الحكيم بالخط الكوفى المزخرف بأشكال نباتية ، وقد بلغ هـــذا الخط فى أيامهم أعلى درجات الكمال ، وقد وجد على بعض هذه الآثار اسم الحاكم والصالح طلائع وغيرهما — ومما تقدم ترى أن الفواطم لحبهم فى الزينة والزخرفة أستباحوا التصوير المجسم وغيره وتسامحوا فيه وفى دار الآثار سبع من النحاس الأصفر ينتهى ذنبه برأس تنين ، وبه ثقوب صغيرة فى نواح من جسمه كان يستعمل فى البرك (الفسقيات) لاخراج الماء نافرا

أضف إلى هذا الرقى الصناعى ما كان من ارتقاء النظم التى اتبعوها فى سياسة الدولة . والقواعد التى أحكموا وضعها فى التشريع والتنفيذ وإنشاء الدواوين لتوزيع العمل وتحديد المسئولية وإعداد الجيوش فى البر والاساطيل فى البحر وما يتبعها من اصطبلات الخيل والبغال . ومناخات الأبل . وأهراء الحبوب وشون الاتبان . وحواصل البضاعة المملوءة بالخشب والحديد

والطراحين والمنجنيقات وأدوات الاساطيل

وقد قويت العناية بالاسطول فى مصر منذ قدم المعز لدين الله وأنشأ المراكب الحربية . واقتدى به بنوه . فواصلوا إنشاء المراكب بمدينة مصر والاسكندرية ودمياط حتى كانت قطعه تعد بالمئات وقد أحرقه شاور حينما أمر باحراق مدينة مصر خوفا من الفرنج ، وكانت الجنود طوائف تنسب كل طائفة الى خليفة أو وزير ممن مضوا أو لا يزالون أحياء كالحافظية والآمرية والجيوشية والأفضلية أو إلى جنس من الاجناس كالترك والديلم . أو إلى المستصنعين كالروم والفرنج والصقالبة ، وكان لكل طائفة منهم قواد ومقدمون يحكمون عليهم

وبعد فهذه قطرة من بحر استمددناها ، وقل من كثر اقتطفناه لبيان ما كانت عليه المدنية الاسلامية بمصر على عهد الفواطم

وإذا نحن هممنا بسرد ما كان من أبهة ملكهم وما حوته خزائنهم من التحف ، وما أحدثوه من المراكب وما أنفقوه من الاموال ، وما ادخروه من تحف استعدادا لمغالبة الايام، اضاق بشيء من ذلك نطاق الصحف وكان أشبه شيء بشعر الخيال وأقاصيص الف ليلة وليلة، فهل تصدق أن وزن ما استعمل من الذهب الابريز الخالص فى سرير الملك الكبير مائة ألف مثقال وعشرة آلاف مثقال، ووزن ما حلى به الستر الذى أنشأه أبو محمد البازورى من الذهب أيضا ثلاثون الف مثقال، وأنه رصع بألف وخمسمائة وستين قطعة جوهر من سائر ألوانه . وأن الشمسية الكبيرة كان فيها ثلاثون ألف مثقال ذهبا وعشرون الف درهم مخرقة وثلاثة آلاف وستمائة قطعة جوهر من سائر ألوانه وأنواعه، وأن ما ينفق فى سماطى الفطر والأضحى

فقط أربعة آلاف دينار، وأنه كان بالقصر الكبير خزائن عدة منها خزانة الكتب وخزانة الكسوة وخزائن الجوهر والطيب والطرائف وخزائن الفرش والامتعة وخزائن السلاح والسروج وخزائن الخيـــام وخزائن الشراب والطعام والتوابل والادم وخزائن البنود وهى الرايات والاعلام وفى كل واحدة منها مالا يكاد يتصوره العقل دهشة ولا تعرف له قيمة عظما ولا يحد كثرة ونفاسة

الازهر ونشأته والادوار التى مرت به الى العصر الحاضر

لمـا فتح المسلمون مصر واختطوا الفسطاط لم يكن بهذه المدينة غير مسجد واحد وهو الجامع العتيق أو جامع عمرو ، فلم يزل الامر على هذا إلى أن تحرك عبد الله بن على بن عبد الله بن العباس سنة ١٣٣ فى طلب مروان بن محمد ، فنزل عسكره فى شمالى الفسطاط وبنوا هنالك الابنية فسمى ذلك الموضع بالعسكر ، وصار أمراء مصر إذا قدموا ينزلون بالعسكر ، ولما تولى الفضل بن صالح بن على بنى بهذه المدينة مسجد العسكر وأقيمت الجمعة فيه وفى الجامع العتيق ، إلى أن بنى الامير أحمد بن طولون القطائع وبنى بها مسجده المعروف على جبل يشكر فاضمحل جامع العسكر وصارت الجمعة تقام بالعتيق وابن طولون، إلى أن قدم جوهر القائد من بلاد القيروان بالمغرب ومعه عساكر مولاه المعز لدين الله ، فبنى القـــاهرة وبنى الجامع الذى يعرف بالازهر فى سنة ٣٦١ ، فكانت الجمعة تقام بالعتيق وابن طولون والازهر ، إلى أن بنى العزيز بن المعز لدين الله الجامع الذى يعرف الآن بجامع الحاكم فى سنة ٣٨٠ وأكمله ابنه الحاكم ، وبنى جامع المقس وجامع راشدة ، فكانت الجمعة تقام فى هذه الجوامع إلى أن انقرضت الفاطمية

بمصر فى سنة ٥٦٧ فبطلت الجمعة من الازهر واستمرت فيما عداه لما استبد صلاح الدين بالسلطنة وولى قضاء القضاة صدر الدين بن درباس الشافعى فعمل بمقتضى مذهبه، وهو امتناع إقامة الخطبتين للجمعة فى بلد واحد، فلم يزل الازهر معطلا من إقامة الجمعة فيه مائة عام، من حين استولى صلاح الدين إلى أيام الظاهر بيبرس سنة ٦٦٥ حيث أعيدت الجمعة فيه، ومازالت عناية السلاطين والأمراء تتوجه إلى هذا المسجد بالعمارة والزيادة إلى أن كانت سنة ٨١٨ حيث ولى نظره الأمير سودوب القاضى حاجب الحجاب فجرى فى أيام نظره حوادث لم يتفق مثلها، وذلك أنه لم يزل فى هـــذا الجامع منذ بنى عـــدة من الفقراء يلازمون الاقامة فيه، وبلغت عدتهم ٧٥٠ رجلا ما بين مصريين وعجم وزيالعة ومغاربة، ولكل طائفة رواق يعرف بهم، فلا يزال الجامع عامرا بتلاوة القرآن ودراسته وتلقينه، والاشتغال بأنواع العلوم من الفقه والحديث والتفسير والنحو ومجالس الوعظ وحلق الذكر، فيجد الانسان إذا دخله من الأنس بالله والارتياح وترويح النفس مالايجده فى غيره، وصار أرباب الأموال يقصدونه بأنواع البر من الذهب والفضة والفلوس إعانة للمجاورين فيه على عبادة الله تعالى، وكل قليل تحمل اليهم أنواع الاطعمة والخبز والحلاوات لاسيما فى المواسم، فأمر هـــذا الأمير باخراج المجاورين من الجامع ومنعهم من الاقامة فيه، وإخراج ما كان لهم فيه من صناديق وخزائن وكراسى المصاحف على زعم أن أناسا من الذين يبيتون به يفعلون فيه منكرات، فحل من جراء ذلك بالمجاورين بلاء كبير وتشتت شملهم وساروا فى القرى وتبذلوا بعد الصيانة وفقد من الجامع أكثر ما كان فيه من تلاوة القرآن ودراسة العلم وذكر

الله — فلما عجل الله به استعداد المسجد شيئا فشيئا ما كان من شأنه بعناية أهل الفضل والخير حتى صار إلى ماهو عليه الآن .

وقد مضى على الأزهر اليوم نحو ألف سنة كاملة وهو المسجد الذى تقام فيه الصلوات المكتوبة والجمعة والعيدان ، وهو أيضاً الجامعة الدينية الاسلامية الكبرى التى طار صيتها فى جميع الممالك الاسلامية وغيرها ، وقد أصبح مقصد الطلاب العلم المسلمين من المشرق والمغرب ، ووجهة للزوار من أهل الملل الاخرى لمشاهدة هذا المعهد العظيم بمعالمه ، العظيم بعلمائه ، العظيم بطلابه : إذ ليس له مثيل فى جميع الأقطار الاسلامية . وليس لعلمائه نظير فى أى بقعة من بقاع الارض من حيث التربية الدينية المحضة والمكانة العلمية الفذة التى تثقف بها طائفة كبيرة من أهل مصر وغيرهم ممن وفدوا إلى الازهر (ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا اليهم)

ولو أن باحثا واسع الاطلاع يكتب الآن تاريخا للازهر من حيث كونه جامعة اسلامية يجمع فى مؤلفه تاريخ علمائه وما ألفوا من مصنفات وشروح وما كان لهم من مذاهب ومباحث ، وما كان لذلك كله من آثار فى عمران مصر وسائر البلاد الاسلامية لجاء كتابه مجلدات عدة

وقد رأت مشيخة الازهر الآن أن تضع تاريخا لنوابغ الازهريين الذين كانت لهم مواقف محمودة فى الدفاع عن الدين أو فى الوطنية أو الاجتماع ، من الذين أفادوا بعلمهم وعملهم وجاههم ونفوذهم على أن يكون هذا التاريخ من ثلاثة أجزاء أو أربعة يدرس كل جزء منها فى قسم من أقسامه الدراسية ، والغرض من هذا العمل الجليل أن يتعرف الطلاب من سير أبطالهم الازهريين كيف يكون الدرس والبحث والتحصيل والوصول

إلى الجاه والنفوذ من طريق العلم والفهم . ويتشبهوا بهذا السلف الصالح فى معالجة أمور الحياة على وجه يكفل لهم السعادة وينشدون قول الشاعر

نبنى كما كانت أوائلنا تبنى ونفعل مثل ما فعلوا

هذا — ولجميع الطوائف الاسلامية التى تقصد الأزهر للعلم . أوقاف رغب أهلوها أن تكون لهؤلاء المتعلمين رمزا من رموز العطف عليهم فى غربتهم ومعونة للبائسين وأهل الفاقة منهم . وتشجيعا على الانقطاع إلى طلب العلم والتفرغ إلى تحصيله والانصراف إلى التبحر فيه

وقد فتح الأزهر لطلاب العلم فى عهد العزيز بن المعز سنة ٣٨٠ فهو بذلك أقدم المدارس الجامعة الباقية التى ثابرت على خدمة العلم منذ أنشئت إلى الآن إلا فى بعض الأحيان . فان الحاكم بأمر الله لما أتم مسجده سنة ٤٠٤ نقل المدرسين من الأزهر اليه ولم يبق فيه إلا صلاة الجمعة . ثم أقفله صلاح الدين لأنه كان من أهل السنة المغالين فظل معطلا من الدراسة نحو ٢٦٠ سنة . ومع أن الحاكم نقل الدراسة منه إلى غيره لم يهمله ولا أهمله خلفاء الفاطميين من بعده . فان الحاكم نفسه وقف عليه سنويا من الذهب العين نيفا وألف دينار وجعل فيه تنورا (ثريا [نجفة]) من الفضة وعشرين قنـــديلا

واعلم أن الأزهر كجامعة دينية نشأ — كما نشأت الجامعات الأخرى صغيرا . ثم اتسع نطاقه شيئا فشيئا بعناية الخلفاء والأمراء والسلاطين —

كان طلابه فى أول عهده بالدراسة ٣٥ طالبا فقط . يدرسون فقه الشيعة وعلومهم فقط . أطلق لهم العزيز ما يكفى كل واحد منهم من الرزق الناض . وأمر لهم بشراء دار وبنائها . فبنيت بجانب الأزهر . فاذا

كان يوم الجمعة حضروا وتحلقوا فيه بعد الصلاة إلى أن تصلى العصر . وكان لهم من مال الوزير يعقوب بن كلس صلة سنوية . وقد خلع عليهم العزيز فى يوم عيد الفطر وحماهم على بغال . وكان ذلك أول ماعرف من إقامة درس من قبل السلطان بمعلوم جار لطائفة من الناس . وقد ألف هذا الوزير كتابا فى فقه الشيعة يتضمن ماسمعه من المعز وابنه العزيز

وكان يجلس لقراءة هذا المؤلف على الناس بنفسه . ومن قبله أيام المعز كان القاضى على بن النعمان يجلس بالأزهر ويملى على الناس مختصر ابيه فى الفقه عن أهل البيت — مما يدل على أن الأزهر فى أول نشأته كان منـــبرا للدعاية إلى الشيعة ومذاهبهم . وهذا إلى ما كان يفعله ابن كلس فى داره التى رتب فيها العلماء من الأدباء والشعراء والفقهاء والمتكلمين وأهل الجـــدل وأجرى لجميعهم لأرزاق فكانت تجرى بينهم المناظرات ، ويجلس هو يوم الجمعة فيقرأ مصنفاته على الناس بحضور القضاة والفقهاء والقراء والنحاة وأهل الحديث ووجوه أهل العلم والشهود ، فاذا انقضى المجلس من القراءة قام الشعراء لانشاد مدائحهم فيه ، وكان يجلس بين يديه الخواص والعوام لدراسة كتابه ، وكذلك كان يفعل القاضى محمد بن النعمان بالقصر فى القاهرة فيقرأ علوم أهل البيت على الرسم المتقدم لأخيه بمصر ولأبيه بالمغرب

هذه كانت نشأة الأزهر الاولى — فلما انقضت الفاطمية جاء صلاح الدين فأقفل الأزهر وقضى على علوم الشيعة من ديار مصر واقام بها مذهب الشافعى ومذهب مالك ، وبنى المدرسة الناصرية والمدرسة القمحية سنه ٥٦٦ ، وكلاهما بجوار الجامع العتيق الاولى للشافعية والثانية للمالكية ، والأولى أول مدرسة بنيت بديار مصر

عود — ثم عادت الدراسة إلى الازهر بعد زوال الأيوبية وأقبل المسلمون عليه من كل فج ، حتى صار عدد طلابه يعدون بالألوف ، وصار منبعا للعلوم المتنوعة من التفسير والحديث والعقائد والفقه والأصول والنحو والصرف وعلوم البلاغة والأدب والانشاء والعروض والقافية والمنطق والحكمة والفلسفة — وهذا إلى العلوم الحديثة من الفلك والحساب والهندسة والجبر والميقات والجغرافية والتاريخ والطبيعة والكيمياء والطب

وكان الأزهر فى نظامه الأول يسير على صورة فطرية يقصده الطالب وينتظم فى سلك أبنائه مختارا بلا قيد ولا شرط تقريبا ، ويختلف إلى من يشاء من العلماء ، ويختار المذهب الاسلامى الذى يرتضيه ، ولا يزال يشتغل ما شاء من السنين حتى يحس أنه من أهل الكفاية للتدريس ، فيتخذ مكانا يعرض فيه نفسه على الطلاب ويجلس بينهم للتدريس ، فاذا اطمأنوا اليه لازمه بعضهم ، وهذا هو الشهادة التى تخوله حق التدريس بالأزهر

ولما رأى الشيخ المهدى الاول أن هذه الطريقة من الفوضى بحيث تمكن من لا يعرف من العلم إلا أسماء العلوم أو الكتب من التصدى للتدريس والتعليم ، قصد أن يدخل على نظام الأزهر من الاصلاح ما يتفق مع الرقى الاجتماعى وقاية للعلم وأهله فوضع حوالى سنة ١٢٨٩ ﻫ (١٨٧٢م) أول قانون لتنظيم الأزهر ورسم فيه امتحانا لمن يريد أن يتصدى للتدريس وأدخل على هذا القانون تعديل وتحوير تمشيا مع الأحوال أيام الشيخ الانبابى والشيخ حسونه ومن تلاهما ، وكان ممن لهم يد بيضاء فى سبيل إصلاح الأزهر مفتى الديار المصرية الشيخ محمد عبده والشيخ عبد الكريم

سليمان وغيرهما من أبطال الأزهر السابقين رحمهم الله ورضى عنهم وما زال الازهر يرقى وتوضع له النظم حتى صار إلى ما هو عليه الآن

فقد صار به قسم عام وقسم ابتدائى وقسم ثانوى . وثلاث كليات للدراسة العالية الحقت بها شعب التخصص . ولكليتى الشريعة واللغة العربية دراسات أعلى من دراسة الكليتين للتخصص

وألحق بالازهر المعاهد الدينية فى الاسكندرية ودمياط وطنطا والزقازيق وأسيوط وما يستجد فى المدن الاخرى من الديار المصرية . وله مكتبة قيمة تحوى أكثر من ٧٠٠٠٠ مجلد بين مخطوط ومطبوع . وفيها من أمهات الكتب ونوادرها ما قد لا يوجد فى دار أخرى من دور الكتب والانتفاع بها عام .

العلوم والآداب والفنون الجميلة

كان من أجلى مظاهر الحضارة الاسلامية الزاهرة بمصر فى العصر الفاطمى ، نهضة العلوم والآداب والفنون الجميلة

ذلك أنهم لما تم لهم الاستيلاء على هذه البلاد عملوا على مسابقة العباسيين فى هذا المضمار أيضاً ، واتخذوا من الجد فى نشر علوم الشيعة وسيلة إلى النهوض بالعلوم والفنون المختلفة ؛ حتى أينعت وأثمرت وآتت أكلها ضعفين

فأما عنايتهم بعلوم آل البيت فلأنها دعامة إمامتهم وخلافتهم ، وحياطة لما ذهبوا اليه من صحة نسبهم إلى فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإلى بعلها على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وصى رسول الله وأخيه وابن عمه واولى الناس بالخلافة من بعده على أمته وشريعته ، ومابنوه على صحة هذا النسب من استحقاقهم الخلافة،وقيامهم فى وجه من اغتصبهم هذا الحق وظلمهم

ولهذا استعملوا مااستطاعوا من قوة ، وبذلوا كل ماوفقوا اليه من حيلة ، فى استمالة قلوب مخالفيهم فى المذهب حتى استمعوا اليهم واتبعوهم ، فانتشرت دعوتهم وكثر دعاتهم واتسع نطاق دعايتهم وأخذ علماؤهم يتفننون فى أساليب استهواء الناس ، طورا بالخطابة فى المساجد والمشاهد ، وتارة بتأليف الكتب والرسائل ونشرها

ولما كان أكثر أهل مصر على مذهب أهل السنة والجماعة ، استدعى الحال حركة من جانبهم للرد على الشيعة،طورا بالمناظرات وتارة بالخطابة والتأليف،غيرة على الشريعة المطهرة أن يدخل فيها ماليس منها ،

وعلى أهل الدين الحنيف أن يلبس الشيعة عليهم دينهم

فحصل من وراء هذا وذاك ، ثورة علمية حادة ، وحركة فكرية قوية ، كان قادتها من أقوى علماء الفريقين علما وإتقانا ، وبلاغة وغيرة وبيانا وحجة ، وتباروا فى التعليم والتدريس ، وتنافسوا فى الخطابة والتأليف وعكفوا على كتب السلف ، فشرحوا غوامضها ، وقربوا القصى من إشاراتها ، وفصلوا ما أجمل منها ، وكشفوا القناع عما خفى من أسرارها ، واختصروا المطول منها ، وتناولوها بالضبط والتحرير ليكون تحصيلها أسهل وأصلح ، وتكون حجتها أقوى وأوضح

ولما كتب الحاكم سجله الذى أباح به للناس الحرية فى القول والرأى ، وأمر بقراءته على المنابر وكان فيه (لكل مسلم مجتهد فى دينه اجتهاده ، وإلى الله ربه معاده ، عنده كتابه ، وعليه حسابه) وكانت المساجد الجامعة بمصر والفسطاط مراكز للدعوة الشيعية وتلقين الوافدين عليها علوم آل البيت ، تحولت رويدا رويدا إلى مدارس عامة يدرس الفريقان فيها العلوم الدينية وغيرها ، من الفقه والأصول والتفسير والحديث والعقائد والمنطق والفلسفة والحكمة الطبيعية ، ووفد اليها طلاب العلم من كل فج ، وبخاصة الأزهر ، وجعل فى كل مسجد منها مكتبة واسعة فيها من الكتب ما يرجع اليه العلماء والطلاب كلما دعت الحاجة ، وجل هذه الكتب مما كان يسمى (دار العلم)

دار العلم

وكانت بجوار القصر الغربي من الشمال ، وقد فتحت فى جمادى الآخرة سنة ٣٩٥ ولقبت بدار الحكمة وجلس فيها الفقهاء ، وحملت اليها الكتب من

خزائن القصور؛ ودخل الناس اليها ، ونسخ كل من التمس نسخ شيء مما فيها ماالتمسه، وكذلك من رأى قراءة شيء مما فيها ، وجلس فيها القراء والمنجمون وأصحاب النحو واللغة والأطباء ، بعد أن فرشت وزخرفت ، وعلقت على جميع أبوابها وممراتها الستور ، وأقيم لها قوام وخدام . وحصل فى هذه الدار من خزائن الحاكم بأمر الله . من الكتب التى أمر بحملها اليها من سائر العلوم والآداب والخطوط المنسوبة . مالم ير مثله مجتمعا لأحد قط من الملوك . وأباح ذلك كله لسائر الناس على طبقاتهم ممن يؤثر قراءة الكتب والنظر فيها، فكان ذلك من المحاسن المأثورة أيضا التى لم يسمع بمثلها من اجراء الرزق السنى لمن رسم له بالجلوس فيها والخدمة لها من فقيه وغيره وحضرها الناس على طبقاتهم ، فمنهم من يحضر لقراءة الكتب ومنهم من يحضر للنسخ ومنهم من يحضر للتعلم ، وجعل فيها مايحتاج الناس إليه ، من الحبر والاقلام والورق والمحابر

وفى سنة ٤٠٣ أحضر جماعة من دار العلم من أهل الحساب والمنطق وجماعة من الفقهاء وجماعة من الاطباء إلى حضرة الحاكم ؛ وكانت كل طائفة تحضر على انفرادها للمناظرة بين يديه ثم خلع على الجميع ووصلهم . ثم حبس على هذه الدار حبوسا سنوية تكفل صيانتها وصيانة من يقصدها ومعونتهم باستمرار حتى يحصلوا على جميع أغراضهم من قصدهم اياها

وقد ظلت هذه الدار إلى أن أبطلها الأفضل بن أمير الجيوش على زعم أنها سبب اجتماع الناس وخوضهم فى المذاهب

أما خزانة الكتب التى كانت بالقصر ، فكانت أربعون خزانة ، من جملتها ثمانية عشر ألف كتاب فى العلوم القديمة فضلا عن العلوم

الأخرى ، وقد أنشأها المعز لدين الله من الكتب الوفيرة التي نقلها معه من مكتبته التي كانت بالقيروان ، وكان مولعا بجمع النوادر منها ، وكانت تحتوى على عدة رفوف مقطعة بحواجز وعلى كل حاجز باب مقفل بمفصلات وقفل ؛ وفيها من أصناف الكتب ما يزيد على مائتى ألف كتاب فنها الفقه على سائر المذاهب ، والنحو واللغة وكتب الحديث والتواريخ والنجامة والروحانيات والكيميا ، من كل صنف النسخ ، فكان من تاريخ الطبرى عشرون نسخة ، منها نسخة بخطه ، ومائة نسخة من كتاب الجمهرة لابن دريد ؛ ومن كتاب العين نيف وثلاثون نسخة منها نسخة بخط الخليل بن أحمد — وعلى باب كل خزانة ورقة ملصقة بما فيها ، وقد تلفت كلها أيام الفتن فى عهد المستنصر وبيعت بأبخس الأثمان واستعمل العبيد والاماء جلودها نعالا وأحرقوا أوراقها تأولا منهم أنها خرجت من قصر السلطان وأن فيها كلام المشارقة الذى يخالف مذهبهم ، وانتهب كثير منها وحمل إلى سائر الأقطار — وكانت منها بقية إلى أيام صلاح الدين ، كانت من عجائب الدنيا فباعها هذا السلطان فى عدة أعوام ، وأخذ منها لنفسه القاضى الفاضل مائة ألف كتاب مجلد جعلها فى مدرسته الفاضلية

وقد عنى الفاطميون بالعلوم الأدبية ، فان المعز وبنيه قد اشتغلوا بها فشجعوا الأدباء ورفعوا من قيمة الأدب ، وأغدقوا على أهله ، فانقطعوا اليه ونبغوا واستجادوا ليسبقوا أمثالهم من أدباء بغداد وقرطبة

وكان المعز شاعرا مكثرا فى كل أبواب الشعر إلا المديح ، ومن ذا الذى يحاول المعز مدحه حتى يسهل عليه القول فيه ، وهو لا يظن أحدا أعلى منه منزلة ولا أكرم منه نفسا ولا أبسط منه يدا ولا أحسن منه خلقا

ولا أكثر منه مالا وولدا ولا أقوى منه عصبية ولا أعظم منه دولة وصولة ، وكذلك كان العزيز وتميم ، فما بال أهل الأدب بمصر وقد تولى قيادهم فى هذا المضمار الخليفة وأبناؤه

وقد اندفع الشعراء من أهل السنة والجماعة والشيعة إلى هذا الميدان فبرزوا فى مدائحهم والرد على من يقول فيهم مالا يرضى ، واندفع الخلفاء من ناحيتهم بالجوائز السنية حتى تطاول إلى مدحهم شعراء البلاد الأخرى طمعا فى عطاياهم ، بل هاجر فريق منهم إلى مصر ليشارك شعراءها وأدباءها فى هذه الحركة ، ومنهم ابن نصر البغدادى وعمارة اليمنى الذى يقول فى رثائهم من قصيدة

لهفى ولهف بنى الآمال قاطبة ... على فجيعتها فى أكرم الدول
قدمت مصر فأولتنى خلائفها ... من المكارم ما أربى على أملى
قوم عرفت لهم كسب الألوف ومن ... كمالها انها جاءت ولم أسل

إلى أن يقول

وللجوامع من إحسانكم نعم ... لمن تصدر فى علم وفى عمل
وربما عادت الدنيا فمعقلها ... منكم واضحت بكم محلولة العقل
والله لافاز يوم الحشر مبغضكم ... ولانجا من عذاب النار غير ولى
ولا سقى الماء من حر ومن ظمأ ... من كف خير البرايا خاتم الرسل
ولا رأى جنة الله التى خلقت ... من خان عهد الامام العاضد بن على

وعمارة هذا لم يكن على معتقد الشيعة ، بل كان فقيها شافعيا ، قدم مصر برسالة عن القاسم بن هاشم أمير مكة إلى الفائز سنة ٥٥٠ فى وزارة الصالح طلائع بن رزيك فأحسنوا اليه وبالغوا فى بره فاقام عندهم ، وتألف بهم

وأتى فيهم من المدح بما بهر العقول ، ولم يزل مواليا لهم حتى زالت دولتهم فرثاهم بهذه القصيدة ، فكانت آخر أسباب حتفه ، فصلب فيمن صلب بين القصرين من اتباع الفاطمية

وكان للفنون الجميلة حظ وافر من العناية وقد ظهرت في الرسم وصناعة التماثيل والنقش والوشي والتطريز والتصوير ، وكان التنافس بين أهل هذه الفنون الزخرفية كما كان بين أهل حرفة الادب ، وكانت جوائزهم لجوائزهم ، ولعلنا لا نفشي سرا إذا قلنا : وقد ارتقت الموسيقى والرقص والغناء وفنون الخلاعة والمجون ، وبخاصة في عصر الظاهر والأيام التي تلته

والمعروف أن أول من اتخذ الحجر المنحوت في بناء القصور والمشاهد والمساجد بمصر هم الفواطم ، وقد أحكموا هندستها وزخرفتها ونقشها نقشا بارزا أوغائرا : بالآيات البينات مكتوبة بالخط الكوفي (الذى بلغ نهاية الحسن في عصر هذه الدولة) أوغيره من الخطوط العربية أو بالرسوم الزخرفية الهندسية أوصور النبات والحيوان والطير

وتحتوى دار الآثار العربية على شيء كثير من المحاريب والابواب والشبابيك . يعتبر كله آيات من آيات الفنون الزخرفية ، وهذا إلى الأدوات المتخذة من الرخام والعاج والفخار والزجاج والبلور والنحاس والمعادن الأخرى ، منقوشة أومفرغة ، وقد عثر على قطعة خشبية بها زخارف محفورة تمثل مناظر للصيد والرقص والموسيقى وكانت بالقصر الغربي

أما النسيج الحريرى وتطريزه بالذهب والفضة فقدأخرج من القصر أيام المستنصر ستور من الحرير منسوجة بالذهب ،على اختلاف ألوانها واطوالها مايقرب من ألف ، فيها صور الدول وملوكها ، والمشاهير فيها ،

مكتوب على صورة كل واحد اسمه ومدة أيامه وشرح حاله

وقد صار إلى أحـــد الأمراء مقطع من الحرير الأزرق التسترى غريب الصنعة، منسوج بالذهب وسائر ألوان الحرير، كان المعز لدين الله أمر بعمله سنة ٣٥٣. فيه صور أقاليم الأرض وجبالها وبحارها ومدنها وأنهارها ومسالكها شبه (جغرافيا) وفيه صور مكة والمدينة، مبينة للناظر، مكتوب على كل مدينة وجبل وبلد ونهر وبحر وطريق اسمه بالذهب أو الفضة أو الحرير

وفى آخره (مما أمر بعمله المعز لدين الله، شوقا إلى حرم الله، واشتهارا لمعالم رسول الله فى سنة ثلاث وخمسين وثلثمائة، والنفقة عليه اثنان وعشرون الف دينار)

الاعياد والمواسم

للمسلمين عيدان وردت بهما الشريعة وجاءت السنة. فأول ما بدىء به عيد الفطر ثم تلاه عيد الأضحى، وكان ذلك سنة اثنتين من الهجرة

ثم ابتدعت الشيعة عيدا ثالثا سموه عيد الغدير. وسبب اتخاذهم له: مؤاخاة النبي صلى الله عليه وسلم لعلى كرم الله وجهه يوم غدير خم، وهو غدير على ثلاثة أميال من الجحفة يسرة الطريق، تصب فيه عين وحوله شجر كثير وهى الغيضة التى تسمى بها.

وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رجع من حجة الوداع نزل بالغدير، وآخى بين الصحابة ولم يؤاخ بين علي وبين أحد منهم، فرأى النبي منه انكسارا، فضمه اليه وقال: أما ترضى بأن تكون منى بمنزلة هرون

من موسى إلا أنه لا نبى بعدى ؟ والتفت إلى أصحابه وقال : من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه — وكان ذلك فى ١٨ ذى الحجة سنة ١٠

والفاطميون بمصر من الشيعة كانوا يحيون ليلة هذا العيد بالصلاة ، ويصلون فى صبيحتها ركعتين قبل الزوال ، وشعارهم فيه لبس الجديد ، وعتق العبيد ، وذبح الأغنام ، والحاق الأجانب بالأهلين فى الاكرام ، والشعراء والمترسلون ينشئون الكبراء منهم بهذا العيد — وفيه يكون تزويج الايامى ، وفيه تفريق الكسوة والهبات لكبراء الدولة وشيوخها وأمرائها وضيوفها

وكان لهم فى طول السنة أعياد ومواسم وولائم تتسع بها أحوال الرعية وتكثر نعمهم ، فكان الخليفة إما أن يجلس للناس بالقصر ويطعم وينعم ، وإما ان يركب إلى المساجد والأماكن الأخرى فيعطى العطايا ويهب الهدايا ، حتى كف الناس عن عدائهم ومالوا اليهم ، فان الذى يولى الجميل محبب ، ومن يفعل الخير لا يعدم جوازيه

وكان من أهم مواسمهم التى يعنون بها :

(١) ليلة أول المحرم من كل عام ، لأنها أولى ليالى السنه ، وابتداء أوقاتها

(٢) يوم أول المحرم ، وكان يركب فيه الخليفة بزيه المفخم وهيئته العظيمة ، ويفرق دنانير الغرة ، ويتناول الناس من سماط ليلة المحرم ويومه مايجل وصفه

(٣) يوم عاشوراء — وكانوا يتخذونه يوم حزن تتعطل فيه الأسواق ويعمل فيه سماط الحزن ، وكان يصل إلى الناس منه شيء كثير ، فلما زالت دولتهم اتخذه الأيوبيون يوم سرور ليرغموا بذلك أنوف الشيعة

وكلا الفعلين غير جيد، وكان الأفضل ترك ذلك والاقتداء بفعل السلف في التوسعة على العيال

(٤) الموالد الستة ، وهي مولد المصطفى صلى الله عليه وسلم ومولد علي بن أبي طالب ومولد الحسن ومولد الحسين ومولد فاطمة الزهراء ومولد الخليفة الحاضر

(٥) ليالي الوقود الأربع ، وهي ليلة أول رجب وليلة نصفه وليلة أول شعبان وليلة نصفه — وكان يجلس فيها الخليفة في منظرة ، وهنالك يفد عليه الناس ثم يقرأ القراء ويخطب الخطباء منبهين على فضيلة الشهر — وكانت من أبهج الليالي وأحسنها ، يحشر الناس لمشاهدتها من كل أوب ، وتعمل اليوم فيها أنواع من البر ، وتعظم فيها مبرة أهل الجوامع والمشاهد

(٦) موسم شهر رمضان ، وكان لهم في هذا الشهر عدة أنواع من البر . وفي غرته يركب الخليفة : وهذا الركوب يقوم مقام الرؤية . كما يركب في جمعته الثانية إلى الجامع الأنور وفي الثالثة إلى الأزهر وفي الرابعة إلى العتيق — أما سماط رمضان فيبسط كل ليلة بالقصر ، وكانت نفقاته ثلاثة آلاف دينار

(٧) موسم عيد الفطر . وكان لهم فيه عدة وجوه من الخيرات منها تفرقة الفطرة وتفرقة الكسوة وعمل السماط ، وركوب الخليفة لصلاة العيد

(٨) موسم عيد النحر — وفيه تفرقة الرسوم من الذهب والفضة وتفرقة الكسوة لأرباب الخدم من أهل السيف والقلم ، وتفريق الأضاحي وركوب الخليفة لصلاة العيد

وكان ماينفق فى سماط هذين العيدين أربعة آلاف دينار

(٩) الركوب لوفاء النيل ، والركوب لفتح الخليج — وفى هذا الأخير يركب الخليفة على عادته فى المواكب العظيمة بالمظلة وتوابعها من السيف والرمح والالوية وسائر الآلات؛ إلى الخيمة العظمى المعروفة بالقاتول التى تنصب فى بر الخليج الغربى عند منظرة السكرة بالقرب من فم الخليج؛ فيقرأ القراء ويتقدم الشعراء واحدا واحدا ؛ وينشد كل منهم ماوقع له نظمه مما يناسب الحال ، والحاضرون ينقدون كل شاعر

وكان لهم فى هذا الموسم وجوه من البر كتفرقة الرسوم على أرباب الدولة من الكسوة والعين والمآكل والتحف

وكان الخليفة إذا ركب فى المواكب العظام خرج فى ثيابه الخاصة بكل موسم على رأسه التاج ؛ وعلى وجهه الدرة اليتيمة ، متقلدا السيف العربى وبيده قضيب الملك ؛ والوزراء والأمراء ورجال الدولة من الجند وغيرهم حوله ركبانا ومشاة ، ولعل ركوب الخليفة فى الموالد الآن صورة مصغرة لما كان أيام الفواطم ، ولكن شتان مابين الخليفتين

ولن يتساوى سادة وعبيدهم على أن أسماء الجميع موالى

وفى هذه الاشارة مايغنى عن التفصيل

وهذه المواكب كانت أكبر أنواع الدعاية للفاطميين وكان أثرها أعظم فى نفوس الناس من أعمال الدعاة والنقباء

على أن الفاطميين حاولوا أن يكون جميع أهل مصر بلا تمييز بين الديانات مستمتعين بعطاياهم ، وجدوا فى وضع النواة الأولى لتكوين القومية المصرية من حيث لايشعر الناس ، فاقاموا أعيادا أخرى : كعيد

النوروز وقد أعاده الآمر بعد أن منعه المعز ، مع أنه كان موسم بطالة وضلالة ومنكرات ظاهرة وفواحش صريحـــة ، وهو يوم أول توت أو أول السنة القبطية — وكذلك موسم الغطاس (٢١ طوبة) الذى أمر الظاهر لأعزاز دين الله بأن توقد فى ليلته المشاعل والنار ، وكان من رسوم الدولة أن يفرق فيه على سائر أهلها الترنج والنارنج والليمون والقصب والسمك برسوم مقررة لكل واحد من أرباب السيوف والأقلام وكذلك عيد الميلاد وهو اليوم الذى ولد فيه السيد المسيح عليه السلام ويعمله قبط مصر فى التاسع والعشرين من كيهك — وكان من رسوم الفاطمية فيه تفرقة الجامات المملوءة من الحلاوات القاهرية وغيرها ، فيشمل ذلك أرباب الدولة أصحاب السيوف والأقلام وغيرهم ،

وهذا كله إلى ما كان يسمى أيام الركوب ، كركوبه فى كل سبت وثلاثاء إلى متنزهاته بالبساتين ومنازل العز والروضة ، فيعم الناس فى هذه الأيام من الصدقات أنواع ما بين ذهب ومآكل وأشربة وحلاوات وغير ذلك

وكذلك الركوب لصلاة الجمعة ، وكان يحصل ذلك ثلاث مرات فى السنة لصلاة الجمعة بالناس فى الجامع الأزهر مرة وفى جامع الخطبة وهو الجامع الحاكمى مرة وفى جامع عمرو بالفسطاط مرة . فينال الناس من الخليفة فى هذه الجمع الثلاث رسوم وهبات وصدقات

هذه المواكب والمفاسد والأيام والمواسم التى ابتدعها الشيعة بمصر أو جاروا أهل الملل الأخرى فى إقامتها وصارت على مر الأيام من الخطط الخلافية والشعائر الدينية وليست من الدين فى قليل ولا كثير ، كانت من

ضروب الخداع السياسى العميق وحسن السبك واستهواء الناس بالمظاهر الكاذبة والانفاق عليهم من سعة ، حتى أصموهم وأعموا أبصارهم واستلبوا منهم عقولهم وشغلوهم بما زينوا لهم من الأعمال عن البحث فى أنسابهم واستقصاء أصولهم والتعرض لاجراءاتهم الادارية وغــيرها ، بل تحول عدؤهم إلى معاونة ، وتبدلت سيئاتهم حسنات وغالى الناس فى احترامهم إلى درجة التقديس بل رفعوهم إلى درجة عالم الغيب والشهادة ، وورثوا ذلك أبناءهم من بعدهم ، فهذا هو أصل علوية أهل مصر وسبب ميلهم إلى الفاطميين وعلة محافظتهم إلى اليوم على مارسموا من خطط وما أقاموا من بدع وما خلقوا من إفك

فهل مما ورثه الفاطميون عن آبائهم الطيبين الطاهرين الركوب للصلوات وغيرها بالتاج ذى اليتيمة التى لا تقوم بمال ، وبالقضيب الزمرد الملبس بالذهب والجواهر وبلباسه الخاص المتخذ من الدمقس ومن الحرير المزركش باسلاك الذهب والفضة ، على رأسه المظــلة وعلى جبين فرسه (الحافر) وهو قطعة من الياقوت الأحمر فى شكل الهلال ليس لها نظير فى الدنيا ؟ وهل ذلك السرف فى الأكل والشرب وعوائد الترف والنعيم والاسراف فى الأموال تنفق فى غير وجوه البر المشروعة لاستهواء العامة والخاصة ، مما رسمه اليهم على بن أبي طالب فى تعاليمــه التى رووها أو جعفر الصادق فى جفره الذى ورثوه وعلموا منه مالم يعلمه غيرهم من عباد الله ؟

بدء تكوين القومية المصرية الحديثة

دخل العرب المسلمون مصر والخلاف الدينى بين طوائف المسيحية على أشده ؛ والانشقاق بين صفوف الأهلين قائم على ساق وقدم . وعسف الروم بمن يخالفهم فى المذهب لا يقف عند حد ، حتى كادت تمحق البلاد محقا ، وينكر الناس فيها بعضهم بعضا ، وتنفصم عرى الرابطة النسبية بينهم ، بله الجامعة القومية والوطنية

فلما مكن الله للمسلمين فى هذه البلاد ، وجعل لهم الولاية على أهلها ، ساسوهم على مقتضى قواعد الاسلام ، من العدل والانصاف ، وتوخى الحق أنى كان ، والتسامح المؤسس على ترك الناس أحرارا فيما يعتقدون ، وعدم التحيز إلى فريق دون فريق ، والضرب على أيدى الذين كانوا يستعملون سلطة وظائفهم فى إكراه الناس على عقيدة يرونها كفرانا . ومقالة يتصورونها بدعة ، ومازال المسلمون يجاهدون فى هذا السبيل ، حتى قطعوا دابر العدوان . فضاق نطاق الخلاف رويدا رويدا ، وعاد المتدابرون إلى الوفاق شيئا فشيئا . ورأوا زمام السلطة عليهم بيد حاكم لا يعرف فى الحق هوادة . ولا يخشى فى الله لومة لائم . فمالوا جميعاً إلى ناحيته . وأذعنوا إلى أحكامه وانضموا إلى صفوفه ، بل ان كثيرا منهم بعد أن رأى من المسلمين ما رأى جرد نفسه من التعصب الممقوت ، ونظر فيما يدعو إليه الاسلام من توحيد الله والتحلى بالمكارم ، والتجافى عن الرذائل والتصديق بأنبياء الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، أقبلوا على هذا الدين زمرا . ودخلوا فيه أفواجا . وبخاصة حينما نفروا من الجزية ، وعلم أولو الرأى منهم أنه لا فارق بين المسيحية والاسلام ، وأن دين الله واحد فى كل زمان

ومكان ، وبذلك بحوه امتزج القبط بالعرب ، وحصلت المصـــاهرة بين الفريقين ، أخذت الفوارق العصبية تضعف تدريجا ، وعروة الوطنية المصرية تزداد وثوقا على مر الأيام —

غير أن شيئا واحدا بقي ولم تستطع الايام محوه من النفوس ، ذلك أن القبط كانوا ينظرون إلى العرب نظر المغلوبين ، وينظر هؤلاء اليهم نظر الفاتحين ، ثم ينظر الجميع إلى أن مصر ليست وحدة مستقلة . بل جزءا متمما للدولة الخلافة الاسلامية ، وأن الوالى عليهم ليس مطلق التصرف ؛ وإنما يصدر عن رأى الخليفة ، ويجبى الخراج باسمه ، ويدعو في الخطبة له ، وللخليفة أن يعزله متى شاء أو يبقيه ، وله أن يفرده بالصلاة والخراج وله أن يفرد لكل منهما عاملا ، ومن جراء ذلك كان الشعور بالقومية الناضجة ضعيفـــا والاحساس بالوطنية التامة ناقصا ـ ولم يتغير هذا الاحساس أيام ابن طولون وابن طغج الا شيئاً يسيرا

ولمـــا دخل الفاطميون مصر . تجدد الخلاف الدينى لا بين المسيحيين بل بين المسلمين . إذ كان المسلمون من أهل مصر على مذهب أهل السنة والجماعة . وكان هؤلاء الفاتحون على مذهب الشيعة من الاسماعيلية الرافضة . غير أن مذهب الرفض انتشر بسرعة مدهشة في البـــلاد ومال اليه أكثر الناس طوعا أو كرها ؛ وذلك لأمور ، منها أن جرثومة التشييع كان لها أساس بمصر منذ أيام عثمان رضى الله عنه ، ومن جرائها خرج أهل مصر على هذا الخليفة وقتلوه ، ومنها أن الفواطم كانوا كلما غزوا مصر لم يفلحوا من الوجهة الحربية ، تركوا فيها نفراً من دعاتهم وأعانوهم بالأموال ؛ فتكون منهم على مر الايام جماعـــة تدعو سراً إلى آل البيت

والتمذهب بمذهبهم والقيام فى معونتهم ، فانهم أهل الحق الاول فى الخلافة وإنما اغتصب الناس هذا الحق منهم اغتصابا — ومنها أنهم لما دخلوا مصر استعملوا الاساليب المختلفة فى حمل الكافة على مذهبهم ، طورا بالقوة ، وتارة ببذل المال ، وتارة بالمحاضرات وإقامة المساجد والمعاهد وبث الدعاة وحمايتهم وغير ذلك

ولما قام أهل السنة يقاومونهم بالحجة ويقارعونهم بالدليل : كانت جهودهم فى هذا السبيل تذهب صرخة فى واد ، ولا تجد آذانا واعية لأن الناس على دين ملوكهم

على أن هذا النفور بين المسلمين لم يلبث إلا قليلا ، فان الفوارق لم تك فى أصل العقيدة ولا فى شىء من أصول الدين وقواعده الاساسية وإنما كانت فى شىء من الفروع لم يجده الخلف داعية الخلاف ، وأخصه مايسمى بالخلافة أوالامامة — وبهذه المناسبة أقول : إن صوتا يتردد الآن فى بلاد المسلمين للجد فى محو هذا الخلاف الذى دبرته فى الاصل عقول جبارة لالماء العداوة والبغضاء بين المسلمين حتى تفرقت وحدتهم ، فضعفوا حتى استذلوا ، وحبذا لو قوى هذا الصوت فمحا من بين المسلمين مايسمى المذاهب الاربعة وصير الاسلام مذهبا واحدا هو مذهب القرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه مع الاستئناس بالصحيح الثابت من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم

عود — ولما ساد مذهب الشيعة بمصر صارت البلاد أسرة إسلامية وجهتها واحدة وهى المحافظة على الخلافة العلويه والقضاء على العباسية وأخذ الخلفاء الفاطميون من ناحيتهم يقوون هذا الشعور فى نفوس الناس

حتى نمى، وتعهدوه حتى شب وترعرع ، ثم أخذوا يقطعون دابر الخلاف بين أفراد الشعب على اختلاف نحلهم وعصبياتهم ويقسمون بينهم أعمال الدولة بالسوية . حتى لقد ولوا النصارى واليهود الوزارة رجاء أن يكون الناس جميعا على أتم استعداد للتعاون معهم والطمع فى جانبهم والاخلاص اليهم

وما أدراك أن أهل مصر بهذه السياسة نسوا أن الفاطميين فاتحون وأنهم مغلوبون اليهم ، واستحال هذا النفور إلى ألفة . وانقلب ذلك التحدى إلى خضوع ، وذلك العصيان إلى طاعة ، وذلك التخاذل إلى تعاون، وشعروا أن الفواطم ما دخلوا مصر إلا لتخليص أهلها من ذل الرق إلى عز الحرية ومن جحيم الاستعباد إلى نعيم الاستقلال ؛ وأنهم ما دخلوا مصر إلا ليرفعوا من شـــأن أهليها . ويرتقوا بهم من حضيض المسكنة إلى ذروة المهابة ثم ازداد هذا الشعور فيهم حتى ملأ نفوسهم ورسخ رسوخ العقيدة . فرأوا أن الخلافة الحقة هى خلافتهم العلوية المصرية ، وأن الامام الحق هو إمامهم الفاطمى ؛ وأنه الامير وهم اتباعه . وصاحب التاج وهم أعوانه ، وصاحب الامر وهم شعبه الخاص ، درجوا على ذلك أياما حتى أصبحوا يباهون بخلافتهم فى مصر ، خلافة بنى العباس فى بغداد ، وبنى أمية فى قرطبة ، ويرون أنهم حازوا قصب السبق فى ميدان الحيـاة السعيدة دون بقية الشعوب الاسلامية ، وأصبحوا يضيفون كل عظيم بمصر اليهم ، فيقولون مثلا : جيشنا واسطولنا . وخلافتنا وخليفتنا . وأملا كنا ومستعمراتنا وتجارتنا وصناعتنا ودنانيرنا ودراهمنا . وعزنا ومجدنا وديارنا وأمصارنا . وعلومنا وفنوننا

وما إلى ذلك مما يدل على أن الروح الوطنية بمصر على عهد الفواطم قد سادت . وأن كيان القومية المصرية فى أيامهم كان قد قوى أساسه واشتدت

أركانه وعلا بنيانه . وأن ذلك كله قد أنشيء على مبــدأ إزالة الفوارق الطائفية ومزج العصبيات . ومعاملة الأفراد علي قدم المساواة . وجعلهم سواسية في الحقوق حتى صار الحاكم والمحكوم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا . وصار المسجد للمسلمين . والكنيسة والبيعة لأهل الطوائف الاخرى . ومصر وطن للجميع . والله ولي التوفيق

أسئلة

(١) إلى من ينتسب الفواطم ومتى طعن العباسيون في نسبهم ؟ ولمــاذا لا يؤخذ برأى العباسيين فيهم مــع أنهم بآل البيت أعرف وبنسبهم أعلم ؟

(٢) لماذا عنى الفواطم بالاستيلاء علي البلاد المصرية وإلى أى مدى تحققت آمالهم التي بنوها على أخذ مصر؟

(٣) كم مرة هاجم الفواطم البلاد المصرية. ولماذا لم يتمكنوا من أخذها إلا بعد تكرر هجومهم عليها ولماذا تمكنوا من فتحها أخيرا؟

(٤) اذكر ماتعرفه عن المعز لدين الله الفاطمي والآثار التي تنسب اليه بعد دخوله مصر

(٥) للحــاكم بأمر الله بعض أمور كانت مستحسنة وأخرى كانت سيئة : أذكر شيئاً من حسناته . وشيئاً من سيئاته وعلل لهــا حتى تردها إلى حسنات .

وبهذه المناسبة أقول : روى المسيحي أنه في محرم سنة ٤١٥ قبض على رجل من بني حسين ثار بالصعيد الأعلى فأقر بأنه قتل الحاكم بأمر الله

فى جملة أربعة أنفس تفرقوا فى البلاد ، وأظهر قطعة من جلدة رأس الحاكم وقطعة من الفوطة التى كانت عليه . فقيل له : لم قتلته ؟ فقـــال غيرة لله والاسلام ، فقيل له كيف قتلته فأخرج سكينا ضرب بها فؤاده فقتل نفسه : وقال هكذا قتلته ، فقطع رأسه وأنفذ به إلى الحضرة مع ماوجد معه ، وهذا هو الصحيح فى خبر قتل الحاكم لا ما تحكيه المشارقة فى كتبهم من أن أخته قتلته

(٦) ما الذى تعرفه عن ست الملك ولماذا اتهمت بقتل الحاكم ، وكيف تأتى لها أن تدير دفة السياسة بمصر والشام ، ومارأيك فى تدخل النساء فى سياسة الدول وكيف تطبق هذا على ست الملك ؟

(٧) كيف توفق بين قول المؤرخين إن دولة المستنصر بالله اتسعت إلى حد لم يحلم به آباؤه من قبله ، وبين قولهم إن الفاطميـة ظهرت عليهـا أعراض الهرم فى عصره ؟

(٨) كيف خطب للمستنصر على منابر بغداد ، ومن الذى قام له بهذه الحركة هنالك وكيف تأتى له ذلك ولماذا لم تطل حركة الفواطم بالعراق وهل للمستنصر يد فى حبوطها؟

(٩) ما الأسباب التى من أجلها تدهورت الفاطمية فى خلافة العاضد وهل للخليفة نفسه أثر فى هذا التدهور ؟

(١٠) ما أهم الأسباب التى من أجلها تمكن الصليبيون والنوريون من دخول البلاد المصرية ، ومن الذى سهل هذا الأمر على هذين المتنافسين فى أخذ مصر من أهليها ، وما الأسباب التى حملته على ذلك ، وكيف آل أمره بعد أن تمت فصول هذه الرواية المحزنة ؟

(١١) من نور الدين ، واسد الدين شير كوة وما علاقة كل منهما بمصر أيام العاضد ؟ ثم كيف صار صلاح الدين وزيرا العاضد ، وكيف قطع خطبته أخيراً ولمن خطب من بعده؟

الدولة الايوبية

وعلاقتها بالصليبيين وأوربا

٥٦٧ — ٦٤٨

صلاح الدين الايوبى

هو السلطان الملك الناصر أبو المظفر يوسف بن نجم الدين أيوب ابن شادى بن مروان الكردى . أول من ملك مصر من الاكراد الايوبية . نشأ أبوه أيوب وعمه أسد الدين شيركوه ببلد من أذربيجان من جهة أران ودخلا بغداد . وخدما مجاهد الدين بهروز شحنة ببغداد . فبعث أيوب إلى قلعة تكريت . وأقامه بها مستحفظا لها ومعه أخوه شيركوه وهو أصغر منه سنا . فخدم أيوب ، الشهيد زنكى لما انهزم فشكر له خدمته . واتفق بعد ذلك أن شيركوه قتل رجلا . فطرد هو وأخوه أيوب من تلك القلعة . فمضيا إلى زنكى بالموصل فآواهما . وأقطعهما أقطاعا عنده . ثم رتب أيوب بقلعة بعلبك مستحفظا . ثم أنعم عليه بامرة . واتصل شيركوه بنور الدين محمود بن زنكى فى أيام أبيه وخدمه ، فلما ملك حلب بعد أبيه . كان لنجم الدين أيوب عمل كثير فى أخذ دمشق لنور الدين ، فتمكنا فى دولته . حتى بعث شيركوه مع الوزير شاور بن مجير السعدى إلى مصر . فسار صلاح الدين فى خدمته من جملة أجناده . وكان من أمر شيركوه ما كان حتى مات . فأقيم بعده فى

وزارة العاضد ، ابن أخيه صلاح الدين فى خامس عشرى جمادى الاخرة سنة ٥٦٤ ولقب الملك الناصر ، وأنزله العاضد بدار الوزارة من القاهرة ، فاستمال قلوب الناس ، وأقبل على الجد وترك اللهو ، وتعاضد هو والقاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى على ازالة الدولة الفاطمية . وولى صدر الدين بن درباس قضاء القضاة ، وعزل قضاة الشيعة ، وبنى بمدينة مصر مدرسة للفقهاء المالكية ، ومدرسة للفقهاء الشافعية ، وقبض على أمراء الدولة وأقام أصحابه عوضهم . ولم يزل يدأب فى ازالة الدولة حتى تم له ذلك . وخطب للخليفة ببغداد المستنصر العباسى . وكان العاضد مريضا فتوفى بعد ثلاثة أيام . واستبد صلاح الدين بالسلطنة من أول سنة ٥٦٧ . واستدعى أباه نجم الدين واخوته من بلاد الشام ليكونوا عصبيته . فقدموا عليه بأهاليهم . وكانوا أعوانه على إقامة دولته والمحافظة على كيانها .

علاقته ببقية الفواطم وأملاكهم

لما مات العاضد فى يوم عاشوراء من سنة ٥٦٧ احتاط الطواشى قراقوش على أهل العاضد وأولاده . فكانت عدة الأشراف فى القصور ١٣٠ والأطفال ٧٥ وجعلهم فى مكان أفرد لهم خارج القصر . وجمع عمومته وعشيرته فى إيوان بالقصر . واحترز عليهم وفرق بين الرجال والنساء لئلا يتناسلوا . وليكون ذلك أسرع لانقراضهم . وتسلم السلطان القصر بما فيه من الخزائن والدواوين وغيرها من الاموال والنفائس . وكانت عظيمة الوصف واستعرض من فيه من الجوارى والعبيد . فأطلق من كان حرا ، ووهب واستخدم باقيهم ، وأطلق البيع فى كل جديد وعتيق فاستمر البيع فيما وجد بالقصر عشر سنين ، وأخلى القصور من سكانها

واغلق أبوابها ، ثم ملكها امراءه ، وضرب الألواح على ما كان للفواطم واتباعهم من الدور والرباع ، وأقطع خواصه منها ، وباع بعضها ، ثم قسم القصور ، فأعطى القصر الكبير للامراء فسكنوا فيه ، وأسكن نجم الدين أيوب فى قصر اللؤلؤة على الخليج ، وأخذ أصحابه دور من كان ينسب إلى الفاطمية ، فكان الرجل إذا استحسن دارا أخرج منها سكانها ونزل بها

وبعد ذلك كشف حاصل الخزائن الخاصة بالقصر ، فقيل ان الموجود فيها ١٠٠ صندوق كسوة فاخرة من موشح ومرصع ، وعقود ثمينة ، وذخائر نخمة . وجواهر ثمينة . ومقدار مايظن أنه خرج من القصر مابين دينار ودرهم . ومصاغ وجوهر . ونحاس وملبوس وأثاث وقماش وسلاح . لا يفى به ملك الاكاسرة ، ولاتتصوره الخواطر الحاضرة ، ولا يشتمل على مثله الممالك العامرة ، ولا يقدر على حسابه إلا من يقدر على حساب الخلق فى الآخرة .

وقبض صلاح الدين على ولى عهد العاضد وهو ابنه داود ، وينعت بالحامد لله ، واعتقل معه جميع إخوته وجماعة من بنى أعمامه ، فلم يزالوا بدار الافضل من حارة برجوان إلى أن انتقل الملك الكامل محمد بن العادل بن أبى بكر بن أيوب من دار الوزارة بالقاهرة إلى قلعة الجبل ، فنقل معه ولد العاضد واخوته وأولاد عمه واعتقلهم بالقلعة إلى أن انقرضت الايوبية وملك الاتراك ، فلما كانت أيام الظاهر بيبرس البندقدارى أشهد على من بقى منهم أن جميع مايعرف من قصورهم ودورهم وبساتينهم ، ملك لبيت المال من وجه صحيح شرعى لا رجعة لهم فيه ، ولالواحد منهم فى ذلك ولا فى شىء منه مثوبة ولاملك ولاوجه من الوجوه ، وإن ماباعه وكلاؤهم من

هذه الاماكن يرجع بثمنه عليهم مهما كان وقبضت أيديهم عن التصرف فيها ورسم ببيعها ، فباعها كلها وكيل بيت المال ، إلا ما كان من مسجد لله أو مدفن لآبائهم ، وأرخ ذلك الأشهاد بثالث عشر من ربيع الاول سنة ٦٦٠ ، فسبحان مظهر العجائب ومحدثها ، ووارث الارض ومورثها

عود — ومن جملة مابيع بعد استيلاء صلاح الدين على القصر :

خزانة الكتب . وكانت من عجائب الدنيا . ويقال أنه لم يكن فى جميع بلاد الاسلام دار كتب أعظم منها . ومن عجائبها أنه كان فيها ١٢٠٠ نسخة من تاريخ الطبرى . ويقال إنها كانت تشتمل على مائتى ألف وستمائة ألف كتاب . من الكتب الجليلة المقدار المعدومة المثل فى سائر الامصار صحة وحسن خط وتجليد . فى الفقه على سائر المذاهب والنحو واللغة وكتب الحديث والتواريخ والسير والنجامة والروحانيات والكيميا

وقد حاز منها القاضى الفاضل مائة ألف مجلد أنشأ بها مكتبة فخمة لمدرسة الفاضلية

علاقته بالرجعيين والثوار ووقعة العبيد

(١) لما ضايق صلاح الدين أهل القصر واستبد بأمور الدولة ، وأضعف جانب الخلافة وقبض على أكابر الدولة ، كان مؤتمن الخلافة جوهر الخصى ومن انضم اليه من الأمراء المصريين والجند قد تحدثوا فى إزالة صلاح الدين من وزارة الخليفة العاضد ، واتفق رأيهم على أن يبعثوا إلى الفرنج بالساحل يستدعونهم إلى القاهرة ، حتى إذا خرج صلاح الدين لقتالهم بعسكره ، ثاروا وهم بالقاهرة ؛ واجتمعوا مع الفرنج على إخراجه من مصر

فسيروا رجلا إلى الفرنج . فلما وصل إلى قرب بلبيس ارتاب به بعض أصحاب صلاح الدين وأنكر أمره ، فقبض عليه فوجده قد وضع الكتب فى باطن نعليه ، فحمله بكتبه إلى صلاح الدين ، فتتبع خطوط الكتب حتى عرفت فاذا الذى كتبها يهودى فأمر بقتله ، فاعتصم بالاسلام وأسلم وحدثه الخبر ، فبلغ مؤتمن الخلافة فاستشعر الشر ، وخاف على نفسه ولزم القصر وامتنع من الخروج منه ، فأعرض صلاح الدين عن ذلك جملة ، وطال الأمر فظن المؤتمن أنه قد أهمل أمره ، وشرع يخرج من القصر وبلغ ذلك صلاح الدين فأنهض اليه من قتلوه واحتزوا رأسه وأتوا بها اليه ، فاشتهر ذلك فى القاهرة فغضب العسكر المصرى وثاروا بأجمعهم فى ٢٦ ذى القعدة سنة ٥٦٤ وقد انضم اليهم عالم كثير من الأمراء والعامة ، حتى صاروا نيفا وخمسين ألفا

وساروا إلى دار الوزارة ، وبها صلاح الدين مستعدين بالأسلحة ، فبادر توران شاه أخو صلاح الدين وصرخ فى عساكر الغز ، وركب صلاح الدين وقد اجتمع اليه طوائف من أهله وأقاربه وجميع الغز ، ورتبهم طوائف طوائف ، وثارت الحروب بين القصرين واشتد الامر وعظم الخطب حتى لم يبق إلا هزيمة صلاح الدين وأصحابه ؛ فعند ذلك أمر توران شاه بالحملة على السودان فقتل فيها أحد مقدميهم ، فانكف بأسهم قليلا وعظمت حملة الغز عليهم فانكسروا . وكان العاضد يشرف من منظرة القصر والحرب مستعرة . فلما رأى أهل القصر كسرة السودان وعساكر مصر رموا على الغز من القصر بالنشاب والحجارة حتى أنكوا فيهم وكفوهم عن القتال وكادوا ينهزمون مرة أخرى . فأمر صلاح الدين النفاطين باحراق

المنظرة فخاف العاضد على نفسه وفتح باب المنظرة زعيم الخلافة

وقال بصوت عال : أمير المؤمنين يسلم على شمس الدولة (توران شاه) ويقول دونكم العبيد الكلاب . أخرجوهم من بلادكم ، فلما سمع السودان ذلك . ضعفت قلوبهم وتخاذلوا . فحمل عليهم الغز فانكسروا . وركب القوم أقفيتهم فقتلوا منهم وأسروا . وأحرقوا الدور على من امتنع منهم بها ، كما أحرقوها على الارمن الذين شرعوا يساعدون العبيد حتى قطعوا على الغز طريق متابعة السودان فترة ، ثم مروا وراء العبيد حتى وصلوا إلى باب زويلة فاذا هو مغلق فحصروا هنالك ، واستمر فيهم القتل يومين ، ثم بلغهم أن صلاح الدين أحرق المنصورة التى كانت أعظم حاراتهم وأخذت عليهم أفواه السكك ، فأيقنوا أنهم قد أخذوا لا محالة ، فصاحوا: الامان ، فأمنوا وفتح لهم باب زويلة فخرجوا إلى الجيزة وعدا عليهم شمس الدولة وحكم فيهم السيف حتى لم يبق منهم إلا الشريد ، وضعف أمر العاضد من هذه الواقعة ضعفا لا نهوض بعده . وكان من غرائب الاتفاق أن الدولة الفاطمية كان الذى افتتح لها بلاد مصر وبنى القاهرة والجامع الأزهر جوهر القائد . والذى كان سببا فى ازالة الدولة وخراب القاهرة واغلاق الازهر تقريبا جوهر مؤتمن الخلافة

(٢) ونلحق هذه الحادثة بحادثة أخرى وهى منافقة الكنند باسوان وان حصلت فى شهور سنة ٥٦٩

الكنند هذا انسان مقدم من المصريين كان قد نزح إلى اسوان فاقام بها ولم يزل يدبر أمره ويجمع السودان عليه ، ويخيل لهم أنه يملك البلاد ويعيد الدولة مصرية ، وكان فى قلوب القوم من مهاواة المصريين ما تستصغر به

هذه الافعال عنده ، فاجتمع عليه خلق كثير وجمع وافر ، وقصدوا قوص وأعمالها ، وانتهى خبره إلى السلطان ، فجرد له عسكراً عظيماشاكى السلاح وقدم عليهم أخاه الملك العادل سيف الدين وسار بهم حتى أتى القوم فلقيهم فكسرهم وقتل منهم خلقا عظيما واستأصل شأفتهم وأخمد ثائرتهم

(٣) ونذكر حادثة ثالثة من هذا القبيل : وهى أن جماعة من أعيان المصريين قصدوا الوثوب على صلاح الدين وإعادة الدولة العلوية ، فعلم بهم وقبض عليهم وصلبهم عن آخرهم ومنهم داعى الدعاة وعمارة اليمنى الشاعر الفقيه ، وبعض القضاة والكتاب — وبهـذا ومثله استقرت قواعد الملك واستوت أموره لصلاح الدين

علاقته بالفرنج بعد واقعة العبيد

(١) لما علم الفرنج ماتم للسلطان من استقامة الأمر فى الديار المصرية ، خافوا أن يملك بلادهم ، ويخرب ديارهم ويقلع آثارهم ، لما حصل له من القوة والملك ، فاجتمعوا مع الروم وحدثوا أنفسهم بقصد الديار المصرية والاستيلاء عليها وملكها ، ورأوا قصد دمياط ، لتمكن القاصد لها من البر والبحر ، ولعلمهم أنها ان حصلت لهم . حصل لهم مغرس قدم .

فلما علم السلطان بذلك أنفذ إلى البلد وأودعه من الرجال وابطال الفرسان والميرة وآلات السلاح . ما أمن معه عليه ، ووعد المقيمين فيه بأمدادهم بالعساكر والآلات ، وإبعاد العدو عنهم إن نزل عليهم — فنزل الافرنج آخر سنة ٥٦٥ بدمياط ، واشتد زحفهم عليها وقتالهم لها ، وهو يشن الغارات عليهم من خارج ، والعساكر تقاتلهم من داخل . ونور الدين يشغل قلوبهم فيغير على بلادهم بالشام ، حتى نصر الله المسلمين وأيدهم

وبان للافرنج الخسران فرحلوا مرتدين على أعقابهم ناجين برؤوسهم تاركين أثقالهم بعد أن قتل منهم خلق كثير .

(٢) وفى السنة التالية سار السلطان عن مصر فغزا الفرنج قرب عسقلان والرملة وعاد – ثم خرج إلى أيلة وحصرها وهى للافرنج على ساحل البحر الشرقى (خليج العقبة) ونقل اليها المراكب وحصرها برا وبحرا حتى فتحها واستباح أهلها وعاد وقد ملك ناصية الأمر فى بحر القلزم من الشمال

كل ذلك وهو وزير للعاضد بالنيابة عن نور الدين – ثم أمر بقطع خطبة العاضد وإقامة الخطبة العباسية ففعل بعد مراجعة سببه خوف الفتنة وتوفى العاضد بعد قطع خطبته وإزالة دولته بثلاثة أيام — ولما وصل خبر الخطبة العباسية بمصر إلى بغداد ضربت لها البشائر عدة أيام . وسيرت الخلع إلى نور الدين وصلاح الدين . وكذلك سير الخطباء والأعلام السود كما أشرنا إلى شيء من ذلك فيما سبق .

علاقته بنور الدين بعد ذلك

كان صلاح الدين يعمل فى البلاد المصرية منذ اسندت اليه وزارة العاضد نيابة عن سيده نور الدين كما رأيت . لكنه ما كاد يفرغ من إزالة العلوية نزولا على إرادته . حتى حصلت بينهما وحشة . سببها ان نور الدين أمره أن يجمع العساكر المصرية ويسير بها إلى بلاد الافرنج وينزل فى اقليم الشوبك والكرك . ليجمع هو أيضاً عساكره ويسير اليه ويجتمعا على حرب الفرنج والاستيلاء على بلادهم . فسار ونازل الشوبك . ثم رحل عنها خوفا أن يأخذها . فلا يبقى ما يعوق نور الدين عن قصد مصر —

ولما رحل نور الدين من دمشق عازما على قصد الكرك ووصل اليها . اقام ينتظر صلاح الدين فوافاه كتابه معتذرا بأنه يخاف على مصر مع البعد عنها . فلم يقبل نور الدين عذره وتوحش باطنه للسلطان وعزم على دخول مصر وإخراجه منها

ولما استقر صلاح الدين بمصر وبلغه شأن سيده . جمع أقاربه وكبراء دولته وقال : بلغنى أن نور الدين يقصدنا فما الرأى ؟ فقال تقى الدين ابن أخيه نقاتله ونصده . وكان ذلك بحضرة والد السلطان . فأنكر على تقى الدين وقال : أنا والدكم . لو رأيت نور الدين نزلت وقبلت الأرض بين يديه . بل اكتب وقل لنور الدين : إنه لو جاءنى من عندك إنسان واحد وربط المنديل فى عنقى وجرنى اليك . سارعت إلى ذلك . وانفضوا على هذا .

ثم اجتمع أيوب بابنه السلطان خلوة وقال له : لو قصدنا نور الدين كنت أول من يمنعه ويقاتله . ولكن ان اظهرنا ذلك يترك نور الدين جميع ما هو فيه ويقصدنا . ولا ندرى ما يكون من ذلك . وإذا أظهرنا له الطاعة . تمادى الوقت بما يحصل به الكفاية من عنـــد الله . فكان كما قال وعدل نور الدين عن قصده حتى مات

ولما دخلت سنه ٥٦٨ سار صلاح الدين من مصر إلى الكرك وحصرها وكان قد واعد نور الدين أن يجتمعا على الكرك . وسار نور الدين من دمشق حتى وصل إلى الرقيم وهو بالقرب من الكرك . فخاف صلاح الدين من الاجتماع بنور الدين . فرحل عن الكرك عائدا إلى مصر . وأرسل تحفا إلى نور الدين واعتذر بأن أباه أيوب مريض . وخشى أن يموت فتذهب مصر . فقبل نور الدين عذره فى الظاهر وعلم المقصود

ولما وصل السلطان إلى مصر وجد أباه قد مات . لأنه ركب بمصر فنفرت به فرسه فوقع وحمل إلى قصره وبقى أياما ومات . ولم يحضر السلطان وفاته . وإنما بلغه أمره قبل وصوله إلى مصر فشق عليه ذلك

فتح اليمن

ذكر أهل السير أن صلاح الدين وأهله كانوا خائفين من نور الدين فاتفق رأيهم على تحصيل مملكة غير مصر . بحيث إن قصدهم نور الدين قاتلوه فان هزمهم التجئوا إلى تلك المملكة . فجهز السلطان أخاه توران شاه إلى النوبة فلم تعجبهم بلادها وكان ذلك سنة ٥٦٩ ، ثم سيره فى هذه السنة بعسكر إلى اليمن ، وكان صاحب اليمن حينئذ إنسانا يسمى عبد النبى ، قد ملك زبيد وخطب لنفسه ، وكان الفقيه عمارة اليمنى الشاعر قد انقطع إلى شمس الدولة توران شاه وصار يصف له بلاد اليمن ويرغبه فى كثرة أموالها ويغريه بأهلها ؛ فبعثه ذلك على المسير إلى بلاد اليمن فسار فى مستهل رجب ودخل مكة معتمرا ، وسار منها فنزل على زبيد فى شوال وفتحها بالسيف ، واستولى على ما كان فى خزائنها من مال ، وتسلم الحصون

ثم سار قاصدا عدن وبذل لصاحبها مالا سنويا على أن يسلمها فأبى فنزل عليها فى ذى القعدة وفتحها بالسيف ، وقبض على صاحبها وأهله واحتوى على مافيها وأسر عبد النبى — ثم استولى على تعز وصنعاء وغيرها من مدن اليمن وحصونها وتلقب بالملك المعظم وخطب لنفسه بعد الخليفة العباسى ،

وصارت اليمن فى مملكة صلاح الدين ، وكتب توران شاه إلى أخيه السلطان فكتب إلى نور الدين يخبره بما أفاض الله عليه من الاحسان

فأرسل هذا البشارة إلى بغداد

أقول ولا حاجة إلى متابعة أهـــل السير فى الأسباب التى حملت على توجيه العساكر إلى النوبة ثم اليمن . فان أول مايبدو للباحث أن جيش النوبة لم يك إلا لمطاردة السودانيين وإذعارهم حتى يتهيبوا الانضمام إلى الثوار والرجعيين ، وإن اتجاه توران شاه إلى اليمن لم يك

(أولا) إلا حينما رأى السلطان كثرة جنده وكثرة أخوته وقوة بأسهم ، فأراد أن يأخذ لهم اليمن من الثائر بها

(وثانيا) لما كان من تحريض عمارة لتوران شاه وتسهيله عليه أمرها وأنها قريبة المأخذ لمن طلبها لضعف من فيها ، وهذا إلى أن أحـــد أشراف اليمن أطمع توران شاه فى معاونته لأن عبد النبي اعتدى عليه

(وأخيرا) ما كان يرمى اليه السلطان من السيطرة على بحر القلزم برمته بعد أن بسط سلطانه على النصف الشمالى منه بأخذ أيلة ، فيكون هذا البحر من عدن إلى أيلة والقلزم بيد مصر وسلطانها ولايخفى مافى ذلك من المزايا الحربية التى جعلها السلطان نصب عينيه للدفاع عن مصر أولا ، وعن الحرمين الشريفين ثانيا

موت نورالدين وماجر اليه

بينا كان نور الدين يتجهز لدخول مصر وأخذها من صلاح الدين ويسير اليها بنفسه ويترك ابن أخيـــه سيف الدين غازى بن مودود قبالة الافرنج ، إذ أتاه أمر الله الذى لامرد له • فانتقل من مربع الفناء إلى مرتع البقاء

والسبب فى هذا التدبير علي السلطان مارآه نور الدين من فتوره

فى غزو الفرنج من ناحيته . ولم يقدر أن المانع للسلطان هو خوفه من نورالدين ، فان السلطان كان يرى أنه إذا أزال الفرنج من طريق نورالدين أخذ مصر منه . فكان يحتمى بهذا التقصير من سيده . ولا يؤثر استئصالهم . فى حين أن نور الدين كانت لا تفتر له همة فى غزوهم

ولو علم نور الدين ماذا ادخره الله تعالى للاسلام من الفتوح الجليلة على يد صلاح الدين من بعده : ما استوحش منه : ولقرت عينه به وترك التدبير فى شأنه ، فان هذا السلطان ابتدأ فى جهاد المشركين من حيث انتهى سيده . وبنى على الأساس المتين الذى وضعه . وقام فى نصرة الاسلام على أكمل الوجوه وأتمها

ولكن الباحث المنصف لا يسعه إلا أن يجاهر بأن صلاح الدين كان خاطىء الرأى فى هذه المعاملة . إذ لو أحسن الظن لحصل التفاهم بينه وبين نور الدين على ما فيه المصلحة . وقام كل واحد منهما مخلصا فى محاربة الافرنج من ناحيته ، فاقتلعا جذور الصليبيين من الشام . أو قصرا على الأقل أمد حياتهم فى الأراضى المقدسة ، ولكن الأثرة تحدث أكثر من هذا

كان ملك نورالدين قد اتسع جدا ، إذ كان يشمل بلاد ما بين النهرين والشام ومصر ، وقد خطب له بالحرمين واليمن وقد توفى سنة ٥٦٩ ودفن بدمشق ، وملك بعده ابنه الملك الصالح إسماعيل وعمره إحدى عشرة سنة ، وحلف له العسكر بدمشق ، وأطاعه صلاح الدين بمصر ، وخطب له بها ، وضربت السكة باسمه ، وكان المتولى تدبير دولته محمد بن المقـــدم ، وقد انتهز سيف الدين غازى فرصة موت عمه نورالدين وأغار على ما بين النهرين

علاقة صلاح الدين بأسرة نور الدين

لما تولى الصالح اسماعيل بعد ابيه ، كان بدمشق ، وكان بقلعة حلب ابن الداية وقد حدث نفسه بأمور ، فارسل كمشتكين يستدعى الملك الصالح من دمشق الى حلب ليكون مقامه بها ، فسار اليها معه ، ولما استقر بها وتمكن كمشتكين ، قبض على ابن الداية واخوته وعلى رئيس حلب واخوته واستبد بتدبير الصالح ، فخافه ابن المقدم وغيره من الأمراء الذين بدمشق ، فكاتبوا صلاح الدين واستدعوه ليملكوه عليهم ، فتجهز للخروج الى بلاد الشام إذ هى اصل بلاد الاسلام ، ثم خرج فى جمع من اهله واقاربه ، وخلف فى الديار المصرية من يستقل بحفظها وحراستها ، ووصل الشام بعد ان كاتب اهلها وامراءها ، مطالبا بالملك الصالح ليكون هو الذى يتولى امره ويرب حاله ، فيقوم له ما اعوج من امره ، ولم يلبث ان وصل دمشق ، فخرج كل من كان بها من العسكر والتقوه وخدموه ، فدخلها بالتسليم سنة ٥٧٠ واستقرت قدمه فى ملكها ، ثم يلبث ان طلب حلب ، فنازل حمص وملك المدينة ، ولم يشتغل بقلعتها ، بل ترك عليها من يضيق عليها وسار إلى حماة فملكها ، وكان بقلعتها جرديك احد المماليك النورية ، فامتنع فيها ، فذكر له السلطان انه ليس له غرض الا حفظ بلاد الملك الصالح عليه ، وانما هو نائبه ، وقصده من جرديك المسير الى حلب فى رسالة ، فاستحلفه جرديك على ذلك ونزل ، ثم سار برسالة السلطان الى حلب ، فلما وصل قبض عليه كمشتكين وسجنه ، فلما علم اخوه وكان خليفته على قلعة حماه سلم القلعة الى السلطان فملكها ، وسار السلطان الى حلب للمرة الاول وحصرها وبها الملك الصالح ، فجمع اهل حلب وارسل كمشتكين الى مقدم الاسماعيلية

اموالا عظيمة ليقتلوا صلاح الدين ، فأرسل جماعة وثبوا على السلطان فقتلوا دونه ، وبينا كان السلطان على حصار حلب ، بلغه ان الافرنج نزلوا على حمص ، فقصدها فرحل الافرنج عنها ، وتملك السلطان قلعتها ثم ملك بعلبك

ولما استقر ملك السلطان لهذه البلاد ارسل الصالح الى ابن عمه سيف الدين غازى صاحب الموصل يستنجده على السلطان ، فجهز جيشه صحبة اخيه عز الدين مسعود — وطلب اخاه الاكبر عماد الدين زنكى صاحب سنجار ليسير فى النجدة ايضا ، فامتنع مصانعة للسلطان ، فسار اليه غازى وحاصره ، ووصل عسكره الى حلب وانضم اليهم عسكرها ، وساروا الى صلاح الدين ، فارسل يبذل حمص وحماة وان يقر بيده دمشق ، ويكون فيها نائبا للصالح ، فلم يجيبوا الى ذلك ، وساروا لقتاله ، والتقى الجمعان عند (قرون حماه) فانهزم العسكران ، وغنم السلطان اموالهم وتبعهم حتى حصرهم فى حلب للمرة الثانية ، وقطع حينئذ خطبة الصالح وأزال اسمه عن السكة ، واستقل بالسلطنة . فراسلوه فى الصلح على ان يكون له مابيده من الشام . وللصالح مابقى بيده منه فصالحهم ورحل عن حلب .

ولما وقعت هذه الواقعة كان سيف الدين على حصار اخيه بسنجار فبلغه الخبر ، فخاف ان يبلغ اخاه فيشتد امره ، فراسله الى الصلح فصالحه ، وسار من وقته الى نصيبين ، واهتم بجمع العساكر وعبر الفرات ، وراسل كمشتكين والصالح حتى تستقر قاعدة يصل عليها اليهم ، فتم بينهم ما اراد وارادوا ، فسار حتى وصل الى حلب ، وخرج الصالح الى لقائه بنفسه وضمه اليه وبكى ، ثم سار سيف الدين وسار السلطان اليه والتقى الجمعان (بتل السلطان) فتمت على سيف الدين الهزيمة وانكسر ، وهرب الى

حلب ، ومنها عاد الى الموصل مرعوبا ، واستولى السلطان على أثقال عسكر الموصل وغيرهم وغنم مافيها (٥٧١) اما السلطان فتركه فى هزيمته وسار فملك منبج وعزاز ؛ وكاد يقضى عليه فيها لان اسماعيليا وثب عليه فضربه بسكين فى رأسه فجرحه ، ثم رحل السلطان الى حلب للمرة الثالثة و نازلها وحصرها حتى سألوه الصلح فأجابهم اليه واخرجوا اليه بنتا صغيرة لنور الدين فأكرمها ؛ واعطاها شيئا كثيرا وقال لها ماترومين ؟ فقالت اريد قلعة عزاز — وكانوا قد علموها ذلك — فسلمها السلطان اليها ورحل عن حلب وعاد الى الديار المصرية ليتفقد احوالها ويقرر قواعدها ، وكان مسيره اليها فى ربيع الاول سنة ٥٧٢ واستخلف بدمشق اخاه شمس الدولة ، وكان قد قدم من اليمن ،

ولما عاد الى مصر امر ببناء السور الدائر على مصر والقاهرة ، واراد ان يجعل لها حصنا كمدن الشام التي بيد الافرنج والمسلمين ، فاختار نقطة من الجبل المشرف على القاهره وامر ببناء القلعة عليها وأمر أيضا ببناء المارستان والمدرسة التى على قبر الامام الشافعى بالقرافة

عودة السلطان إلى الشام وكسرة الرملة ونتائجها

لما فرغ السلطان من أمور الاصلاح التى رآها ضرورية واستراح العسكر تأهب للغزو ، وخرج يطلب الساحل حتى وافى الافرنج على الرملة سنة ٥٧٣ وقيل على عسقلان ، وبينا كانوا يشتغلون بالتعبئة ، هجم الافرنج على حين غفلة ؛ فقاتلهم السلطان أشد قتال ، ولكن الهزيمة تمت على المسلمين ، وقاربت حملات الافرنج السلطان ، فمضى منهزما إلى مصر على البرية ومعه من سلم ، فلقوا فى طريقهم مشقة وعطشا شديدا ، وهلك كثير من الدواب

وأخذت الفرنج العسكر الذين كانوا يتفرقون فى الاغارات أسرى ، وأسر الفقيه عيسى ، وكان من أكبر أصحاب السلطان ، فافتداه بعد سنتين بستين ألف دينار — ووصل السلطان إلى مصر وكان قد كتب إلى أخيه نائبه بدمشق كتابا يذكر له الوقعة وفى أوله

ذكرتك والخطى يخطر بيننا   وقد نهلت منا المثقفة السمر

ويقول فيه : لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة ، وما نجانا الله سبحانه إلا لأمر يريده

وكان من نتائج هذه الهزيمة ان الفرنج طمعوا لقلة جند دمشق وميل نائبها إلى الدعة ، وبعد صلاح الدين وهزيمته — فحصروا حماة وعليها خال السلطان وكان مريضا ، فدافع المسلمون بها حتى أيأسوا الفرنج ، فتركوها إلى حارم ، لان الملك الصالح قتل صاحبها وهو كمشتكين ، فطمعوا فيها فصالحهم الصالح عنها وأرسل اليهم مالا ، فرحلوا طالبين بلادهم

ومع هذا فان السلطان لم ييأس ، بل أقام بمصر ريثما لم الناس شعثهم ثم خرج سنه ٥٧٥ وفتح حصنا كان بناه الافرنج عند مخاضة الأحزان بالقرب من بانياس

وطمع صاحب قونية فى حصن رعبان وأرسل اليه عسكرا كثيرا ليحصروه وكانوا قرب عشرين ألفا . فسار اليهم ابن أخيه تقى الدين عمر ابن شاهنشاه بن أيوب نائب حماه فى ألف فهزمهم وكان يفتخر ويقول هزمت بألف . عشرين ألفا

وفى السنة التالية خرج السلطان إلى صاحب قونية ووصل إلى رعبان

ثم اصطلحوا . فقصد بلاد ابن ليون الأرمنى وشن فيها الغارات . فصالحه ابن ليون على مال حمله وأسرى أطلقها

وعزم صاحب الكرك على المسير إلى المدينة المنورة للاستيلاء على تلك النواحى الشرقية . وسمع ذلك ابن أخيه عز الدين فخرشاه نائب السلطان بدمشق بعد عمه توران شاه ، فجمع جموعا وقصد الكرك وأغار عليها وأقام فى مقابلة البرنس صاحبها ، ففرق البرنس جموعه وانقطع عزمه عن الحركة مما يدلك على أن همة السلطان لم تفتر وكذلك نوابه . وعلى أن هذه الهزيمة أطمعت كثيرا ممن كانوا حول سلطنته من الفرنج والمسلمين فى الاغارة على بلاده أو بلاد حلفائه

وبينا السلطان يتأهب ثم يغزو . إذجاء الخبر بوفاة سيف الدين غازى صاحب الموصل والديار الجزرية . وقد أوصى بالمملكة بعده إلى أخيه عز الدين مسعود بن مودود . وأعطى ابنه جزيرة ابن عمر وقلاعها

ولحقه الملك الصالح إسماعيل ولم يتجاوز التاسعة عشرة . وأوصى بملك حلب الى ابن عمه مسعود صاحب الموصل ، فسارع سائرا الى حلب مبادرا خوفا من السلطان ، وكان وصوله فى شعبان سنة ٥٧٧ فصعد القلعة واستولى على خزائنها وذخائرها ، وتزوج ام الملك الصالح واقام بالقلعة ، ثم بداله أنه لايمكنه الاستقلال بالشام والموصل ، لحاجته الى ملازمة الشام اتقاء ماعسى أن يحدثه السلطان من الاغارة عليه ، وألح عليه امراء الشام فى الزيادات متنين بأنهم قد اختاروه ، فاستخلف ولده ورحل من حلب الى الرقة ، وهنالك اجتمع بأخيه عماد الدين ، وكان قد كاتبه فى أن يعطيه حلب ويأخذ منه

سنجار ، فاستقرت بينهما هذه المقايضة ، وسار من جانب عماد الدين من تسلم حلب ، ومن جانب عز الدين من تسلم سنجار ، وفى محرم سنة ٥٧٨ صعد عماد الدين إلى قلعة حلب ، وصار ملكه يتاخم ملك السلطان

مسير السلطان الى الشام من غير عودة

خلا الجو فى الشام من الملك الصالح ، وفى الجزيرة من سيف الدين غازى ، فعزم السلطان على العود إلى الشام خوفا عليها من الفرنج ، ووصل إلى دمشق فى صفر سنة ٥٧٨ ثم انشأ التأهب لغزاة بيروت ونازلها ولم ينل منها غرضا ، واجتمع الفرنج فرحلوه عنها فعاد إلى دمشق ، وبلغه أن رسل الموصل وصلوا إلى الفرنج يحثونهم على المسلمين ، فعزم على قصدهم لجمع كلمة العساكر الاسلامية على عدو الله ، فلما بلغ ذلك عماد الدين سير إلى الموصل ، يشعر بالخبر ، ويستحث العساكر ، فقصد السلطان حلب وأقام ثلاثة ايام ، ثم رحل للغزو ، واتفق مع صاحب حران ودخل الرها والرقة ونصيبين وسروج ثم شحن على الخابور وأقطعه ثم نزل على الموصل ، ولما رأى حصارها سيطول رحل عنها واستولى على سنجار فأخذها عنوة ، ومن ذلك ترى أن السلطان رأى ان أخذ الموصل لا يتأتى له الا بعزلها عن البلاد التى حولها فتضعف على طول الايام ، وبعد سنجار استولى على آمد وأخذها بعد قتال ثمانية ايام . وكان ذلك فى المحرم سنة ٥٧٩ ، ثم سار يطلب حلب واستدعى العساكر من الجوانب وقاتلها قتالا شديدا . وتحقق عماد الدين أنه لاقبل له ، فاضطر الى السفارة مع السلطان على اعادة بلاده التى كان قد اغار عليها وتسليم حلب اليه من غير ان يشعر احد من الرعية ولا من العسكر حتى تم الأمر واستحكمت القاعدة . واعلم عماد الدين العسكر بذلك واذن

لهم فى تدبير انفسهم . فارسلوا إلى السلطان رسلهم فاستحلفوه على العسكر وعلى اهل البلد . وخرجوا إلى خدمته هم ومقدمو حلب فخلع عليهم وطيب قلوبهم . ثم نزل عماد الدين الى خدمته وتقررت بينهما قواعد . منها ان يكون لعماد الدين سنجار وما حولها . وبذلك دخل السلطان قلعة حلب مسرورا منصورا . وانفذ الى حارم من يتسلمها . فامتنع جندها حتى حلف لهم وسار فتسلمها وعاد الى حلب . ثم اعطى العسكر دستورا فذهب كل منهم الى بلاده وأقام يدبر امور حلب ويقرر قواعدها . وأصبح لا يعنيه الا امر الموصل وامر الفرنج فقط

محاولة الفرنج الاستيلاء على الحجاز ومدنه المقدسة

وفى أثناء هذا كله عمل البرنس صاحب الكرك اسطولا فى بحر أيلة (خليج العقبة) وسار فى البحر فرقتان ، فرقة أقامت على حصن أيلة يحصرونه . وفرقة أقلعت نحو عيذاب يفسدون فى السواحل . وبغتوا المسلمين فى تلك النواحى . فانهم لم يعهدوا بهذا البحر افرنجا قط

وكان العادل أخو السلطان نائبا عن أخيه بمصر . فعمر اسطولا فى بحر عيذاب وأرسله مع أمير البحر إذ ذاك وهو لؤلؤ الحاجب حسام الدين الارمنى ، وكان مظفرا شجاعا ، فسار وأوقع بالذين يحاصرون أيلة فقتلهم وأسرهم ، ثم سار فى طلب الفرقة الثانية ، وكانوا قد عزموا على الدخول إلى الحجاز ومكة والمدينة لينبشوا قبر المصطفى صلى الله عليه وسلم وينقلوا جسده الشريف المقدس إلى بلادهم ، ويدفنوه عندهم ولا يمكنوا المسلمين من زيارته إلا بجعل ، فأدركهم لؤلؤ ولم يبق بينهم وبين المدينة إلا مسافة يوم ، وكانوا ثلثمائة ونيفا ، وقد انضم اليهم عدة من العربان ، فعند ما لحقهم

لؤلؤ فرت العربان فرقا من سطوته ، وطمعا فى عطيتـــه ، فتحصن الفرنج برأس جبل فضايقهم فيه حتى استسلموا ، فقبض عليهم وقيدهم وحملهم إلى القاهرة ، فكان لدخولهم يوم مشهود ، فقتلوا — وساق رجلين من أعيان الفرنج إلى منى ونحرهما هناك كما تنحر البدن التى تساق إلى الكعبة

هذا وكان لؤلؤ الحاجب من أجناد مصر أيام الفواطم ، فلما ملك السلطان مصر جعل على الاسطول حتى كانت له هذه المنة على أهل الاسلام ، وكان تسييره لقتال الفرنج بأمر السلطان ، فانه علم فكتب إلى أخيه بتسييره

غارات السلطان على الفرنج

بعد أن فرغ السلطان من أمور حلب جعل فيها ولده وسار إلى دمشق وتجهز منها للغزو فعبر الأردن ، واغار على بيسان ؛ ثم تجهز إلى الكرك فحاصرها وضيق عليها ، ثم تركها وعاد إلى دمشق وخرج اليها جملة مرات فلم يقدر عليها ، إذ كان الافرنج كلما هم بها ليستولى عليها — لأنها فى طريق القوافل إلى مصر — خرجوا اليها براجلهم وفارسهم ، فيحصل عليها القتال الشديد من غير طائل

ثم خرج من دمشق وعبر الأردن إلى بيسان فنهبها . وحرق العسكر مالم يمكن أخذه من أمتعتها . وسار إلى الجالوت وهى قرية عامرة عندها عين جارية فخيم بها وارسل طلائعه فصادفوا عسكر الكرك والشوبك سائرين نجدة للفرنج ، فقتلوا منهم وأسروا

وبلغ السلطان أن الفرنج اجتمعوا فى ناحية فسار اليهم وأوقع بهم ونال منهم . وعاد إلى دمشق ظافرا منصورا ، وأعطى الناس دستورا

امر الموصل

ثم رحل السلطان إلى الموصل ثانية سنة ٥٨١ﻫ وحصرها فأرسل اليه عز الدين والدته وابنة عمه نور الدين وغيرهما من النساء وجماعة يطلبون منه ترك الموصل وما بأيديهم . فردهم . واستقبح الناس ذلك من السلطان لاسيما وفيهن بنت نور الدين فلم يلتفت .وحاصر الموصل وضايقها ثم تركها وذهب فاستولى على خلاط ثم استولى على ميافارقين وغيرها وعاد الى الموصل المرة الثالثة ، فجاءته رسل عز الدين تطلب اليه الصلح ، وكان السلطان قد أصابه مرض شديد وسار الى حران فلحقته الرسل بالاجابة إلى ماطلب وهو : أن يسلم صاحب الموصل البلاد وأعمالها ، وان يخطب للسلطان على جميع منابر الموصل وما بيده ، وأن يضرب اسمه على الدنانير والدراهم — فقبل السلطان وتسلم . واستقر الصلح وأمنت البلاد من حالة الحرب

وكان سبب انقياد عز الدين هذا الانقياد بعد أن امتنع فى المرتين السابقتين : أنه أرسل الى الخليفة العباسى فى بغداد يستنصره على السلطان ويستمده ، فلم يجد عنده مايحب ، ونظر فاذا هو لاقبل له بالامتناع الى النهاية وبخاصة لأن السلطان عزل الموصل عن البلاد التى حولها ، فانقطع امله من المدد يأتيه منها ، وعلم مرض السلطان فرأى ذلك فرصة لسرعة انقياده ورقة قلبه ، فبادر الى التسليم صاحا لئلا يؤخذ ملكه عنوة ، وأرسل رسله فتم على ايديهم مايريد . وحقنت دماء الفريقين ، وبذلك ضم السلطان الى ملكه فى الشام ، بلاد مابين النهرين . واستوعب مملكة سيده نور الدين فتحا وملكا ، وصارت الكلمة له وحده فى هذه البلاد وفى مصر وملحقاتها

ولعلك تشعر بعد هذا أن السلطان بهذه المعاملة قد نقض العهد والميثاق ، وكفر بنعمة سيده وولى نعمته ، وخانه فى أولاده وإخوته وأهل بيته ، طغى عليهم وبغى ، وقاتل جندهم واستلب منهم املاكهم واستنزلهم من اوج مجدهم واذلهم واخضعهم لسلطانه ، وكان من الوفاء لنور الدين بالعهد ، ومقابلة النعمة بالشكر ، ان يعمل صلاح الدين على حفظ كيان هذه الاسرة وصيانة ملكها . والقناعة بما فى يده من مصر وما يلحق بها . ولكنه أبي ألا إن يحارب المسلمين . ويوسع رقعـــة ملكه بالاستيلاء علي ملك نور الدين .

وبعد . فلك أن تقول : إن الذى دفع السلطان إلى هذا الغدر بأسرة سيده ، هو حب التوسع فى الملك بعد موت سيده وتمزق مملكته بين ولده الصالح وابن أخيه سيف الدين غازى ، وبخاصة لأن الصالح كان خليفة أبيه بالاسم . والأمر كله بيد الأمراء المستبدين به . وأى سلطان فى الأرض يحس من نفسه القوة ومن جيرانه الضعف ولا ينتهز هذه الفرصة للاغارة ؟

ولك إذا أحسنت الظن بالسلطان أن تقول : إن الذى دفع السلطان إلى ما صنع هو الوفاء بعينه لهـــذا البيت وقد اصابه ما أصابه . وتعرض إلى الزوال على يد الصليبيين . فأراد أن يتقى هذا الشر ويجمع ملك الشام إلى مصر . فيجمع بيديه القوة التى يتمكن بهـا من خدمة الاسلام والمسلمين أى من تنفيذ الغرض الاسمى الذى كان سيده قد وقف حياته عليه . وهو طرد الافرنج من بلاد الشام واستئصال شأفتهم . فيكون بذلك قد وضع الحلقة النهائية فى سلسلة الأعمال المجيدة التى أنشأها نور الدين فى هذا السبيل ولم يبال بما قد يوجهه اليه قصار النظر فى السياسة من رميه بالجشع والطمع

وارتكاب ماليس من الوفاء والشكر على الجميل . والغدر بصاحب النعمة عليه فى ولده وأهل بيته .

وإنك إذا نظرت إلى النتيجة حمدت لصلاح الدين عمله . وأوليته من الثناء ماهو جدير به . ورأيته حسن النية قوى التدبير ثاقب النظر مؤثراً مصلحة الاسلام وأهله على مصلحة الافراد — وقد تم له بهــذا العمل المشكور ما كان يبغى نور الدين من إذلال الكفار وأهل الصليب على ما ستري ، ولعل نور الدين وهو فى قبره يغتبط بالنتائج الباهرة التى وصل اليها السلطان . وإن كان بينهما قبل وفاته ماعلمت وان كان السلطان قد أزال دولته ومحا من سجل الوجود ملكه .

امر الصليبيين

بعدأن فرغ السلطان من أمر أمراء المسلمين بالشام والجزيرة . وأمن على حدود دولته من اغاراتهم . تفرد إلى الصليبيين . ووجه قواه كلها اليهم بالشام رجاء استئصالهم . واستعادة هذه البلاد إلى أهلها المسلمين وقد شجعه على المضى فى هذا السبيل أمور :

(١) القوة المعنوية والغيرة الدينية والحمية الاسلامية فى نفوس المسلمين كانت إذ ذاك على أشد مايكون من الثورة . لتملك النصارى بيت المقدس بله سواحل الشام

(٢) أن هذه القوة فى الصليبيين ضعفت شيئاً فشيئاً بعد أن تم لهم تأسيس إماراتهم بالشام وتملك بيت المقدس . وزادهم ضعفاً ما كان من كثرة حروبهم مع المسلمين فى الشام ومصر . وصار المدد الذى يأتيهم من أروبا لايعوض عليهم ما كانوا يفقدونه فى هذه الحروب من مال ورجال

(٣) كثرة الخلاف والتحاسد بين أمرائهم ، وتعدى بعضهم على بعض حتى أضطر قمص طرابلس إلى موالاة صلاح الدين والعمل معه على أهل ملته . ولولا خوفه منهم لأسلم

(٤) ما رآه صلاح الدين من هذا كله . وما تبين له من أعمال آل البيت الزنكى ونكايتهم فى الصليبيين ، فاشتدت الرغبة عنده فى ألا يرى نفسه أقل منهم ضربا ولا طعنا ولا جهادا . وبخاصة لأن ظروفه اليوم أفضل من ظروفهم فى أيامهم . واستعداده أكمل وأمراله أوفر فثارت ثائرته وقوى يقينه ، وعلم أن الله ناصره ، فنهض نهضة الليث الغيور ، وأعد الجند من كل قطر ، فاجتمعوا اليه بعشترا ، وعرضهم ورتبهم ، وسيرمنهم إلى جميع النواحى الفرنجية للاغارة . وسار إلى طبرية وكانت لقمص طرابلس ، فافتتحها عنوة . فاجتمع الفرنج للقائه حتى هذا القمص الموالى .

وقعة حطين

وهى الموقعة المباركة على المؤمنين ـ إذ فتح الله بها الساحل وبيت المقدس . وبيانها أنه لما أخذ السلطان طبرية اجتمع الفرنج وملوكهم بفارسهم وراجلهم وذهبوا إلى السلطان . فركب اليهم (٥٨٣) وترك على طبرية من يحفظها . فالتقى العسكران على سطح جبل طبرية الغربى منها . وحال الليل بين الفئتين . فباتا على مصاف . شاكى السلاح . فلما طلع النهار ركب العسكران وتصادما واشتد الامروضاق الخناق بالقوم . حتى لم يبق إلا الظفر ، فحال الليل بينهما وبات كل فريق فى سلاح حتى اشرقت شمس اليوم الذى بورك فيه . فالتحم القتال واستبسل الفريقان وتحقق المسلمون أن من ورائهم

الأردن ، ومن بين ايديهم بلاد القوم . وأنه لاينجيهم الا الله تعالى فحملوا من كل جانب وصاحوا صيحة الرجل الواحد ، فألقى الله الرعب فى قلوب الكافرين. فكان أول من هرب القمص وانهزمت طائفة فلم ينج منها واحد. واعتصمت الأخرى بتل حطين ، فضايقهم المسلمون عليه ، وأشعلوا حواليهم النيران ، حتى قتلهم العطش ، وضاق بهم الأمر حتى كانوا يستسلمون إلى الأسر خوفا من القتل ، فأسر مقدموهم وقتل الباقون أو أسروا

وكان ممن أسر من مقدميهم الملك جفرى وأخوه . والبرنس ارناط وهو صاحب الكرك والشوبك . وغيرهم

أما القمص فقد وصل إلى طرابلس . وأصابته ذات الجنب فهلك وأما البرنس فكان السلطان نذر أنه إذ أظفر به قتله ، وذلك أنه كان عبر به بالشوبك قافلة من الديار المصرية أيام الصلح. فنزلوا عنده بالامان . فغدر بهم وقتلهم . فناشدوه الله والصلح . فقال مايتضمن الاستخفاف بالنبي صلى الله عليه وسلم ، فبلغ ذلك السلطان فنذر ذلك النذر

ولما فتح الله بالنصر جلس السلطان فى خيمته . ثم استحضر الملك جفرى وأخاه والبرنس فشكا الملك العطش . فأحضر له قدحا من شراب فشرب منه وناوله البرنس . فقال السلطان للترجمان : قل للملك أنت الذى سقيته . وأما أنا فما أسقيه من شرابى ولا أطعمه من طعامى . قصد أن كل من أكل من طعامى فالمروءة تقضى إلا أوذيه ، على عادة العرب وكريم أخلاقهم من أن الاسير إذا أكل أوشرب من ماء لمن أسره أمن بذلك . ثم أمر بمسيرهم إلى موضع معين فأكلوا شيئا . ثم استحضرهم وأقعد الملك فى الدهليز وطلب البرنس وأوقفه على ماقال ، وقال له ها أنا أنتصر لمحمد

عليه الصلاة والسلام ، ثم عرض عليه الاسلام فلم يفعل . فضربه فحل كتفه وتمم عليه من حضر وعجل الله بروحه إلى النار . فأخذ ورمى على باب الخيمة . فلما رآه الملك لم يشك أن السلطان يثنى به . فاستحضره وطيب قلبه . وقال لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك — وبات الناس تلك الليلة على أتم سرور ترتفع أصواتهم بالحمد لله والشكر له حتى طلع النهار . وتسلم السلطان قلعة طبرية . وكان من جملة ماغنم المسلمون منهم صليب الصلبوت الذى يزعمون أنه من الخشبة التى صلب عليها المسيح . وهو مغلف بالذهب مكلل بالدر — فكان أخذه عندهم أشد من أسر الملك.وكانت طبرية عندهم تقاسم على نصف مغل البلاد . ثم جمع الأسرى وأرسلهم إلى دمشق . فمن شاهد القتلى حواليها · قال ما هنالك أسير . ومن عاين الاسرى قال ما هنالك قتيل

نتائج فتح طبرية

لم يشف نفوس المسلمين منذ استولى الفرنج على ساحل الشام يوم كيوم حطين . ولولم يكن للسلطان إلا فضيلة هذا اليوم ، لكان متفردا على من سبقه من الملوك ، فقد كان فتح طبرية فتحا للبلاد الأخرى التى بأيدى الفرنج ، إذ لم تقم لهم بعدها قائمة ، وما أدراك أنهم كانوا ٦٣٠٠٠ فارس وراجل ، أسر منهم ٣٠٠٠٠ وقتل نحو ذلك ، ولم ينج منهم فيما علم غير القمص فى أربعة نفر ·

وبلغ ثمن الاسير بدمشق ثلاثة دنانير . وأخذ من الغنم والبقر والابل والخيل والبغال مالم يحضر من يشتريها من كثرة السبى والغنائم . واشترى رجل نعلا بأسير كان بيده . فقيل له فى ذلك . فقال أردت أن يذكر هذا

ويقال بلغ من هوان الفرنج وكثرتهم أن بيع منهم واحد بنعل

وما أصيب الفرنج منذ خرجوا إلى الشام فى سنة ٤٩١ إلى الآن بمصيبة مثل هذه الموقعة

ولما لم يترك الفرنج فى بلادهم حين زحفهم إلى السلطان إلا قليلا من الجند، رحل السلطان إلى عكا وفتحها بالامان. ثم فرق عساكره ففتحوا الناصرة وقيسارية وحيفا وغيرها مما يجاور عكا. وقتلوا وأسروا وغنموا. وسارت فرقة إلى نابلس فملكوا قلعتها بالأمان. وسار السلطان إلى صيدا فأخلاها صاحبها وتسلمها السلطان ساعة وصوله ثم سار إلى بيروت فحاصرها ثم تسلمها بالأمان

وافتدى صاحب جبيل من الاسر بتسليم مدينته فأجيب. وكان من أعظم الفرنج وأشدهم عداوة للمسلمين، ثم سار السلطان إلى عسقلان وحاصرها حتى سلمت بالأمان. وتسلم فى طريقه مواضع كثيرة كالرملة والداروں. وتسلم أصحابه غزة وبيت جبرين وغيرها بغير قتال

ولم ير السلطان قصد صور بعد أن نزل عليها، لأن العسكر كان قد تفرق فى الساحل. وذهب كل إنسان يأخذ لنفسه شيئا. ولأن صور كان قد اجتمع فيها كل افرنجى بقى فى الساحل. وكان كل من استأمن من الفرنج يمضى اليها حتى غصت بالوافدين، فرأى أن يقصد ماهو أسهل علاجا منها حتى يتفرغ إليها إذ لم يبق فى الساحل بيد الفرنج من جبيل إلى حدود مصر غيرها وغير القدس

فتح القدس الشريف

لما تسلم السلطان عسقلان والاماكن المحيطة بالقدس شمر لأخـذ هذه المدينة المقدسة ، واجتمعت عليه العساكر التى كانت متفرقة فى الساحل بعد انقضاء لباناتها من النهب والغارة ونزل على القدس فى رجب سـنة ٥٨٣ وكان نزوله بالجانب الغربى منها وهو مشحون بالمقاتلة من الخيالة والرجالة وعددهم لايقل عن ستين ألفا ماعدا الصبيان والنساء ، فانتقل إلى الجانب الشمالى حتى يفسد عليهم تدبيرهم ونصب عليه المجانيق ، وضايقه بالزحف والقتال وكثرة الرماة ، حتى أخذ النقب فى السور

فلما رأى العدو مانزل بهم من الأمر الذى لايندفع عنهم ، وكان قد ألقى فى قلوبهم الرعب مما جرى على أبطـــالهم من السبى والقتل والأسر وماجرى على حصونهم من الاستيلاء والأخذ ، علموا أنهم إلى ماصاروا إليه صائرون ، فاستكانوا وأخلدوا إلى طلب الامان

واستقرت القاعدة بالمراسلة بين الطائفتين ، فسلموا القدس فى يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب ، وكان فتوحا عظيما شهده من أهل العلم خلق كثير ، وذلك أن الناس حينما شاع أن السلطان قصد القدس بعد فتح الساحل قصدوه من مصر والشام بحيث لم يتخلف معروف ، فلما سلم العدو ارتفعت الاصوات بالتهليل والتكبير وحط الصليب الذى كان على قبة الصخرة وكان شكلا عظيما ، ونصر الله الاسـلام نصر عزيز مقتدر ، ورفعت الاعـلام الاسلامية على أسوار المدينة

وكانت قاعدة الصلح : أنهم قطعوا على أنفسهم عن كل رجل عشرة دنانير

وعن كل امرأة خمسة دنانير صورية ، وعن كل صغير ذكر أو أنثى دينارا واحدا ، فمن اعطى القطيعة سلم نفسه ، والا أخذ أسيرا . وفرج الله عن الاسرى الذين كانوا بهذه المدينة المقدسة ، وكانوا ثلاثة آلاف أسير ، وأقام السلطان يجمع الاموال ، ويفرقها على الامراء والعلماء ، ويوصل كل من دفع قطيعته حتى يبلغه مأمنه وهو صور — وكان نور الدين قد عمل منبرا بحلب وقال هذا لأجل القدس . فأرسل السلطان من أحضره وجعله فى المسجد الاقصى

فتح مدن أخرى

ثم سار إلى صور فنزلها فى رمضان وحاصرها ، وكان قد استدعى اسطول مصر ، فشدد عليها من البر والبحر ، ولكنه لم يظفر منها بطائل ، لكثرة من كانوا فيها ممن أجازلهم السلطان النزول بها من الصليبيين ، وكسر الاسطول الاسلامى ولم يسلم من المسلمين الا من سبح ، وأسر الباقون أو قتلوا ، فاستشار السلطان الامراء عند ذلك فأشاروا بالرحيل ليأخذ العسكر جزءا من الراحة ويستعدوا استعدادا جديدا ، فرحل وأعطى العساكر دستورا ، وأقام هو مع جماعة من خواصه بعكا حتى دخلت سنة ٥٨٤ فرأى أن يضعف قلوب من فى صور بأخذ الحصون الباقية بيد الصليبيين ، فسار إلى (كوكب) وجعل على حصارها أميرا وعاد إلى دمشق ، وكتب إلى الأطراف باجتماع العساكر ، ثم سار من دمشق ونزل على بحيرة قدس غربى حمص ، فوافته العساكر بها

وأولهم عساكر عماد الدين زنكى صاحب سنجار ونصيبين ، ثم عساكر الموصل ، مما يدلك على نجاح الفكرة التى قصد اليها صلاح الدين من

الاستيلاء على مملكة نور الدين، فلما اجتمعت له العساكر أغار على بلاد امارة طرابلس . ثم أمر الناس بالتزود إلى شهر ، ورحل على تعبئة حتى وصل إلى (انطرسوس) فى جمادى الأولى سنة ٥٨٤ وهى مدينة راكبة على البحر فأحاط بها وأمر الناس بالزحف والقتال حتى صعدوا سورها وأخذوها بالسيف وغنموا جميع من بها وما بها وخرجوا والاسرى والأموال بأيديهم ثم أمر باخراب سورها وبيعتها العظيمة التى كانوا يحجون اليها من أقطار بلادهم

ثم سار إلى (جبلة) فسلمت بالأمان بغير قتال

ثم إلى (اللاذقية) وهى بلد مليح خفيف وله ميناء وقلعتان متصلتان على تل مشرف على البلد . فأحاط المسلمون بهما واشتد القتال وعظم الزحف وأخذ البلد وغنم الناس منه غنيمة عظيمة ، لأنه كان بلد التجار ، ثم زحفوا على القلاع . ولما رأى أهلها ماحل بهم من الصغار . استغاثوا بطلب الأمان فاجيبوا ، على أن يخرجوا بنفوسهم وذراريهم وأموالهم ، خلا الغلال والذخائر وآلات السلاح والدواب إلا مايركبونها إلى مأمنهم

ثم إلى (صهيون) وهى قلعة حصينة منيعة فى طرف جبل ، خنادقها أودية هائلة واسعة عظيمة ولها ثلاثة أسوار . فنصب عليها ستة مناجيق ، فلما اشتد الحال بأهل صهيون ، طلبوا الأمان على أن يسلموا بأنفسهم وأموالهم ويؤخذ من الرجل عشرة دنانير ، ومن المرأة خمسة ، وعن الصغير ديناران

وعلى نحو من هذا كان فتح بكاس وبرزية ودربساك وبغراس وكلها قلاع حصينة رقى العلم الاسلامى عليها ، وبعد فتح الأخيرة طلب أهل (انطاكية) الصلح فصالحهم ؛ لشدة ضجر العسكر وقلق عماد الدين صاحب

سنجار ، وكان الصلح على سبعة أشهر ، فان جاءهم من ينصرهم والا سلموا البلد إلى السلطان ، وعلى أن يطلقوا جميع أسارى المسلمين الذين عندهم ، ثم رحل إلى دمشق مارا بولده الملك الظاهر في حلب ، ثم بابن أخيه الملك المظفر تقي الدين في حماه ، ثم وصل إلى بعلبك وإلى دمشق ، وكان قد بقي من القلاع القريبة من حوران التي يخاف عليها (صفد) و(كوكب) فاستولى على الأولى في رمضان بالامان ، وفي خلال حصارها سلمت (الكرك) من جانب نواب صاحبها وكان قد أسر في حطين فتخلصوه بها من الاسر وكان السلطان لما سار إلى البلاد الشمالية قد جعل على الكرك وغيرها من يحاصرها ، وخلى أخاه العادل يباشر ذلك ، فأرسل أهل الكرك يطلبون الأمان ، فأمر الملك العادل المباشرين لحصارها بتسلمها فتسلموا (الكرك والشوبك) ومابتلك الجهات من البلاد

أما السلطان فسار إلى كوكب ، وأحدق بقلعتها ، وضايقها حتى طلب أهلها الامان فأجابهم ، وعاد إلى القدس فعيد فيه عيد الأضحى

ثم سار إلى عسقلان يلم شعثها ، وعاد يطلب عكا على طريق الساحل

ثم نزل على شقيف أرنون ، وهو موضع حصين قريب من بانياس ، فلما رأى صاحبه مايتعرض اليه من الفساد في الاحوال ، نزل بنفسه إلى خيمة السلطان وذكر له أنه مملوكه وأنه تحت طاعته ، وأنه يسلم الشقيف على أن يعطى موضعا يسكنه بدمشق وإقطاعا يقوم به وبأهله ، فانه لا يقدر على مساكنة الفرنج ، وأن يقيم حيث هو إلى أن يتمكن من تخليص أهله وجماعته من صور فأجيب إلى ذلك كله

بدء علاقة السلطان بملوك اوربا

كان السلطان كلما فتح قلعة أو بلدا طلب أهلها أن يبلغهم مأمنهم ، وكان ذلك المأمن (صور) فكان اجتماعهم بها من أعظم أسباب الضرر على المسلمين وقد ظهر ذلك فما بعد ـ وكان حين تسلم عسقلان قد اطلق ملك الساحل على ألا يشهر فى وجهه سيفا أبدا ، ويكون غلامه ومملوكه وطليقه أبداء فنكث (لعنه الله) وجمع جموعا واتى صور يطلب الدخول اليها ، فراسل المركيس الذى كان بها فى ذلك الوقت ، وكان المركيس رجلا عظيما ذا رأى وبأس شديد فى دينه ، فقال انى نائب الملوك الذين وراء البحار (ملوك أوربا) وما اذنو الى فى تسليمها اليك ، وطالت المراجعة بينهما ثم استقرت القاعدة على أن يتفقا جميعا على المسلمين ، وحصل بينهم وبين السلطان وقائع كانت الحرب فيها سجالا غالبا . ولكن الفرنج اجمعوا قصد عكا وساروا حتى نزلوا عليها فى رجب سنة ٥٨٥

حيلة المركيس صاحب صور والحملة الصليبية الثالثة

كان صاحب صور من أعظم الفرنج حيلة وأشدهم بأسا . وهو الأصل فى تهييج جموع أوربا من وراء البحر ، وذلك أنه صور القدس فى ورقة وصور القيامة التى يحجون اليها ويعظمون شأنها وصور قبر المسيح الذى دفن فيه بعد صلبه بزعمهم، وصور على القبر فرسا عليه فارس مسلم راكب وقد وطىء قبر المسيح وبال الفرس على القبر . وصور صورة المسيح وصورة عربى يضربه وقد أدماه . وقال · هذا نبى العرب يضرب المسيح وأبدى هذه الصور وراء البحر فى الأسواق والمجامع . وحملها القسوس ورءوسهم مكشوفة وعليهم المسوح وهم ينادون بالويل والثبور وللصور

عمل فى قلوبهم . فانها أصل دينهم . فخرجت النساء من بيوتهن . وهاج بذلك خلق لايحصى عددهم إلاالله فساروا ، وكان من جملتهم ملك الألمان وجنوده برا . ووصل من الافرنج فى البحر عالم لايحصون كثرة . وساروا من صور إلى عكا وضايقوها

وهذه هى الحملة الصليبية الثالثة التى استحدثت اليها أوربا بعد فتح القدس ، واضمحلال الامارات الصليبية بالشام وتمتاز عن سابقتيها بأنها كانت مؤلفة من جيوش نظامية يقودها أعظم الملوك المسوقين إلى ذلك لا بالحماس الدينى وحده . بل بحب الاستعمار وسعة الملك ، وكان توحيد كلمتهم يعدمن الأمور المستحيلة للتنافس الشديد فى أوربا حينئذ بين أهليها ، ولسيادة الروح القومية وحدتها، ولكن سقوط المدينة المقدسة عندهم جميعا كمسيحيين خفف من هذه الحدة ، إذ عند الشدائد تذهب الأحقاد

عاهل الألمان فردريك برباروس

اتخذ هذا الطاغية طريق البر الى آسيا الصغرى فى مائتين وستين ألفا حتى وصل إلى القسطنطينية ، وعبر إلى بلاد صاحب قونية ، فلم يجد هذا بدا من مساعدته حتى وصل إلى نهر طرسوس بجنده ، وعن لبرباروس أن يسبح فيه وكان ماؤه شديد البرد ، فعرض له بسبب ذلك مرض عظيم اشتد به إلى أن قتله ، فتفرق بموته عدد كبير من جنده ، وعادوا إلى بلادهم وأقام الباقون منهم ولده فى قيادتهم

أما السلطان فانه لما بلغه قرب هذا العاهل الكبير إلى البلاد الاسلامية جمع أمراء دولته وأهل الرأى وشاورهم — وكان قد استدعى جنود الشرق فاسرعت اليه — فاجمعوا أمرهم على إرسال فريق لحماية البلاد الاسلامية

التى فى طريق بربا روس ، وأستبقاه فريق لمنازلته

أما ولد هذا العاهل الذى أقيم مقامه ، فأصابه مرض أقعده ففرق جنده على بغراس وانطاكية وغيرها ، فأصابهم من المرض والموت ما أصابهم ، ولكن بقيتهم استقرت فى انطاكية ، فسار اليهم ذلك المريض وهم لاستقباله وهو سائر إلى صور صاحب صور المركيس ، حتى أتوا طرابلس فى شعبان سنة ٥٨٦ ، فأقام بها حتى استجم عسكره ، وأرسل إلى النازلين بعكا يخبرهم بقدومه اليهم ، ولما طابت الريح ساروا حتى أتوا صور ، وأنفذوا العساكر إلى عكا ، ثم وصل اليها الالمانى فما كان أشد فرحهم به ، وأراد منازلة المسلمين فخوفوه فلم يتهيب ، بل خرج واتبعه معظم الفرنج راجلهم وفارسهم ، فأصابتهم سهام المسلمين من كل جانب ، فعادنا كصا على عقبة قانعا من الغنيمة بالاياب ، واشتغل بعد ذلك بمساعدة بقية الفرنج على عكا ، واهلها من داخلها يقاتلونهم ، والسلطان يقاتل من الخارج ، ويرسل الامداد اليهم حتى دخلت سنة ٥٨٦ فمرض ابن ملك الالمان مرضا عظيما بالطاعون وعرض له مع ذلك مرض الجوف فهلك به فى أواخر هذه السنة ، وحزن الفرنج عليه حزنا عظيما ، وهلك معه كثير من القادة ، ومع ذلك فقد ظل الفرنج يعملون فى عكا بجد وحزم لكثرتهم وكثرة الوافدين اليهم من البحر

خبر ملكى فرنسا وانجلتره

اجتمع فيلب اغسطس ملك فرنسا ، وريشارد قلب الاسد ملك انجلترة فى مرسيليا بجنودهما ، وابحروا يريدون عكا ، فوصلوا إلى صقلية واقاموا بها سنة ، ثم قصدوا عكا ولكنهم عرجوا على قبرس . فنزلها ريشارد ولم ير ان يتجاوزها ، الا أن تكون له وتحت حكمه ، وسار فيلب إلى عكا فانقادت

اليه الفرنج . وبعد أن تم الصلح بين ريشارد وصاحب قبرس سار إلى عكا وكان عندهم دون فيلب ولكنه اكثر مالا واشهر فى الحرب والشجاعة، فكان لقدومه روعة عظيمة. ونازل الجميع البلد ومازالوا يوالون على الاسوار بالمناجيق حتى خلخلوها واضعفوا بنيانها . وضعف من فيها عن الدفاع لقلتهم . واشتد ذعرهم ورأوا اعين الهلاك وتيقنوا أنه متى أخذت البلد عنوة ، ضربت أعناقهم عن آخرهم ، وأخذ جميع ما فيه من العدد والأسلحة والمراكب ، فصالحوهم على أن يسلموهم البلد وما فيه ، وصليب الصلبوت ، ويخرجوا بأنفسهم سالمين ويأخذوا ذراريهم ونساءهم فاستقرت القاعدة على ذلك

أما السلطان فأنكر هذا الصلح ، ولكنه مالبث أن رأى هو وجنده أعلام الكفر وصلبانه وشعاره وناره على أسوار المدينة ، وذلك فى السابع عشر من جمادى الآخرة سنة ٥٨٧ ، ودخل المركيس البلد ومعه أعلام الملوك فنصب علما على القلعة ، وعلما على مأذنة الجامع ، وعلما على برج القتال عوضا عن علم الاسلام — وحيز المسلمون إلى بعض النواحى ، وأخذ السلطان يفكر فى مسائل البلاد الساحلية والقدس ، وكيفية تخليص أسرى المسلمين فى عكا ، واستقر الرأى على أن فى تأخير المنازلة مصلحة ، فكف وكفوا ، ثم تواترت الرسل بين الفريقين ، وأبى السلطان أن يسلم اليهم بشىء آخر حتى يطلقوا الاسرى — فلما رأى رتشارد (الانكتار) توقف السلطان عن بذل المال والاسرى والصليب ، غدر بأسرى المسلمين ، وكان قد صالحهم على تسلم البلد منهم على أن يكونوا آمنين على نفوسهم على كل حال وأنه إن دفع السلطان اليهم ما استقر أطلقهم بأموالهم ونسائهم ، وإن امتنع من ذلك ضرب عليهم الرق وأخذهم أسرى ، فلما رأى ما

رأى من السلطان غدرهم ، وكانوا زهاء ثلاثة الاف ، ثم قيدهم فى الحبال ، وحمل عليهم الرماة حملة رجل واحد فقتلوهم صبرا . ضربا وطعنا ،وذلك على مرأى ومسمع من الجيش الاسلامى المرابط — ويقال إن رتشارد ماقتلهم إلا فى مقابلة من قتل من الفرنج ، وانه كان قد عزم على السير إلى عسقلان للاستيلاء عليها . فرأى أن يخلف تلك العدة فى عكا وراءه

وماكاد رتشارد يحرز هذا النصر حتى حصل بينه وبين فيلب خلاف وتنازع أدى إلى أن ملك فرنسا خلى له البلاد وعاد من حيث أتى ، وانفرد رتشارد بالسلطان

وبعد ذلك سار الفرنج من عكا بأسرهم يقصدون بلاد الساحل فوصلوا إلى قيسارية ، واستولوا عليها ؛ ثم جرى حديث الصلح ، وطلب رتشارد الاجتماع بالملك العادل ليكون وسيطا ، فلما جاءه قال له : أنتم تطلبون الصلح ولا تذكرون مطلوبكم فيه · حتى أتوسط أنا الحال مع السلطان . فقال رتشارد : القاعدة أن تعود البلاد كلها الينا . وتنصرفوا إلى بلادكم . فأخشن له الجواب وجرت منافرة اقتضت انهم رحلوا بعد انفصالهم

وقعة ارسوف وهى أنكث فى قلوب المسلمين

بلغ السلطان أن العدو تحرك إلى أرسوف ، فركب والتقى الجمعان واشتد القتال والسلطان يحث الناس على الجهاد . ولكن الفرنج كانوا أصبر فما لبث ان فر قلب المسلمين وانكسرت الميسرة وفرت أشد فرار ، وثبت السطان فى نفر قليل . وانتصر الافرنج وقصدوا يافا وقد اخلاها المسلمون فملكوها

وسار السلطان يريد عسقلان ليخربها . وترك الملك العادل ومعه طائفة

من العسكر مقارب العدو ليعرف احوالهم وانما أراد تخريب عسقلان لئلا يملكها الفرنج وهى عامره فيقتلوا من بها من المسلمين ،ويأخذوا بها القدس . ويقطعوا طريق مصر . خشى ذلك كله ، وعلم عجز المسلمين عن حفظها لقرب عهدهم من وقعة عكا . وما جرى على من كان مقيما بها فنزل على عسقلان وأخلاها وخربها . ورتب الحجارين فى قلع اسوارها وتخريبها ، فدكها إلى الارض — ثم رحل إلى الرملة وخرب حصنها ، وخرب كنيسة لدثم سار إلى القدس وقرر أموره وعاد الى المعسكر

ثم تراسل الافرنج والسلطان ، وكان البادىء بالمراسلة المركيس فأرسل رسوله يذكر أنه يصالح الاسلام بشرط أن يعطى صيدا وبيروت على أن يجاهر الفرنج بالعداوة . ويقصد عكا ويحاصرها ويأخذها منهم. فأجابه السلطان إلى ملتمسه . لقصد فصله عن الافرنج ، فانه كان قد استشعر منهم أخذ بلده صور . فانحاز عنهم وفر من عكا واستعصم بصور

وفى نفس اليوم الذى أرسل فيه المركيس رسوله . خرج رسول ملك الانكتار إلى الملك العادل لتحريك الحديث فى أمر الصلح . وترددت الرسل بينهما . وعاد الانكتار إلى عكا حينما بلغه حديث المركيس فمرض بها ولما طال عليه المرض كتب إلى الملك العادل يسأله الدخول على السلطان فى طلب الصلح . فلم يجب السلطان إلى ذلك . ثم اتفق رأى الأمراء عليه لضجر العسكر من طول الحرب وكثرة النفقات . فنزل علـــى إرادتهم واستقر أمر الهدنة فى ثامن عشر شعبان سنة ٥٨٨ . وتحالفوا على ذلك . ولم يحلف ملك الانكتار . بل أخذوا يده . واعتذر بأن الملوك لا يحلفون وحلف الكند ابن أخته وخليفته على الساحل . وحلف غيره من العظماء

ووصل مندوبوهم فأخذوا يد السلطان واستحلفوا الملك العادل والملك الأفضل والملك الظاهر والملك المنصور وغـــيرهم من الأمراء. وعقدت الهـــدنة فى البحر والبر. وجعلت مدتها ثلاث سنين وثلاثة أشهر وعاد رتشارد إلى أوربا. واصبحت عـكا مركز الصليبيين بدل بيت المقـدس وامتد أجلهم فى الشام مائة سنة أخرى — وهاك أهم شروط الصلح

(١) أن يستقر بيد الفرنج . يافا وعملها وقيسارية وعملها وحيفا وعملها وعكا وعملها وأن تكون عسقلان خرابا

(٢) أن تدخل بلاد الاسماعيلية فى عقد هدنة السلطان

(٣) أن يدخل صاحب أنطاكية وطرابلس فى عقد هدنتهم

(٤) وأن تكون لد والرملة مناصفة بينهم وبين المسلمين

وأمر المنادى أن ينادى فى الأسواق : ألا إن الصلح قد انتظم فى سائر بلادهم فمن شاء من بلادهم أن يدخـل إلى بلادنا فليفعل. ومن شاء من بلادنا أن يدخل بلادهم فليفعل. وذهب جماعة من المسلمين إلى يافا فى طلب التجارة. ورحل خلق عظيم من الفرنج إلى القدس للحج والزيارة وخفراء السلطان يحافظون عليهم حتى يردوهم إلى يافا — وأعطى السلطان الناس دستورا وانقطع إلى القدس للنظر فى مصالحه والتأهب إلى الحج ثم رحل عن القدس ليتفقد أحوال البلاد الشامية عامة فما زال يتنقل من بلد إلى بلد حتى تصفح أحوال القلاع الساحلية بأسرها. وتقـدم بسد خللها وإصلاح أمور أجنادها. وشحنها بالأجناد والرجال.

ثم عاد إلى دمشق سنة ٥٨٩ وهو على أكمل مايكون من المسرة

موت السلطان

خرج إلى شرقى دمشق متصيــــدا وغاب خمسة عشر يوما . ثم عاد فأقام إلى صفر · وركب لتلقى الحجاج فى يوم مشهود فكانت هذه آخر ركباته — ولحقه ليلة السادس عشر من صفر كسل عظيم وغشيته نصف الليل حمى صفراوية وأخــــذ المرض فى التزايد واشتد عليه ليلة السابع والعشرين ، فمات بعد صلاة الصبح . وحضر بعد موته القاضى الفاضل والقاضى بهاء الدين بن شداد ودفن فى قلعة دمشق فى الدار التى كان مريضاً فيها

وتسرع الملك الأفضل فاستحلف الناس للسلطان إلى وفاته . واليه بعد مماته . فحلف من حلف وامتنع من امتنع . وأرسل الكتب بوفاة والده إلى أخيه العزيز عثمان بمصر . وأخيه الظاهر غازى بحلب وعمه العادل أبى بكر بالكرك ، وجلس للعزاء بالجامع ثلاثة أيام

وكان عمر السلطان يوم وفاته نحو ٧٥ سنة . ومدة ملكه مصر ٢٤ سنة · ومدة ملكه الشام ١٩ سنة وخلف ١٧ ولدا ذكرا وبنتا واحدة . وكان الأفضل أكبر الجميع والعزيز أصغر منه بسنتين . والظاهر صاحب حلب أصغر منهما وقد بقيت البنت حتى تزوجها ابن عمها الملك الكامل صاحب مصر

ولم يخلف السلطان فى خزانته غير سبعة وأربعين درهما و(جرام) واحد صورى وهذا من دخل مصر والشام والجزيرة واليمن . ولم يخلف دارا ولا عقارا

قال العماد الكاتب : مات بموت السلطان الرجال ، وفات بفواته

الافضال ، وغاضت الأيادى وفاضت الأعادى ، وانقطعت الارزاق ، وادلهمت الآفاق ، وفجع الزمان بواحده وسلطانه . ورزىء الاسلام بمشيد أركانه

ذكر ما استقر عليه الحال بعد وفاة السلطان

استقر فى دمشق وبلادها المنسوبة اليها ، ولده الملك الأفضل نور الدين على .

وفى الديار المصرية ابنه الملك العزيز عثمان

وفى حلب ابنه الملك الظاهر غياث الدين غازى

وفى الكرك والشوبك والبلاد الشرقية أخوه الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب

وفى حماه وسلمية والمعرة ومنبج الملك المنصور محمد بن تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ،

وفى بعلبك بهرأم شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه ابن أيوب .

وفى حمص والرحبة وتدمر شيركوه بن محمد بن أسد الدين بن شيركوه

وفى بصرى الملك خضر بن السلطان فى خدمة أخيه الأفضل

وفى اليمن الملك المعز أخو السلطان

وصار بيد جماعة من أمراء الدولة بلاد وحصون فى الشام

والملك الأفضل هو أكبر أولاد السلطان والمعهود اليه بالسلطنة ، هكذا فعل صلاح الدين فى دولته ، ومزقها هذا التمزيق فى حياته . وملك نواحيها أبناءه واخوته ، وكان أحيانا ينقل بعضهم مكان بعض . ولعلك تقول مابال السلطان قد أحدث هذا ، وهو الذى أغار على آل بيت نور الدين وانتزع منهم أملاكهم رجاء جمع الكلمة ، وتوحيد الرأى والوجهة وخشية

الاختلاف المؤدى إلى الضعف ، ألم يهدم اليوم مابناه بالامس ، وإذا صح أنه أراد أن يمرن أهل بيته والمخلصون من أمرائه على نظم الحكم ، والتعاون على التدبير . حتى يصبح على مرور الأيام بتعهده أياهم وإشرافه عليهم كالجبلة فى نفوسهم ، فما أدراه أنهم بعد موته لاينقادون إلى ولى عهده كما كانوا ينقادون اليه ، ويطغى بعضهم على بعض كلما أنس من نفسه قوة ، ومتى رضى أبناء الأب بحظهم الشرعى من ميراث أبيهم ، فضلا عن التفاوت العظيم بين مااختص به هذا وماجعله بيد ذاك ؟ وهل توضع مصر مثلا فى كفة ، وتوضع دمشق أوحلب مقابلها فى كفة أخرى . فيستقيم القسطاس ويكون رضا للناس ؟ اللهم لا ، ولقد أخطأ السلطان بهذا التقسيم وألقى بين خلفائه من بعده العداوة والبغضاء ، فاقتتل الأبناء واستعان بعضهم على بعض بالأعمام ، حتى أفلت الملك من الأولين وصار بيد الآخرين ، وصدقت كلمة صلاح الدين يوم صعد مع أخيه العادل قلعة الجبل ، ثم التفت اليه فقال ياسيف الدين ، قد بنيت هذه القلعة لأولادك ، فقال يا (خوند) ، من الله عليك أنت وأولادك وأولاد أولادك بالدنيا ، قال : مافهمت ماقلت لك ، أنانجيب مايأتى لى أولاد نجباء ، وأنت غير نجيب ، فيكون أولادك نجباء

ولبيان ماحصل نقول :

إن الملك الأفضل وهو ولى العهد قد استوزر ابن الأثير صاحب المثل السائر ، وأخا صاحب الكامل فى التاريخ . فحسن له طرد أمراء ابيه ففارقوه إلى أخويه الظاهر بحلب والعزيز بمصر . وكان عند العزيز جل عساكر أبيه من الأسدية والأكراد وغيرهم ، فلماورد عليه أولئك الأمراء أكرمهم (وكان قد قدم عليه أيضا القاضى الفاضل) . فحسنوا للعزيز الانفراد

بالسلطنة ووقعوا فى أخيه الأفضل . فمال إلى ذلك . وتنكر ما بينه وبين أخيه . وحصلت الوحشة بينهما . فسار من مصر لمحاربته . وحصره بدمشق فدخل بينهما عمهما العادل حتى عاد العزيز إلى مصر على صلح فيه دخل فلم يتم وخرج العزيز ثانيا إلى دمشق . فعبر عليه عمه العادل فعاد خائفا . فسار إليه الأفضل والعادل حتى نزلا بلبيس ، وجرت هنالك أمور انتهت بالصلح وأقام العادل بمصر مع العزيز يدبر إليه مملكته ثم خرج مع العزيز لمحاربة الأفضل فحصراه بدمشق حتى أخذاها منه بعد حروب ، وبعثاه إلى (صرخد) وعاد العزيز إلى مصر . وأقام العادل بدمشق حتى مات العزيز فى المحرم سنة ٥٩٥ ، فأقيم بعده ابنه الملك المنصور محمد . وعمره تسع سنين وقام بأمر الدولة بهاء الدين قراقوش الأسدى ، فاختلف عليه أمراء الدولة وكاتبوا الأفضل ، فقدم من صرخد واستولى على الأمور . ولم يبق للمنصور معه سوى الاسم ، ثم سار به من القاهرة يريد أخذ دمشق من العادل وقد توجه إلى ماردين ، فحصر الأفضل دمشق ، وبلغ العادل خبره فعاد ، وسار يريده حتى دخل دمشق ، فحصلت حروب كثيرة آلت إلى عود الافضل إلى مصر ، وخرج العادل فى أثره ، وواقعه على بلبيس فكسره سنة ٥٩٦ ، فالتجأ إلى القاهرة وطلب الصلح ، فعوضه العادل صرخد ، ودخل القاهرة وقام باتابكية المنصور ثم خلعه واستبد بالسلطنة بعده . وأخرج المنصور وإخوته من القاهرة إلى الرها . واستناب ابنه الكامل محمدا عنه ، وعهد إليه بعده بالسلطنة ، وحلف له الأمراء ، فسكن قلعة الجبل واستمر أبوه فى دار الوزارة ، وتحول الملك من بيت صلاح الدين إلى بيت أخيه العادل — هذا أثر ما أجراه السلطان من تقسيم الدولة ولو كان بالصليبيين حينئذ قوة لملكوا مصر والشام جميعا ، ولكن الله سلم

السلطان الملك العادل سيف الدين ابو بكر

قد رأيت أنه أقام بمصر على أنه نائب للمنصور بن العزيز ، ثم أنه قوى عليه وقصد الاستبداد بالملك . فأحضر الناس للحلف ؛ وكان من جملتهم الفقيه ضياء الدين بن الوراق ، فقال ماهذا الحلف ؟ حلفتم للمنصور بالأمس ، فان كانت تلك الأيمان باطلة ، فهذه باطلة ، وإن كانت تلك صحيحة فهذه باطلة ، فقال بعضهم للعادل : أفسد عليك الأمور هذا الفقيه ، فأمر العادل بالحوط على جميع موجود الفقيه وماله وأملاكه ، واعتقله بالرصد ، فأقام سنين على هذه الصورة ، وتم الأمر للعادل ، وكان من أكفأ القادة وأمهر الساسة . وكان ساعد صلاح الدين وعضده فى حروبه ولقد اتفق مع بقية ابناء السلطان وإخوته ، فعادت الوحدة فى آسيا الغربية كما كانت أيام صلاح الدين ، وكان من أخص أعوانه ومستشاريه القاضى الفاضل

علاقته بالصليبيين

حصل فى أيامه قحط لتوقف النيل عن الزيادة ، وغلت الأسعار وتعذر وجود الأقوات حتى أكلت الجيف ، بل أكل الناس بعضهم بعضاً وتبع ذلك وباء وفناء كبير . وامتد ذلك ثلاث سنين . فانتهز الفرنج هذه الفرصة وتحركوا على بلاد المسلمين سنة ٥٩٩ فكانت معهم عدة حروب آلت إلى أن عقد العادل معهم هدنة . ثم عزموا على أخذ القدس وتحركوا سنة ٦٠٠ وكثر عيثهم وفسادهم . ولكنهم علموا أنه مادام نفوذ الايوبيين قويا فى مصر . لايتأتى لهم استرداد هذه المدينة المقدسة . فحولوا وجهتهم إلى مصر .

وقعة دمياط العظمى

كان سبب هذه الواقعة أن الفرنج فى سنة ٦١٤ تتابعت أمدادهم من رومية الكبرى وغيرها إلى عكا . فاجتمع بها عدة من ملوك الفرنج وتعاقدوا على قصد القدس وأخذها من أيدى المسلمين . وبلغ ذلك الملك العادل أبا بكر فخرج من مصر فى العساكر إلى الرملة . فبرز الفرنج من عكا فى جموع عظيمة . فسار العادل إلى بيسان . فقصده الفرنج فخافهم لقلة عسكره وسار يريد دمشق . فسارع الفرنج إلى بيسان وغيرها ووضعوا السيف فى أهلها وملكوها ونهبوا وحازوا من أموال المسلمين مالا يحصى كثرة ، وعادوا إلى عكا غانمين . ثم أعادوا الكرة ونهبوا صيدا وغيرها . والعادل مقيم بمرج الصفر

وبعد ذلك عزموا على قصد الديار المصرية . فركبوا بجموعهم البحر وساروا إلى دمياط فنزلوا عليها فى ربيع الأول سنة ٦١٥ وهم نحو سبعين ألف فارس . وأربعمائة ألف راجل ، فخيموا تجاه دمياط فى البر الغربي . وأعدوا عدتهم وشرعوا فى قتال برج دمياط . وهو برج السلسلة . وكان برجا منيعا فيه سلاسل من حديد غلاظ . تمتد على النيل لتمنع المراكب الواصلة فى البحر الملح من الدخول إلى ديار مصر فى النيل . وكان البرج مشحونا بالمقاتلة . فتحيل الفرنج عليه حتى أخذوه . فشق أخذه على أهل مصر بل على جميع المسلمين فى أطراف المملكة . أما العادل فانه لما بلغه نزول الفرنج على دمياط اشتد خوفه . وخرج من مرج الصفر إلى ناحية أخرى نزل به المرض فيها فمات بعد أن لبث سلطانا على مصر تسع عشرة سنة . وكتم الملك المعظم عيسى موته وحمله فى محفة إلى دمشق ، وأما

الملك الكامل محمد بن العادل

فانه كان نائب أبيه بديار مصر ، وولى عهده ، يحكم فيها مدة غيبة أبيه بالشام وغيرها منفرداً ، ولما بلغه نزول الفرنج على دمياط خرج بالجند وأمر الأسطول فسار ، ونزل الكامل بالعادلية ، ولما بلغه موت أبيه وهو بها استقل بمملكة مصر ، وأخذ يعمل الحيل فى مكايدة الفرنج الذين زحفوا إليه عدة مرات فلم يظفروا منه بطائل ، ولم يتغير على أهل دمياط شيء ، لأن الميرة والأمداد متصلة إليهم ، والنيل يحجز بينهم وبين الفرنج ، وليس عليها من الحصر ضيق ولا ضرر ، والعربان يروعون الفرنج بتخطفهم ليلا ونهاراً حتى حرموهم الرقاد .

ثم بعث الكامل إلى الآفاق سبعين رسولا يستنجد أهل الاسلام لنصرة المسلمين ، ويخوفهم من غلبة الفرنج على مصر فأتته النجدات من حماة وحلب وبينا الناس فى ذلك ، إذ طمع الأمير ابن المشطوب فى الكامل حينما بلغه موت العادل ، وكان له لفيف ينقادون إليه وكان أميراً كبيراً مقدماً عظيما فى الاكراد وكان شجاعاً تهابه الملوك ، فاتفق مع جماعة على خلع الكامل وإقامة أخيه الملك الفائز إبراهيم ، فلما بلغ الكامل أمرهم دخل عليهم وهم مجتمعون والمصحف بين أيديهم ليحلفوا للفائز ، ولما رأوه انفضوا ، ولكن العادل خشى على نفسه فخرج . واتفق وصول الصاحب ابن سكر من آمد فذكر له ما هو فيه فضمن له تحصيل الأموال ، وخرج الكامل من العادلية فى جريدة ونزل بأشموم طناح ، وأصبح العسكر بغير سلطان فركب كل منهم هواه ، وتركوا أثقالهم وخيامهم وأسلحتهم ولحقوا بالسلطان فبادر الفرنج

فى الصباح إلى مدينة دمياط ونزلوا البر الشرقى بغير منازع ولا مدافع . وأخذوا سائر ما كان فى عسكر المسلمين وكان شيئا لا يحيط به الوصف . وداخل السلطان وهم عظيم . وكاد أن يفارق البلاد

غير أن الله أغاث المسلمين وثبت السلطان وشد عضده بأخيه الملك المعظم إذ وافاه بأشموم فأطلعه على ما كان من ابن المشطوب فركب إليه وخرج به من المعسكر وأعطاه نفقة وسلمه إلى جماعة يثق بهم فساروا به إلى حماه ومنها مضى إلى المشرق ثم أمر أخاه الفائز أن يسير إلى ملوك الشام فى رسالة عن أخيـــه الكامل لاستدعائهم إلى قتال الفرنج، فخرج إلى دمشق ومنها الى حماة فمات بها مسموما .

وبذلك ثبت للكامل ملكه وأفرخ روعه . كل هذا والفرنج يحيطون بدمياط براً وبحراً حتى ضيقوا على أهلها ومنعوا القوت من الوصول اليهم والدمياطيون يقاتلونهم أشد قتال ويمانعونهم . وألح الفرنج على دمياط حتى أعجزوا اهلها وتسوروا السور ودخلوا البلد بعد حصار ستة عشر شهراً واثنين وعشرين يوما . ووضعوا السيف فى الناس وتجاوزوا الحد فى القتل وجعلوا جامع المدينة كنيسة، وكان الكامل قد عرض عليهم أن يردا اليهم القدس وجميع ما كان فتحه صلاح الدين من الساحل ويتركوا دمياط فامتنعوا

(١) لأنهم كانوا منتصرين

(٢) لأنهم كانوا يريدون مصر اذ هى الآن أهم من القدس فان الروح الدينية التى حركت الصليبيين لأخذ الشام قد انطفأت . وحل محلها الروح المادية

(٣) لأن القدس يحيط بها من كل جانب البلاد الاسلامية فهى لا تلبث أن تفلت من أيديهم

وبعد ذلك بيومين خرج السلطان فنزل قبالة طلخا (فى موضع المنصورة)

واقعة المنصورة

ولما نزل السلطان هذه المنزلة أخذ يعدها إعدادا حربيا . وسير الكتب إلى الآفاق ليستحث الناس على الحضور لدفع الفرنج عن ملك مصر

أما الفرنج فانهم حصنوا أسوار دمياط . وبثوا سراياهم فى القرى فنهبوا وقتلوا وأسروا . ثم خرجوا من دمياط ونازلوا السلطان تجاه المنصورة وكانوا فى مائتى ألف راجل وعشرة آلاف فارس . واجتمع المسلمون من القاهرة . ونودي بالنفير العام . فاجتمع عالم لايقع عليه حصر . وقدمت النجدات من الشام حتى صار عدة فرسان المسلمين نحو أربعين ألفا . فحاربوا الفرنج فى البر والبحر . وأسروا منهم حتى تضعضعوا وضاق بهم المقام فبعثوا يطلبون الصلح على القدس وعسقلان وطبرية وجبلة واللاذقية وسائر مافتحه صلاح الدين من الساحل ليرحلوا عن ديار مصر . فبذل المسلمون لهم ذلك ماخلا الكرك والشوبك . فامتنع الفرنج وقالوا لابد من أخذ الكرك والشوبك وثلثمائة ألف دينار عوضا عما خربه الملك المعظم عيسى من أسوار القدس حينما بلغه أن الفرنج استولوا على دمياط ونازلوا الملك الكامل قبالة المنصورة . فامتنع المسلمون من اجابتهم وقاتلوهم . وعملوا على اغراق الأرض من حولهم . وكان النيل فى زيادته فاطلقوه عليها . فركبها الماء فصار حائلا بين الفرنج وبين دمياط وانحصروا فلم يبق لهم سوى طريق ضيقه . واتفق أن المسلمين ظفروا بجملة من سفن الميرة والسلاح : فلما علم الفرنج أيقنوا بالهلاك . وأحرقوا أمتعتهم وهموا بالزحف على المسلمين

ليخلصوا إلى دمياط ، فحال بينهم وبين ذلك كثرة الوحل ، والمياه الراكبة على الأرض ، وخشوا من الاقامة لقلة أقواتهم ، فنزلوا وسألوا الصلح والأمان على أن يخرجوا من دمياط بلا قيد ولا شرط .

فاستشار السلطان فى ذلك ، فاختلف الناس عليه ، ولكنهم عادوا فاتفقوا على بذل الأمان ، وأن يعطى كل من الفريقين رهائن ، وخرج قسوس الفرنج ورهبانهم إلى دمياط فسلموها للمسلمين ، وكان يوم تسليمها يوما عظيما — وعند ماتسلمها المسلمون قدمت نجدة للفرنج فى البحر . فكان من جميل صنع الله تأخرها حتى ملكت دمياط ، فانها لو قدمت قبل ذلك لقوى بها الفرنج ، ولقد وجد المسلمون دمياط قد حصنها الفرنج وصارت بحيث لاترام

تسلم المسلمون دمياط بعد ماأقامت بيد الفرنج سنة وأحد عشر شهرا ودخلها الملك الكامل واخوته وعساكره ، ورحل الفرنج إلى بلادهم ، وعاد السلطان إلى مقر ملكه ، وأطلقت الاسرى من ديار مصر . وعمت بشارة أخذ المسلمين دمياط من الفرنج سائر الآفاق ، فان التتركانوا قد استولوا على ممالك الشرق ، وأشرف الفرنج على أخذ ديار مصر ، ولكن الله سلم وكانت مدة نزول الفرنج على دمياط إلى أن أقلعوا عنها ثلاث سنين وأربعة أشهر وتسعة عشر يوما

وبالتأمل ترى أن سبب هزيمة الفرنج يرجع إلى سوء رسم الخطط الحربية ، فانهم أمعنوا فى أراضى الدلتا ذات الخلجان والجداول فعرضوا أنفسهم إلى خطر إغراق الأرض من حولهم وتعطيل حركاتهم واضطرارهم إلى طلب الأمان

حملة الامبراطور فردريك الثانى الالمانى

كان هذا الامبراطور قد وعدا لبابا بحملة صليبية ثم ماطل ، فحرمه البابا، فقام بعدذلك بحملته واتخذ لقب ملك بيت المقدس ، وكان يميل إلى المسلمين حتى اتهمه البابا بانه اعتنق الاسلام — وقدم إلى عكا بخمسمائة فارس فقط فاخذ الكامل يلاطفه خشية الهجوم على دمياط مرة أخرى وتهديد القاهرة ثم عقد بينه وبينه معاهدة على الهدنة إلى عشر سنين بشروط أهمها

(١) أن يعطى فردريك بيت المقدس والطرق المؤدية اليه من يافا وعكا على ألا يجدد سوره وأن تبقى الصخرة والاقصى وقرى القدس بأيدى المسلمين .

(٢) أن يقوم فردريك مقابل ذلك بمساعدة الكامل ضد أعدائه من المسلمين والنصارى ، و بالا ينجد الامارات الصليبية بالشام

و بمقتضى ذلك تسلم فردريك بيت المقدس بلا حرب ولا طعن ، ونجحت حملته بالرغم من خلافه مع البابا — ونودى فى القدس بخروج المسلمين منه وتسليمه إلى الفرنج ، فكان أمرا مهولا من شدة البكا والصراخ وخرج الناس باجمعهم إلى مخيم الكامل الذى كثر الانكار عليه وشنعت المقالة فيه لأنه نزل عن المدينة المقدسة التى أراق المسلمون دماءهم من أجلها

غير أن هذا الصلح لم يرض النصارى أيضا كما هو واضح من الشرط الثانى . ثم عاد فردريك إلى بلاده سنة ٦٢٦ وسير الكامل إلى الافاق بتسكين القلوب وعدم انزعاجها من جراء أخذ الفرنج بيت المقدس الذى بقى فى أيديهم إلى عهد الملك الصالح فاسترده

وكان الفرنج يرون أن ملك بيت المقدس لا يغنى عنهم شيئا . مع

احاطته ببلاد المسلمين . وتعهد فردريك بعدم المدد إلى اماراتهم

غير أن الكامل بهذه المعاهدة أمن غارة الصليبيين . وتقوى حتى استولى على كثير من البلاد الشامية . وأصبح لامنازع له من بيت بنى أيوب.

وبينما كان فى دمشق يتجهز لاخذ حلب نزل به زكام فدخل الحمام فأصابته حمى وتقيأ فمات لوقته فى رجب سنة ٦٣٦ عن ستين سنة . ملك فيها مصر أربعين سنة منها عشرون مستبدا بها بعد موت أبيه .

وكان يحب العلم وأهله ويؤثر مجالستهم، وشغف بسماع الحديث النبوى وحدث وبنى دار الحديث الكاملية بالقاهرة ، وكان يناظر العلماء ويمتحنهم بمسائل غريبة من فقه ونحو

وكان يباشر الأمور بنفسه من غير اعتماد على وزير ولاغيره ، وكان مهابا حازما حسن الرأى والتدبير عفيفا عن الدماء كثير السياسة حسن المداراة . الا إنه كان مغرما بجمع المال مجتهدا فى تحصيله ، ولذلك أحدث مغارم لم تعرف قبله وسماها الحقوق

وقد دفن أولا بقلعة دمشق ثم نقل إلى جوار الجامع الأموى فقبره هناك

العادل بن الكامل

تولى بعد أبيه لأنه خلع أخاه الصالح وعهد اليه ٦٢٧ ، وأسكنه قلعة الجبل ، واستخلفه حينما خرج إلى الشام سنه ٦٢٩ . فاشتغل باللهو عن التدبير ، وقرب الشباب ، وأبعد الشيوخ ، فاستوحش منه الأمراء وسار أخوه نجم الدين من بلاد الشرق فأخذ دمشق ، ثم سار إلى مصر فقبض

الأمراء على العادل وخلعوه ، بعد أن ملك سنتين وثلاثة أشهر

الصالح نجم الدين ايوب

قام بالسلطنة بعد أخيه ، واستولى على قلعة الجبل ، و جلس على سرير الملك بها ، وكان قد خطب له قبل قدومه ، فضبط الأمور ، وقام باعباء المملكة خير قيام ، وجمع الأموال التى اتلفها أخوه ، ونظر فى عمارة أرض مصر وحارب عربان الصعيد ، وقدم مماليكه واقامهم أمراء ورعى لهم ثباتهم معه حينما تفرق عنه الاكراد ، واكثر من شرائهم وجعلهم خاصته وبطانته والمحيطين بدهليزه إذا سافر ، وبنى قلعة الروضة وتحول من قلعة الجبل اليها وأسكنهم معه فيها ، وسماهم البحرية ، وكانوا دون الالف كلهم من الأتراك

ثم ملك مكة وبعث لغزو اليمن ، وعمر المدارس الصالحية بين القصرين من القاهرة . وقرربها دروسا أربعة : الشافعية والحنفية والمالكية والحنابلة

وكان عمه الصالح اسماعيل من الداعدائه فاستعان بالصليبيين ونزل لهم عن جملة أماكن وأغار على دمشق . فاستعان عليه السلطان بقبائل الخوارزميه وهزمه واستعاد بيت المقدس للمسلمين سنة ٦٤٢ فبقى فى أيديهم الى أن دخله الجنرال ألنبى الانجليزى فى الحرب العالمية الماضية التى نشأت سنة ١٩١٤

علاقته بالفرنج وحملة لويس التاسع

حدث للسلطان الصالح فى سنة ٦٤٦ مرض ألزمه الفراش . غير ان علو همته اقتضى سيره إلى الشام . فسار ونزل بقلعة دمشق . وهنالك وصل اليه رسول ملك صقلية فى هيئة تاجر وأخبره سرا بأن لويس التاسع ملك

فرنسا عازم على المسير إلى مصر وأخذها . فعاد السلطان من دمشق ونزل باشموم طناح ، وجمع فى دمياط من الأقوات والازواد والأسلحة وآلات القتال شيئا كثيرا ، خوفا أن يجرى على هذه المدينة ما جرى فى أيام أبيه — وكتب بتسيير الاسطول من صناعة مصر . وجهز الأمير ابن شيخ الشيوخ إلى دمياط . وفى صفر سنة ٦٤٧ نزلت مراكب الفرنج البحريين وقد انضم اليهم فرنج الساحل . وأرسوا بازاء المسلمين . وكتب ملكهم إلى السلطان كتاب تهديد فرد عليه بكتاب أشد منه

ثم حصل بينهم وبين المسلمين مناوشات فى بعض الأيام ، فلما جاء الليل هرب ابن شيخ الشيوخ بالعساكر جميعا ، وسار بهم فى بر دمياط إلى جهة أشموم . فخاف أهل المدينة حينئذ وخرجوا منها على وجوههم فى الليل . وتركوا المدينة خالية فكان عمل ابن شيخ الشيوخ هذا سبب مانزل بالمسلمين من البلاء . لقد كانت دمياط مشحونة بالمقاتلة والأزواد والأسلحة رجاء الايتكرر ماحصل أيام الكامل . فقد ظهر أن هذه المدينة ما أخذت فى المرة الاولى إلا من قلة الازواد ومع ذلك دافعت أكثر من سنة حتى فنى أهلها فما بال ابن شيخ الشيوخ يتعجل بهذه الهزيمة . ويعرض الدولة والملة إلى الفناء هذه لاشك خيانة عظمى تستدعى الحكم بأعدامه فى الحال

أما الفرنج فانهم لما أصبحوا قصدوا دمياط ، فاذا أبوابها مفتحة ولا أحد يدافع عنها ، فظنوا أنها خدعة ، وتمهلوا حتى ظهر لهم الأمر ، فدخلوا اليها من غير مانع ، واستولوا على جميع مابها من غير كلفة

وأما السلطان فانه لما اشتد حنقه على ابن شيخ الشيوخ أخذ يؤنبه ولكن الوقت لم يتسع لغير الصبر عليه والاغضاء عنه ، ثم غضب على الجند

الكنانيين الذين كانوا بدمياط وأنبهم ، فاعتذروا اليه بأنهم ماذا يفعلون وقد هرب عساكر السلطان بأجمعهم ، وهرب معهم أمراؤهم ، فأمر بشنقهم لأنهم خرجوا من دمياط بغير إذن ، فخاف جماعة من الأمراء وهموا بالقيام على السلطان ، ولكن ابن شيخ الشيوخ أشار عليهم بأن السلطان على خطة ، فان مات فقد كفيتم أمره والا فهو بين أيديكم ، فسكنوا

ثم أخذ السلطان فى تقوية سور المنصورة وانتقل اليها ، وقدمت عليه هنالك السفن الحربية ، والعربان والمطوعون من أهل النواحى ، وأخذوا يغيرون على الفرنج الذين أعدوا دمياط بالمقاتلة والآلات

ثم اشتد على السلطان المرض فمات فى شعبان ونقل الى قلعة الروضة وكتم موته ، وأقام بأمر العسكر ابن شيخ الشيوخ . فان شجرة الدر أعلمته هو والطواشى جمال الدين قائد المماليك البحرية فسيروا فى الحال الى

الملك المعظم توران شاه

وكان بحصن كيفا الفارس أقطاى لاحضاره وأخذوا فى تحليف العسكر للصالح ولابنه توران شاه بولاية العهد من بعده واستمروا فى العمل على أن السلطان حى وكانت العلامات تخرج من المنصورة الى القاهرة بخط خادم يقال له سهيل ، لا يشك من رآها أنه خط السلطان

ولما علم الفرنج بموت السلطان خرجوا من دمياط بفارسهم وراجلهم وسفنهم تحاذيهم فى البحر حتى نزلوا فارسكور ، فاستنفر الناس من القاهرة فنفروا منها ومن غيرها لقتال الفرنج الذين تقدموا حتى وصلوا تجاه المنصورة

ثم التحم القتال برا وبحرا طول شهر رمضان ، فلما كان يوم الفطر

اشتد المسلمون على الفرنج وأنكوهم نكاية عظيمة وأسروا منهم وقتلوا

ثم ركب الفرنج إلى بر المسلمين واقتتلوا فقتل منهم وأسر ، وأحرقت سفن عظيمة واستظهر المسلمون عليهم ، غير أن بعض من لا دين له ، دل الفرنج على مخايض فى بحر أشموم فعبروا ، ولم يشعر المسلمون بهم إلا وقد هجموا على العسكر ، فقام ابن شيخ الشيوخ ليتدارك الامر ، وكان فى طائفة من مماليكه ، فلقيه عدد من الفرنج وحملوا عليه وقتلوه ، وساقوا إلى المنصورة ، ففر المسلمون خوفا منهم ، وكادت الكسرة تكون ، وتمحو الفرنج كلمة الاسلام من أرض مصر ، ووصل لويس إلى باب قصر السلطان ولم يبق إلا أن يملكه ، فأذن الله تعالى أن طائفة من المماليك البحرية وغيرهم ممن استجدهم الملك الصالح ومن جملتهم بيبرس البندقدارى ، حملوا على الفرنج حملة صدقوا فيها اللقاء حتى ازحوهم عن مواقفهم فانهزموا وقتل منهم خلق كثير ، ولولا ضيق المجال ماأفلت من الفرنج أحد . وقد ظهرت المماليك البحرية من يومئذ واشتهرت .

أما توران شاه فانه وصل إلى دمشق ومنها سار إلى مصر فوصل إلى الصالحية فى منتصف ذى القعدة . ومن يومئذ أعلن بموت الصالح —

ثم سار من الصالحية إلى المنصورة واستقر بقصر السلطنة منها

وفى أثناء ذلك عمل المسلمون مراكب وحملوها على الجمال إلى بحر المحلة وشحنوها بالمقاتلة . فلما مرت سفن الفرنج خرجوا عليهم . وتحرك الاسطول الاسلامى من المنصورة فأحاط بالفرنج . وأخذ من سفنهم أكثر من خمسين وقتلوا منهم وأسروا وصار الباقون منهم كالمحصورين . وفى يوم الأضحى أخذ المسلمون أكثر السفن التى قدمت على الفرنج

بالميرة فوهنت قواهم وشرعوا فى طلب الهدنة على أن يسلموا دمياط ويأخذوا بدلا منها القدس وبعض مدن الساحل فلم يجابوا إلى ذلك ، وعند ذلك أحرق الفرنج أخشابهم وأتلفوا مراكبهم ، ورحلوا يريدون التحصن بدمياط (وكان ذلك فى المحرم سنة ٦٤٨) وأخذت مراكبهم الباقية فى الانحدار قبالتهم ، فركب المسلمون أقفيتهم بعد ما عدوا إلى برهم ، وقتلوا منهم فى فارسكور وحدها عشرة آلاف ، وأسروا مائة ألف من الفرسان والصناع والسوقة ، ونهبوا من المال والذخائر والبغال مالا يحصى وانحاز لويس التاسع وأكابر الفرنج إلى تل ، ووقفوا مستسلمين ، وسألوا الأمان فأمنهم الطواشى جمال الدين الصالحى ، ونزلوا على أمانه ، وأحيط بهم وسيقوا إلى المنصورة ، فقيد لويس واعتقل فى الدار التى كان ينزل بها فخر الدين ابراهيم بن لقمان كاتب الانشاء . واعتقل معه أخوه ، ورتب له راتب يحمل اليه فى كل يوم ، وأمر الملك المعظم بقتل الاسرى فكان يخرج منهم كل ليلة ثلثمائة رجل ويقتلهم ويلقيهم فى البحر حتى فنوا

وتعتبر واقعة المنصورة هذه من الوقائع الفاصلة بين المسلمين وبين الصليبيين ، فان لويس بعد أن أطلق من سجنه (على ماسيجىء) ورجع إلى فرنسا ، شرع يستعد إلى مصر ، وقصد تونس ولكن عاجلته منيته وهو على حصارها

قتل السلطان

وبعد فان الملك المعظم بعد أن تم له النصر نزل برج فارسكور وأخذ يهدد زوجة ابيه شجرة الدر ويطالبها بمال أبيه ، فخافته وكاتبت مماليك الصالح تحرضهم عليه ، وكان لما وصل اليه الفارس أقطاى

يستدعيه ، وعده أن يعطيه إمرة فلم يف له بها ، وأعرض مع ذلك عن مماليك أبيه واطرح امراءه ، وأبعد غلمانه ، واختص بمن وصل معه من المشرق وجعلهم فى الوظائف السلطانية . وكان إذا سكر جمع الشمع وضرب رءوسها بالسيف حتى تنقطع ، ويقول : هكذا فعل بالبحرية . فانه كان فيه هوج وخفة ، وعكف علي ملاذه فنفرت منه النفوس ، وبقى كذلك إلى أواخر المحرم وقد جلس على السماط فتقدم اليه أحد المماليك البحرية . وضربه بسيف قطع أصابع يديه ففر إلى البرج . فاقتحموا اليه وسيوفهم مصلتة فصعد إلى أعلاه . فرموه بالنشاب وأطلقوا النار فى البرج . فالقى نفسه ومر إلى البحر وهو يقول : ماأريد ملككم . دعونى أرجع إلى الحصن يامسلمين مافيكم من يصطنعنى ويجيرنى . فلم يجبه أحد . والنشاب يأخذه من كل ناحيــة وأدركوه فقطع بالسيوف . ومات حريقا غريقا قتيلا . وترك على الشط ثلاثة أيام ثم دفن وكان ذلك فى المحرم سنة ٦٤٨ وبموته انقطع ملك بنى أيوب من مصر بعد أن قامت دولتهم إحدى وثمانين سنة وسبعة عشر يوما . وملك منهم ثمانية ملوك . ملك آخرهم سبعين يوما

ولما قتل أتفق أهل الدولة على اقامة شجرة الدر والدة خليل فى مملكة مصر . وأن يكون مقدم العسكر عز الدين أيبك التركمانى الصالحى . وحلف الكل على ذلك وسيروا اليها بقلعة الجبل من أعلمها بما كان فرضيت . وكتبت على التواقيع علامتها . وخطب لها على المنابر بمصر والقاهرة ، ثم تزوجت عز الدين أيبك ، وتنازلت له عن السلطنة بعد ثمانين يوما

أمر لويس

وجرى الحديث مع لويس فى تسليم دمياط ، فاجاب إلى تسليمها على

أن يخلى عنه بعد محاورات ، وأن يفتدى نفسه وبقية أهله وجنده بمال مقداره (٨٠٠) ألف دينار ، أو عشرة ملايين من الفرنكات عوضا عما كان بدمياط من الحواصل - وسير إلى الفرنج بدمياط يأمرهم بتسليمها إلى المسلمين ، فسلموها بعد جهد جهيد من كثرة المراجعات ، فى صفر سنة ٦٤٣ ورفع العلم السلطانى على سورها ، وأعلن فيها بكلمة الاسلام وشهادة الحمد . بعد ما أقامت بيد الفرنج أحد عشر شهرا وسبعة أيام ، وأفرج عن لويس وعن أخيه وزوجته ومن بقى من أصحابه فساروا إلى البر الغربى ، وركبوا البحر من الغد وأقلعوا إلى عكا ، ولما تسلم الأمراء المسلمون دمياط وردت البشرى الى القاهرة فأقيمت الزينات بها وبمدينة مصر

(ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، ينصر من يشاء)

آثار الايوبية

قد رأيت أن هذه الدولة وقفت حياتها -- منذ قيامها إلى سقوطها - على حماية الاسلام والمسلمين من غارات أوربا المسيحية ، ولولا وقوفها فى وجه الصليبيين وانتصاراتها المتوالية عليهم وبخاصة فى (حطين) أولا وفى (المنصورة) أخيرا ، لقضوا على الاسلام وأهله فى الشام والجزيرة والعراق وفى مصر وافريقية والمغرب . ولصار البحر المتوسط بحيرة مسيحية

ولانها شبت فى ميادين الحرب واكتهلت ، كان من أخص مبانيها العظيمة : القلاع والحصون والاسوار .

فاما قلعة الجبل فقد أمر بانشائها صلاح الدين لانه كان يخاف على نفسه من شيعة الفواطم بمصر فأحب أن يجعل لنفسه معقلا ، فاختار مكان

وأقام على عمارة القلعة به بهاء الدين قرقوش ، وهدم ماهناك من المساجد والقبور، وهدم الاهرام الصغيرة التى كانت بالجيزة تجاه مصر ، ونقل حجارتها فبنى بها القلعة وسور القاهرة ، فمات السلطان قبل تمامهما وأهمل العمل إلى أن كانت أيام الكامل بن العادل فاتم بناء القلعة سنة ٦٠٤ وسكنها واستمرت القلعة من بعده دار مملكة مصر إلى عهد قريب

وأما قلعة الروضة أو قلعة المقياس أو قلعة الجزيرة ـ فقد كانت جزيرة الروضة متنزها ملوكيا ومسكنا للناس إلى أن تسلطن الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد ، فأنشأ بها قلعة واتخذها سرير ملك وأنفق فى عمارتها أموالا جمة ، وبنى فيها الدور والقصور ، وعمل لها ستين برجا وشحنها بالاسلحة خشية محاصرة الفرنج ، فانهم كانوا حينئذ على عزم قصد مصر ، وبالغ فى اتقانها حتى قيل انه استقام كل حجر فيها بدينار ، وكل طوبة بدرهم وقد هدم فى سبيل اقامتها ٣٣ مسجدا غير القصور والدور ، من مبانى الجزيرة

وقد عنى الايوبيون بالمسائل الاقتصادية ، لحاجتهم إلى النفقة الواسعة على الجيوش باستمرار ، فاصلحوا طرق الرى والزراعة وعقدوا مع البنادقة معاهدة تجارية فكانت ثروة مصر من جراء ذلك عظيمة

وعنوا بالمدارس ونشر العلم عناية كبرى ، وكان أساس ذلك : العمل على ابطال مذهب الشيعة واقامة مذاهب أهل السنة والجماعة ، فاقفل الازهر واحرقت المكتبات القيمة ، وأنشأ صلاح الدين سنة ٥٦٦ المدرسة الناصرية بجوار المسجد العتيق للشافعيه ، وهنالك أيضا أنشأ المدرسة القمحية للمالكية ، وفى سنة ٥٣٢ بنى المدرسة السيوفية للحنفية ، وفيها بنى المدرسة الصلاحية وهى أعظم مدارس الدنيا على الاطلاق وينبغى أن يقال لها تاج

المدارس وكانت بالقرافة بجوار الامام الشافعى رضى الله عنه .

وكانت المدرسة الناصرية تعرف أيضاً بمدرسة ابن زين التجار ، وهو أبو العباس أحمد بن المظفر الدمشقى أحد أعيان الشافعية ، درس فى هذه المدرسة مدة طويلة ، ثم عرفت بالمدرسة الشريفية ، وكان موضعها سجنا يعرف بالمعونة فهدمه صلاح الدين فى أول المحرم سنة ٥٦٦ وأنشأ هذه المدرسة برسم الفقهاء الشافعية ، وكان حينئذ يتولى وزارة مصر للخليفة العاضد ، فكان هذا من أعظم مانزل بالفاطمية ، ولما كملت وقف عليها الصاغة وكانت بجوارها

وقد درس بها بعد ابن زين التجار جماعة من العلماء منهم الشريف القاضى شمس الدين قاضى العسكر فعرفت به ، وهى أول مدرسة عملت بديار مصر

أما السيوفية فكانت من جملة دار الوزير المأمون البطائحى . فوقفها صلاح الدين على الحنفية ، وقرر فى تدريسها مجد الدين الجبتى ، ورتب له فى كل شهر أحد عشر دينارا ، وباقى ريع الوقف يصرفه على مايراه لطلبته الحنفية المقررين عنده على قدر طبقاتهم — وعرفت بالسيوفية لأن سوق السيوفيين كان حينئذ على بابها ، وهى أول مدرسة وقفت على الحنفية بديار مصر

وأما المدرسة القمحية فكانت بجوار العتيق بمصر ، وكان موضعها يعرف بدار الغزل ، فهدمها صلاح الدين وأنشأ موضعها مدرسة للفقهاء المالكية ، ووقف عليها ورتب فيها أربعة من المدرسين ، وهى أجل مدرسة المالكية ، وكان يتحصل لهم من ضيعتهم التى بالفيوم قمح يفرق فيهم

فلذلك صارت تعرف بالقمحية

قال ابن خلكان (لما ملك السلطان صلاح الدين بن أيوب الديار المصرية لم يكن بها شيء من المدارس ، فان الدولة العبيدية كان مذهبها مذهب الرافضة والشيعة ، فلم يكونوا يقولون بهذه الأشياء) يعني المدارس ، ثم أخذ يسرد مابناه السلطان من المدارس .

وقد اقتدى بالسلطان في بناء المدارس بمصر والقاهرة وغيرهما وبالبلاد الشامية والجزيرة إخوته وأولاده وأمراؤه ، ثم حذا حذوهم من ملك مصر بعدهم من ملوك الترك وأمرائهم واتباعهم

ومن ذلك : مدرسة منازل العز ، التي كانت من دور الخلفاء الفاطميين بنتها أم الخليفة العزيزة بالله بن المعز ، وعرفت بمنازل العز ، وكانت تشرف على النيل ، وصارت معدة لنزهة الخلفاء ، فلما زالت الفاطمية أنزل السلطان صلاح الدين ابن أخيه تقي الدين في منازل العز فسكنها مدة ثم اشتراها وفي آخر الأمر وقفها على فقهاء الشافعية ووقف عليها أملاكا واسعة ، ودرس بها شهاب الدين الطوسي وقاضي القضاة السكري وعدة من الأعيان

والمدرسة الفاضلية وهي التي بناها القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني بجوار داره سنة ٥٨٠ ووقفها على طائفتي الفقهاء الشافعية والمالكية وجعل فيها قاعة للاقراء ، أقرأ فيها الشاطبي ناظم الشاطبية ، وتلميذه القرطبي ثم ابن الدهان وغيرهم ، ورتب لتدريس فقه المذهبين الفقيه ابن سلامة الاسكندراني — ووقف بهذه المدرسة جملة عظيمة من الكتب في سائر العلوم يقال إنها كانت مائة ألف مجلد ، وكان بجوار المدرسة كتاب برسم الأيتام ، وكانت من أعظم مدارس القاهرة وأجلها

والمدرسة الصالحية ، بخط بين القصرين من القاهرة ، كان موضعها من جملة القصر الكبير الشرقي ، فبنى فيه الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل بن العادل هذه المدرسة ورتب فيها دروسا اربعة للفقهاء المنتمين إلى المذاهب الأربعة فى سنة ٦٤١ ، وهو أول من عمل بديار مصر دروسا أربعة فى مكان واحد

والمدرسة الكاملية وكانت بذلك الخط أيضاً وتعرف بدار الحديث أنشأها السلطان الملك الكامل بن العادل فى سنة ٦٢٢ وهى ثانى دار عملت للحديث ، فان أول من بنى دارا على وجه الأرض للحديث العادل نور الدين محمود بن زنكى بدمشق ، ثم بنى الكامل هـــذه الدار بمصر ووقفها على المشتغلين بالحديث النبوى . ثم من بعدهم على الفقهاء الشافعية — وأول من ولى تدريسها الحافظ بن دحية ، ثم اخوه عثمان ثم غيره من الحفاظ والأعيان ، وقد ظلت بأيديهم إلى سنة ٨٠٦

قصدنا بسرد ماتقدم أن نبين أمرين أولهما أن اشتغال الأيوبيين بحروب الصليبيين لم ينسهم مسألة العلم والتعليم بمصر لما لهما من الآثار فى بنيان كيان الدولة وسيرها فى سبيل السعادة ، والثانى أنهم عنوا بمحو الفاطمية وآثارها فهدموا دورهم وقصورهم وأقاموا مكانها هذه المدارس ، محوا للبدعة وإحياء للسنة والأعمال بالنيات ، ولكل امرىء مانوى

ومما يلحق بهذه المدارس : الخانقاه الصالحية بدار سعيد السعداء وهو أحد أساتذة القصر العتيق للخليفة المستنصر ، وقد سكن داره هذه من بعده رزيك بن صالح ، ثم شاور بن مجير السعدى فى وزارته ، ثم ابنه الكامل ، فلما استبد صلاح الدين بملك مصر بعد موت العاضد ، وغير

رسوم الفاطمية ، ووضع من قصر الخلافة وأسكن فيه أمراء دولته الأكراد عمل هذه الدار برسم الفقراء الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة ووقفها عليهم سنة ٥٦٩ وولى عليهم شيخا ، ووقف عليهم بستان الحبانية بجوار بركة الفيل خارج القاهرة ، وأوقافا أخرى ، ورتب لهم فى كل يوم طعاما ولحما وخبزا وبنى لهم حماما بجوارهم ، فكانت أول خانقاه عملت بديار مصر وعرفت بدويرة الصوفية وكان سكانها من الصوفية يعرفون بالعلم والصلاح وترجى بركتهم ، وقدولى مشيختها الأكابر والأعيان من الوزراء والأمراء والقادة مع ما كان لهم من الامارة والوزارة وتدبير الدولة وقيادة الجيوش

تمتان

الأولى فى امتداد سلطنة الأيوبيين :

كانت الدولة الأيوبية تشمل أولا بلاد مصر ، وثانيا مملكة نور الدين بالشام والجزيرة وثالثا مافتحه صلاح الدين وخلفاؤه من بلاد سواحل الشام التى كانت بيد آل الصليب ، ثم بلاد اليمن وما اليها من جزيرة العرب

وسنفرد اليمن بهذه الكلمة : قدأشرنا فيما سلف إلى أن صلاح الدين أرسل أخاه توران شاه سنة ٥٦٩ ففتح اليمن وأسر عبد النبى آخر ملوك بنى مهدى ، وأخذ عدن من صاحبها فاستقرت بلاد اليمن كلها فى ملك صلاح الدين ثم عاد توران شاه إلى مصر وأناب عنه فى اليمن ، فلما مات بالأسكندرية اختلف نوابه ، فأرسل اليهم صلاح الدين أخاه سيف الاسلام فصفت له مملكة اليمن حتى مات بها سنة ٥٩٣ ، فأقيم بعده ابنه

الملك المعز إسماعيل ، فعصى وادعى أنه أموى وخطب لنفسه بالخلافة ، فثار عليه مماليكه وقتلوه سنة ٥٩٩ ، وأقاموا بعده أخاه الناصر فمات بعد أربع سنين ، فقام من بعده زوج أمه وكان أحد الأمراء فقتله جماعة من العرب وبقيت اليمن بغير سلطان

فتغلبت أم الناصر على زبيد فقدم سليمان بن سعد الدين شاهنشاه ابن أيوب إلى اليمن ، فملكته أم الناصر البلاد وتزوجت به ، فاشتد ظلمه وعتوه إلى أن قدم الملك المسعود بن الملك الكامل محمد بن العادل فى سنة ٦١٢ ، فقبض عليه وحمله إلى مصر وأقام المسعود باليمن ، وحج وملك مكة سنة ٦٢٠ وعاد إلى اليمن ، ثم خرج منها واستخلف على بن رسول ، ثم مات بمكة سنة ٦٢٦ فقام ابن رسول على ملك اليمن حتى مات سنة ٦٤٨ واستقر بعده ابنه وصفا له اليمن وطالت أيامه

فهذا حال اليمن فى عهد الدولة الأيوبية ومنه تعلم أن الأيوبيين ملكوا الحجاز أيضاً

الثانية فيما أصاب القاهرة المعزية بعد استيلاء الأيوبيين : بنى جوهر القائد مدينة القاهرة حصنا ومعقلا بين يدى الفسطاط يتحصن بها ويلتجىء اليها فصارت دار خلافة للفاطميين ، ينزلها الخليفة بحرمه وجنده وخواصه إلى أن كانت سنوات الشدة العظمى فى خلافة المستنصر سنة ٤٥٧ ، فقدم بدر الجمالى وسكنها وهى خراب خاوية على عروشها ، وأباح لكل من وصلت قدرته إلى عمارة أن يعمر ماشاء فى القاهرة مما خلا من فسطاط مصر ومات أهله ، فأخذ الناس ماكان هنالك من أنقاض الدور وغيرها وعمروا به المنازل فى القاهرة وسكنوها ، فمن حينئذ سكنها أصحاب السلطان

إلى أن انقرضت الفاطمية باستيلاء صلاح الدين ، فنقلها عما كانت عليه من الصيانة وجعلها مبتذلة اسكن العامة والجمهور ، وحط من قصور الخلافة وأسكن بعضها ، وتهدم البعض ، وأزيلت معالمه ، وتغيرت معاهده ، فصارت خططا وحارات ومسالك وشوارع وأزقة ، ونزل السلطان منها فى دار الوزارة الكبرى ، حتى بنيت قلعة الجبل (وهى بالضرورة غير قلعة محمد على باشا) فكان يتردد اليها ويقيم بها وكذلك ابنه العزيز عثمان وأخوه العادل ، ولما تمت تحول الناصر محمد بن العادل من دار الوزارة إلى القلعة وسكنها

ولما اعتنى الصالح نجم الدين أيوب ببناء قلعة الجزيرة التى أمام الفسطاط وصيرها سرير السلطنة عظمت الفسطاط فانتقل اليها كثير من الأمراء وضخمت أسواقها فى حين أن القاهرة انحط شأنها — ولما خرب المشرق والعراق بهجوم التتر منذ كان جنكيزخان إلى أن قتل الخليفة المستعصم ببغداد سنة ٦٥٦ كثر قدوم المشارقة إلى مصر ، وعمرت حافتا الخليج الكبير ومادار على بركة الفيل وعظمت عمارة الحسينية ، وظل الحال على ذلك إلى أيام الناصر محمد بن قلاوون بعد سنة ٧١١ ، حيث اتسعت القاهرة من جميع نواحيها ، واتصلت عمائر مصر والقاهرة ، فصارا بلدا واحدا يشتمل على البساتين والمناظر والقصور والدور والرباع والقياسر والأسواق والفنادق والحمامات والشوارع والازقة والدروب والخطط والحارات والمساجد والجوامع والربط والمشاهد والمدارس والحوانيت وغير ذلك ، ومازالت هذه العمائر تكثر وعدد السكان يزيد حتى صارت القاهرة بما تم فيها من أكبر مدن الدنيا وأجملها وأكثرها بساتين ومتنزهات

كلمة ختامية فى التعريف بنور الدين

هو الملك العادل نور الدين ابو القاسم محمود بن عماد الدين أتابك وهو أبو سعيد زنكى بن قسيم الدولة آق سنقر التركى ، ويلقب زنكى بلقب والده أعنى قسيم الدولة ، ويقال لنور الدين « ابن القسيم »

ولد نور الدين سنة ٥١١ وتوفى سنة ٥٦٩ - وولد صلاح الدين سنة ٥٣٢ وتوفى سنة ٥٨٩ ؛ فكان نور الدين أطول عمرا من صلاح الدين بسنة وبعض أخرى ، وكلاهما لم يستكمل ستين سنة : وكان بين مولديهما ٢١ سنة وبين وفاتيهما ٢٠ سنـــة ، وملك نور الدين دمشق سنة ٥٤٩ وملكها صلاح الدين سنة ٥٧٠ ، فبقيت فى ملك نور الدين عشرين سنة وبقيت فى المملكة الصلاحية ١٩ سنة

ولى آق سنقر حلب وغيرها من بلاد الشام ، ونشأ زنكى بالعراق ثم ولى ديار الموصل والبلاد الشامية وظهرت كفايته وفتح الرها وكثيرا من حصون الشام واستنقذها من أيدى الكفار ، فلما انقضى أجله قام ابنه نور الدين مقامه وذلك سنة ٥٤١ ، ثم قصد حلب وملكها وأظهر بها السنة وغير البدعة التى كانت لهم فى الأذان ، وقمع الرافضة وبنى المدارس ووقف الأوقاف وأظهر العدل ، ثم حاصر دمشق مرتين وفتحها فى الثالثة ، فضبط أمورها وحصن سورها وأصلح طرقها ووسع أسواقها وبنى بها المدارس والمساجد ، ومنع ما كان يؤخذ من أهلها من المغارم ، وعاقب على شرب الخمر وكان فى الحرب ثابت القدم حسن الرأى ، يقدم أصحابه ويتعرض للشهادة ويسأل الله أن يحشره من بطون السباع وحواصل الطير — وقد وقف رحمه

الله أوقافا على المرضى ومعلمى الخط والقرآن الكريم وساكنى الحرمين . وأقطع أمراء العرب حتى لا يتعرضوا للحاج ، وأمر بأكمال سور المدينة المنورة واستخراج العين التى بأحد ، إلى غير ذلك من الحسنات — ثم فتح الديار المصرية بوساطة أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين وكان العدو من نصارى الصليبيين قد أشرف على أخذها ، وبخاصة حينما فسد أمرها باختلال أمر الوزارة فيها ، والخلاف بين شاور وضرغام ، وضعف الخليفة عن التدبير والتصرف

وكان نور الدين رحمه الله يكثر من أعمال الحيل والمكر والخداع مع الفرنج وأكثر ماملكه من بلادهم كان بهذه الأمور — وأما مافعله فى بلاد الاسلام من المصالح التى عادت بحفظها وحفظ المسلمين فكثير عظيم ومنه أنه بنى أسوار مدن الشام جميعها ، وقلاعها كما بنى المساجد فيها وفى الموصل

وكان مسجدها ومسجد حماة الذى بناه على نهر العاصى من أحسن الجوامع وأنزهها — كما بنى البيمار ستانات فى البلاد ، وكان من أعظمها بيمارستان دمشق الذى وقفه على فقراء المسلمين والمنقطعين إلا فيما يعز وجوده من الأدوية فللمسلمين كافة غنيهم وفقيرهم — وقد بنى بدمشق دار الحديث ووقف عليها وعلى من بها من المشتغلين بعلم الحديث وقوفا كثيرة وهو أول من بنى دارا للحديث فيما علمنا — وقد أسقط من المكوس والمغارم سنويا ١٥٦ ألف دينار ، وقلده صلاح الدين فى هذا الخير بمصر .

اما أصل البيت الاتابكى ، فان آق سنقر كان من أصحاب ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقى الذى لما أفضت اليه السلطنة بعد أبيه ، جعل آق سنقر

من أعيان أمرائه ، لأنه ممن ربى معه فى صغره ، واستمر فى صحبته إلى حين كبره ، ومازال أمره يعظم إلى أن اتقاه نظام الملك الوزير فأشار على السلطان أن يوليه حلب وأعمالها واراد بذلك أن يبعده عن خدمة السلطان من جهة ويتخذ له عند آق سنقر يدا بذلك من جهة أخرى — وفى سنة ٤٧٧ سير السلطان جيشا إلى الموصل ، وصاحبها يومئذ مسلم العقيلى وكان مقدم الجيش آق سنقر ، فحاصرها وملكها ، ولما ملك السلطان قلعة حلب أشار عليه نظام الملك بتسليم قلعة حلب وأعمالها وحماه ومنبج واللاذقية وماءمها إلى قسيم الدولة آق سنقر ، فأقطعه الجميع وبقيت كلها بيده إلى أن قتل سنة ٤٨٧

وأما عماد الدين زنكى والد نور الدين فانه لما قتل ابوه لم يك خلف من الأولاد غيره ، وكان حينئذ صبيا عمره نحو عشر سنين ، فاجتمع مماليك والده وأصحابه عليه وأوصاهم السلطان ملكشاه به وأقطعهم ، وفى سنة ٥١٦ أقطع السلطان السلجوقى واسط والبصرة لعماد الدين ؛ فأظهر كفاية نادرة فولاه العراق وبغداد مدة ، ثم ولاه الموصل فأصلح أمورها وقرر قواعدها وكانت الفرنج قد اتسعت بلادهم وعظمت هيبتهم ، وساموا المسلمين سوء العذاب ، وامتدت مملكتهم من ماردين إلى عريش مصر لا يتخللها مما بيد المسلمين غير حلب وحماة وحمص ودمشق

فلما تولى عماد الدين غزاهم فى عقر دارهم وملك حصن الأثارب عنوة وكان أضر شىء على اهل حلب ، ثم ملك حماة ، وحاصر دمشق وكانت بيد أحد أمراء السلاجقة فمات صاحبها وهو محاصر ثم بعد ذلك قصد الرها وكانت لجوسلين عاتى الفرنج وشيطانهم ، والمقدم على رجالهم وفرسانهم ففتحها ، وبفتحها تسنى للمسلمين بعد ذلك فتح بلاد الشام كلها فى عهد نور الدين

حاصرها عماد الدين ٢٨ يوما حتى سقطت سنة ٥٣٩ هـ وأعادها إلى حكم الاسلام وكانت الرها من أشرف المدن عند النصارى واعظمها محلا وهى احدى الكراسى عندهم ، فأشرفها بيت المقدس ثم انطاكية ثم رومية ثم القسطنطينية فالرها — وكانت مقر إحدى الولايات الأربع اللاتينية الصليبية بالشام ، فلما ملكها نور الدين عنوة استباحها ، ونكس صلبانها ، وأباد قسوسها ورهبانها ، وقتل شجعانها وفرسانها وملأ الناس أيديهم من النهب والسلب ، ولما دخل البلد أنف من خرابها ، فأمر باعادة ما أخذ منها برمته فعادت عامرة

وكان فتحه هذا فتحا عظيما ، طار فى الآفاق ذكره ، وطاب نشره

ولما فرغ من الرها شرع فى فتح غيرها ؛ ثم سار إلى قلعة جعبر ، وبينما هو نائم إذ دخل عليه نفر من مماليكه فقتلوه ولم يجهزوا عليه ، ولكنه مات فأى نجم للاسلام أفل ، وأى ناصر للايمان رحل ، وأى بحر ندى نضب ، وأى بدر مكارم غرب

وقد خلف من الأولاد سيف الدين غازى الأول ، وهو الذى ولى بعده ، وقد انقرض عقبه ، ونور الدين محمود وقد انقرض عقبه من الذكور بموت الصالح إسماعيل ، وقطب الدين مودود وهو أبو الملوك بالموصل وهو الذى بقى الملك فى عقبه

وتولى بعد موت عماد الدين زنكى ولداه غازى ومحمود ، فالأول ملك الموصل ، والثانى ملك حلب باشارة أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين ثم اجتمع الاخوان وقررا القواعد فيما بينهما وقال غازى لأخيه إنما غرضى أن يعلم الملوك والفرنج اتفاقنا ، فمن يريد السوء بنا يكف عنه ومنذ ذلك أخذ نور الدين يحارب الفرنج بالشام ويحارب غيرهم من أمراء السلاجقة بالشام حتى صارت مملكته تشتمل على بلاد الشام كلها ما عدا السواحل ، وصار من أمرائه أسد الدين وصلاح الدين وقد استخدمهما فى فتح مصر فتم له ذلك

وقد فصلنا فيما مضى ماكان من تردد اسد الدين شيركوه وابن أخيه يوسف صلاح الدين على مصر بأمر الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى حتى فتحاها فصارت جزءا متمما للمملكة النورية هى وملحقاتها كبلاد اليمن التى فتحها توران شاه فيما بعد

(١)وكان أول مسير هذين البطلين لفتح مصر سنة ٥٥٩ ، وذلك حينما فر من مصر أمير الجيوش شاور بن مجير السعدى (وزير الخليفة العاضد) إلى دمشق فى ربيع سنة ٥٥٨ مستنجدا بنور الدين على من أخذ منه منصبه قهرا وهو الوزارة انتزعها منه نائب الباب الامير ضرغام بن سواد الملقب بالمنصور فامر نور الدين قائده اسد الدين بالتجهز الى مصر قضاء لحق الوافد المستصرخ وحبا للبلاد ، وتطلعا على أحوالها ، واعادة شاور إلى منصبه (حجة وحاجة) والانتقام ممن نازعه فى الوزارة ، فساروا جميعا ومعهم نور الدين بجنده إلى أطراف بلاد الاسلام مما يلى الافرنج ليشغلهم عن التعرض لأسد الدين فاشتغل الفرنج بأمورهم وبلادهم لئلا يغير عليهم نور الدين ، وبذلك وصل أسد الدين ، إلى مصر سالما هو ومن معه فهرب ضرغام وقتل وتمكن شاور من منصبه ، بعد أن غاب عنه تسعة أشهر ، وكان هنالك شروط لم يف بها شاور لأسد الدين فعلم نور الدين فاستقدمه الى الشام فتريث قليلا ، وماهو الا أن شاور استعان بالفرنج ، وخوفهم من نور الدين إن هو ملك مصر فاجابوه ؛ وما كادوا يتحركون حتى علم نور الدين فقاد جيشه الى البلاد المجاورة لهم وأحدث مناورة بخوف الفرنج حتى لا يذهبوا الى مصر ولكنهم ذهبوا لاعتقادهم ان نور الدين ان ملك مصر كان خطره عليهم اشد مما لو اقاموا بالشام تجاهه — فلما رأى أسد الدين أن الفرنج قربوا من مصر تحرك

إلى بلبيس فحاصروه بها ثلاثة أشهر ، وبيناهم فى ذلك اذ قدم عليهم الخبر بأن نور الدين هزم الفرنج بالشام واستولى على حارم وأنه كاد يستولى على بانياس ، فراسلوا فى الحال أسد الدين فى الصلح والعود الى الشام جميعا ومفارقة مصر ، وكان أسد الدين لم يعلم من شأن نور الدين هذا ما علموا ، فلذلك سارع إلى اجابتهم ، وجلا الجميع عن مصر . وانما اعدنا هذه القصة هنا لنشير الى أن نور الدين كان كلما أحس حركة من الفرنج نحو مصر ، أعمل الحيلة فى وقفها وشغلهم عنها ، لأنه كان يطمع فى مصر أيضا لمركزها الجغرافى والاقتصادى المهم ، ولأنها إذا صارت فى يده أمكنه أن يهاجم الفرنج من جانبين ، ويحصرهم بين نارين ، فيقضى عليهم قضاء مبرما

(٢) والمرة الثانية من هجوم أسد الدين على مصر كانت سنة ٥٦٢ وكان سببها أن أسد الدين كان لا يزال يحدث نفسه بقصد مصر ويتحدث بذلك الى من يثق به ، وكان مما يهيجه على هذا الامر حقده على شاور أى أنه كان مستعدا إلى إجابة أى إشارة من نور الدين فى هذا السبيل ، ولامور يطول بيانها استدعاه نور الدين وأمره بالسير الى مصر وسير معه جماعة من الأمراء وصلاح الدين فجعل بلاد الفرنج عن يمينه وسار برا وقصد اطفيح ومنها عبر النيل الى البر الغربى ووصل إلى الجيزة قبالة الفسطاط . وعند ذلك استعان شاور بالفرنج فأجابوه وسارعوا على الصعب والذلول ، فتارة يحثهم طمعهم فى ملك مصر وتارة يحدوهم خوفهم من أن يملكها نور الدين ، فالرجاء يقودهم والخوف يسوقهم أما أسد الدين فقد سار نحو الصعيد فساروا وراءه وحصلت موقعة البابين التى انهزم فيها المصريون وحلفاؤهم الفرنج شر هزيمة ، وكان انهزامهم من أعجب ما يؤرخ ، اذ أنهم كانو أمام الفى

فارس فقط من جنود أسـد الدين وقد عادت فلولهم إلى القاهرة وحشدوا واستكثروا ، وكان اسدالدين خلال ذلك وصل إلى الاسكندرية فتقدم أهلها اليه بالطاعة ، فاستخلف عليها صلاح الدين وعاد الى الصعيد لحركة معادية قامت هنا لك فانتهزها المصريون والفرنج الذين بالقاهرة فرصة مناسـبة وقصدوا الاسكندرية لكن أهلها ثبتوا مع صـلاح الدين ، ودافعوا عن مدينتهم دفاعا مجيدا ، فلما رأى الفرنج ذلك سارعوا الى الصلح ، وكتبوا به الى أسد الدين علي أن يعطوه إذا أجاب اليه خمسين ألف دينار سوى ماأخذه من البلاد ، فشرط من ناحية ألا يقيم الفرنج بمصر ولا يتسلموا قريه واحدة من قراها ، وأن تعود الاسكندريه إلى المصريين ، ويحصل الجلاء من الجميع كما حصل فى المرة الأولى فكان

أما شاور والفرنج فقد استقر الامر بينهم على شروط ليست فى مصلحة مصر ، ولكنه كان يعتبر ذلك ضربا من ضروب المخاتلة السياسية فكان يتساهل وبخاصة فى الناحية المالية ، ولكن شرطا واحدا من الشروط التى أجابهم اليها كان يهدد استقلال مصر فى كل وقت ، ذلك هو أن يكون لهم جند بالقاهرة ، وأن تكون أبواب هذه المدينة بيد فرسانهم ، وهذا هو الاحتلال بعينه ،

وبعد قليل أرسل الكامل شجاع بن شاور الى نور الدين يسأله أن يأمر باصلاح الحال ، وجمع الكلمة فى مصر على طاعته وجمع كلمة الاسلام . على مال يحمله اليه كل سنة ، فتريث نور الدين حتى قصد الفرنج مصر لتملكها سنة ٥٦٤ لانهم خبروا الديار المصرية وأطلعوا على عوراتها ، فطمعوا فيها ، ونقضوا ما كان قد استقر بينهم وبين أسد الدين ، وجمعوا وحشدوا ، قالوا

مصر حتى أجاب مسارعا ، وفى خلال مسيره وردت البشائر بأن الفرنج رحلوا عن مصر حينما سمعوا بوصول عسكر نورالدين

ولما وصل أسد الدين إلى مصر اجتمع بالعاضد فخلع عليه وأكرمه ولكن شاور أخذ يخادع ويخاتل ويمكر ، فانتهى الأمر بقتله حينما ظهرت للأكراد نواياه ، وأنفذ رأسه إلى قصر الخليفة ، فعند ذلك أنفذ العاضد إلى أسدالدين خلعة الوزارة فلبسها وصارت البلاد المصرية جزءاً متمماً لمملكة نور الدين — وقد مدحه العماد حينما تم له هذا الأمر بقصيدة طويلة منها

بملك مصر أهنى مالك الأمم   فاسعد وابشر بنصرالله من أمم

إلى أن يقول

فملك مصر وملك الشام قد نظما   فى عقد عز من الاسلام منتظم
محمود الملك الغازى يسوسهما   بالفضل والعدل والافضال والنعم

وإذ قد فرغنا من أمر مصر على النحو المكرر مع ماسبق والمكرر أحلى ، فلنشر إلى كيفية أسر جوسلين صاحب الرها بعدفتحها ، وقدقدمنا أن زنكى والد نور الدين فتحها فتحول جوسلين إلى غربى الفرات ، وفى أيام نور الدين كاتب جوسلين أهل الرها وجلهم من الأرمن فأجابوه ، فسار اليهم ودخل المدينة ، وامتنعت عليه قلعتها بمن فيها من المسلمين ، فحاصرهم وجد فى قتلهم ، فسارع نور الدين إلى المدينة ونهبها وسبى أهلها ولم يبق فيها إلا القليل جزاء وفاقا ، ثم سار إلى بلاد جوسلين وهى شمالى حلب فجمع جوسلين اليه الفرنج وقاتله فانهزم المسلمون ، فعظمت الحادثة على نور الدين ، فاخذ يعمل الحيلة ، ورأى أنه إن جمع اليه ، اضطر جوسلين إلى الجمع اليه ، وحذر وامتنع ، فاتفق مع جماعة من التركمان وبذل لهم مالا

مابمصر من يصدنا وقالوا . ان نور الدين فى أقصى الشمال من الشام ، وعسكر الشام متفرق ، فالى ان يجتمع عسكر الشام نكون قد حصلنا على مانريد من ملك مصر ، والتقوى بها على سائر بلاد الاسلام وشايعهم على قصد مصر جماعة من أهل مصر من أعداء شاور ، فارسلوا الى ملكهم مرى يستدعونه لتملك البلاد المصرية واعلموه خلوها من ممانع فتردد أولا ، ولكنهم سهلوا عليه أمرها بل ارغموه على أن يسير بجنده معهم ، فساروا من عسقلان الى بلبيس ، ثم حصروا القاهرة سنة ٥٦٤ ، ولو أن الفرنج أحسنوا السيرة مع أهل بلبيس لتأتى لهم ملك مصر والقاهرة ولكنهم أساءوا فنبهوا الاهالى الى الاحتياط منهم والاستعداد الى دفعهم ، على أن شاور كان قد أمر باحرق الفسطاط خوفا عليها من الفرنج كما سلف ثم بذل لهم المال ليرحلوا

وفى خلال ذلك أرسل العاضد إلى نور الدين يستغيث به ويعرفه ضعف المسلمين عن الفرنج ، وأرسل فى الكتب شعور النساء ، وقال هذه شعور نسائى من قصرى يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج — ثم لما صالح شاور الفرنج وبذل لهم المال ، عاود العاضد مراسلة نور الدين ، وأعلمه بما لقى المسلمون من الفرنج ، وبذل له ثلث غلات البلاد ، وان يكون أسدالدين مقيما (مندوبا ساميا) عنده فى عسكره والنفقات عليه لا تدخل فى ذلك الثلث

ثم كتب شاور لنور الدين يستصرخه ، وجعل بذل المال للفرنج حيلة وخداعا ، وقال فى كتابه : إن لم تبادر ذهبت البلاد ومازال يمهل الفرنج ويعطيهم حتى أتت قوات صلاح الدين بقيادة أسدالدين وصلاح الدين : وكان أهل مصر قد كتبوا إلى أسد الدين فما أن أمره نور الدين بالحركة إلى

وارضا إن هم طغوا بجوسلين قتلا أو اسرا فأسروه ، فبذل لهم هو أيضا فاخفوا الأمر عن نور الدين ، ولكنه سرعان ماعلم ، فسير عسكرا أخذوا جوسلين من التركمان قهرا ، فكان أسره من أعظم الفتوح على المسلمين لأنه كان شيطانا عاتيا شديدالعداوة للمسلمين ، قاسيا يخشى بأسه ، وأصيبت النصرانية كافة بأسره ، وعظمت المصيبة عليهم بفقده ، وسهل أمرهم على المسلمين بعده وتيسر عليهم فتح كثير من بلادهم وقلاعهم مثل عين تاب وعزاز ودلوك ومرعش وتل باشر هذه بعض آثار نور الدين التى أحدثت انقلابا عظيما فى مجرى الحوادث التاريخية ببلاد الشام أيام الصليبيين الأولى والله يؤيد بنصره من يشاء إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار

أسئلة

(١) كيف ابتدأ صلاح الدين عمله فى مصر بعد موت عمه أسد الدين وما علاقة كل منهما بالخليفة العاضد

(٢) كيف كانت علاقة صلاح الدين بنور الدين فى حياته وكيف كانت سياسته ببيت نور الدين بعد وفاته

(٣) ماأهم الاسباب التى مكنت صلاح الدين من الانتصارات المتوالية على الصليبيين أولا ولماذا اضطر فى آخر أيامه إلى مصالحتهم

(٤) استعرض ماحصل لبيت المقدس منذ فتحها عمرو بن العاص إلى آخر أيام الدولة الايوبية

(٥) استعرض أيضا ماحصل لدمياط من جراء اغارة الصليبيين عليها

(٦) هل حال بين الايوبيين وبين النهضة العلمية ما كان من اشتغالهم بالحروب الصليبية ؟

دولتا المماليك

٦٤٨ - ٩٢٢

نكتفى هنا بما أوردناه فى الدولة الطولونية من بيان أصل الأتراك فى الدولة العباسية ، وأن المعتصم هو الذى رأى أن يكون حماته وخاصة جنده منهم ، دون عصبيته النسبية من العرب ، وعصبية دولته من العجم . فبالغ فى شرائهم والاستكثار منهم ليضرب بهم العرب والعجم عامة ؛ والعلويين والرجعيين من الأمويين خاصة ، وبعد ذلك كانوا على دولته لا لها ، وعاملوا خلفاء بنى العباس بعد العصر الذهبى معاملة قاسية ، وملكوا منهم كل شىء فى الدولة ، بل أنهم حجروا عليهم فى حريتهم الشخصية وتصرفوا فى أمور بيت الخليفة الداخلية ، وقتلوا من الخلفاء من قتلوا وعزلوا من عزلوا وولوا من ولوا .

وعلى هذا المنوال نسج صلاح الدين بمصر ؛ لأنه كان فيها غريبا فاشترى من هؤلاء الترك كثيرا ليعتز بهم وبأمثالهم ، وصار ذلك سنة استن بها من جاء بعده من ورثته فى الملك ، غير أن الملك الصالح نجم الدين أيوب ، هو الذى بالغ فى شرائهم ، وأنزلهم قلعة جزيرة الروضة فسموا من جراء ذلك بالبحرية ، فتغلبوا هم بدورهم على ملك مصر فى نهاية الأيوبية ، وقتلوا توران شاه وتبوءوا عرش البلاد وصاروا ملوكها بعد سادتهم مائة وستة وثلاثين سنة (٦٤٨ ــ ٧٨٤) وعددهم ٢٤ ــ وكان لهم مماليك من الشراكسة ، وقد ملكوا مصر ــ بعد سادتهم المماليك البحرية . مائة وثمانيا وثلاثين سنة (٧٨٤ ـ ٩٢٢) وعدد ملوكهم ٢٣ .

وأول المماليك البحرية : عز الدين ايبك التركمانى ، وآخرهم الصالح شعبان ابن الحسين بن الناصر قلاوون .

وأول المماليك الشراكسة : الظاهر برقوق ، وآخرهم قانصوه الغورى ، ويسمون بالبرجية لأن السلطان قلاوون هو الذى استكثر من شراء الشراكس وجعلهم فى أبراج القلعة — والملحوظ عند الرجوع إلى تاريخهم أن تداول الملك فيهم لم يك وراثيا كما كان فى بيت سيدهم ، وإنما كان لمن غاب منهم وظهر أمره ، طورا بالحرب وطورا بالسياسة التى ترغب زملاءه فيه وتدفعهم إلى التعاون معه .

نكتفى بهذا البيان إذ كان من غرضنا فى هذا الفصل بيان ما كان منهم جميعا من الجهاد فى سبيل رد المغول عن مصر وبخاصة بعد أن دخل هولاكو بغداد وقضى على الخلافة الاسلامية العباسية وانطلق بعد ذلك هو وأتباعه كالسيل الجارف واجتاحوا آسيا الغربية حتى دخلوا بلاد الشام وهددوا مصر .

واعلم أن المغول والتتر من شعوب الترك ، ومماليك مصر من الترك أيضا ، ولا يفل الحديد إلا الحديد — ومساكن الأولين بلاد الصين مما وراء نهر سيحون ، وحادثة إغارتهم على آسيا من الحوادث العالمية العظمى ، التى ابتلى بها أهل هذه القارة عامة ، والمسلمون من بينهم خاصة ، وما أدراك أنهم طغوا أيضا على أوربا الشرقية ، ولا يزال أهلها إلى اليوم يرددون ما كان منهم ، ويخشون أن يعيد التاريخ نفسه فيعيدوا الكرة مرة أخرى ، وهذا ما يطلقون عليه اسم الخطر الاصفر ، ومن أجله يعملون دائما على أضعاف الصين .

ثم ما أدراك أنهم كانوا يسيرون فى اغارتهم سير الرياح الذارية ، بل سير البرق الخاطف ، إذ خرجوا من أطراف الصين وعبروا جيحون وملكوا تركستان وما وراء النهر ، ثم عبروا إلى خراسان وإلى الرى وهمدان إلى العراق ، ثم ملكوا أذربيجان وأرمينية وما وراء جبال القوقاز إلى أراضى القفجق — وذهبت طائفة منهم فملكت غزنة وما يجاورها إلى الهند ، وكل ذلك فى نحو سنة

حتى أخافوا أهل الأرض جميعا .

وسبب سرعتهم ترجع إلى عوامل ؛ منها أنهم لا يحتاجون إلى ميرة إذ كانوا يأكلون لحوم الدواب لا غير ، ودوابهم التى يركبونها لا تحتاج إلى العلف ، بل تأكل من نبات الأرض وتحفر عليه بحوافرها — وهذا إلى أنهم مفطورون على الحرب والسلب والنهب ، كما هو شأن سكان البادية — وربما كانت إغاراتهم على بلاد المسلمين لبؤسهم وفقرهم ، وغنى جيرانهم المسلمين .

وكان مبدأ خروجهم على بلاد الاسلام ، أيام عاهلهم الأكبر جنكيز خان سنة ٦١٦ ، وأيام الناصر لدين الله العباسى .

وسبب خروجهم الظاهر حدوث خلاف بينهم وبين ملك ما وراء النهر وخراسان وما يليها إلى حدود العراق ، محمد خوارزم شاه لأسباب تجارية ، وقد انتهى هذا الخلاف بوقوع الحرب، فلم تثبت الجيوش الخوارزمية لجيوش جنكيز ، فكان أول ما استفتحوه مدينة بخارى، ثم أخذوا يطلبون خوارزم شاه وهو يفر من وجههم حتى وصلوا إلى الرى وهمدان وأذربيجان وتبريز وما وراءها إلى بلاد القفجق والروس والبلغار — ثم هلك جنكيز سنة ٦٢٤ وتولى بعده ابنه طولى ، فهلك وتولى بعده ابنه هولاكو ، الذى كان على يده أخذ بغداد وأسقاط الخلافه الاسلامية بها سنة ٦٥٦ ؛ وقتل الخليفة المستعصم وما يزيد على الفى الف وثلاثين الف إنسان ، إذ أن سيف التتر أخذ يعمل فى رقاب العباد أربعة وثلاثين يوما .

ولما فرغ هولاكو من هذه الموقعة الكبرى ، كتب إلى الملك الناصر الأيوبى (وهو يوسف بن محمد بن غازى بن صلاح الدين يوسف بن أيوب ، صاحب سورية) ، ثلاث مرات يأمره بالدخول فى طاعته ويتهدده ، ويذكر له ملكه لأكثر البلاد ، وما فعله بأهل الاسلام ويقول « أنه سوط عذاب أرسله

الله إلى أمم الأرض العاتية ، لينفذ قضاءه فيها ، فيقال إنه أجابه إجابة من نوع لهجته ، اعتمادا على مساعدة قطز الذى كان إذذاك وصيا على ابن أيبك سلطان مصر ، ثم عزله ووثب على عرش هذه البلاد سلطانا ، فلم يجد الناصر المعونة التي كان ينتظرها منه ، فكتب إلى هولاكو وصانعه وأرسل اليه الهدايا لعجزه حينئذ عن مقاومته .

أما هولاكو فانه قصد إلى ميافارقين واستولى عليها من صاحبها محمد بن غازى بن العادل أبى بكر بن أيوب ، ثم استولى على بلاد الجزيرة وقصد حلب واستولى عليها سنة ٦٥٨ فسارع أهل حماة إلى التسليم .

ولما علم الناصر وهو بدمشق أن التتر أخذوا حلب فر إلى مصر فأخذها التتر بالأمان ولكنهم اقترفوا فيها ما اقترفوا فى بغداد وأوغلوا حتى وصلوا إلى غزة .

ولولا أن هولاكو استدعى إلى بلاده لموت عاهلهم الأعظم وهو أخوه منكوقان الذى كان هولاكو نائبا عنه لا ملكا مستقلا ، لدخل التتر مصر ــ رجع هولاكو إلى أرض الجزيرة ، ثم أوغل الى اذربيجان ، ولما وصل الى المراغة هلك بها سنة ٦٦٤ ، قيل مات على ملته وقيل أسلم ، وملك أملاكه من بعده ابنه أبغا .

وكان هولاكو عند ما عزم على مغادرة الشام قد عين قائده كتبغا على جيشه فشرع يهدد مصر والمماليك .

علاقة التتر بالمماليك فى مصر

عهد قطز وموقعة عين جالوت :

كتب كتبغا الى قطز رسالة لا تقل فى شدتها عما كتب من قبل ذلك الى

الناصر صاحب الشام ، فعقد مجلسا من قادة البلاد وأعيانها وأخبرهم ، واستشارهم فلما رآهم على أتم استعداد لمعاونته على أعداء الاسلام ؛ قتل الرسل ، وقام فاستنهض الهمم ، واستثار الناس بخطب حماسية ، ونبههم الى الخطر المحدق بالدولة والملة ، وجمع جيشا وسار به الى عكا ، فوجد الصليبيين هنالك قد اتفقوا مع المغول على الحياد ، ثم سار فالتقى بجموع المغول على (عين جالوت) وهزمهم بعد قتال عنيف وقتل منهم وأسر كثيرا ، وذبح كتبغا ، وذلك فى خامس عشرى رمضان من سنة ٦٥٨ ، قبل أن يهلك هولاكو باذربيجان

ولما بلغ خبر الهزيمة المسلمين من أهل الشام قاموا على المغول المقيمين بين ظهرانيهم ، وعلى اليهود والنصارى الذين انحازوا الى المغول ، فاعملو السيف فيهم وقتلوا منهم عددا كبيرا —

ولم يكتف المسلمون بهذا الانتصار بل تتبعوا فلول المغول حتى أدخلوهم أرض الجزيرة الشمالية — وصار قطز صاحب السيادة فى الشام ، وكانت هذه أول هزيمة عرفت للتتر منذ قاموا .

عهد بيبرس وموقعة ابلستين — (من سنة ٦٥٨)

لما تولى بيبرس بعد قطز ، كان شديد الخوف من المغول الذين كانت دولتهم اذ ذاك تمتد من نهر جيحون الى المحيط الهندى جنوبا ، ثم الى الشام والبحر المتوسط غربا — كل ذلك باسم مملكة القان (الخان) ، فعمل — ليتقى هذا الخطر المحدق بسلطنته — على مصافاة ملك القبجق المسمى برخ ؛ عدو أبغا خان المغول ، وعلى مصادقة قيصر الروم . وعلى ايجاد صلة بين مصر وبين كل جهة يرى أنها تستجيب له اذا دعاها الى نجدته ، كسلاجقة الروم ونابل واسبانيا ، ثم انتهز فرصة اشتغال المغول بأحوالهم الداخلية وغزا الصليبيين الذين لا يزالون بسواحل الشام وكانوا يتحيزون الى المغول فى غزوهم ويصادقونهم ، مع ما هم فيه من تحاسد وتنافر ،

فأغار عليهم وهدم كنيسة الناصرة أولا ، ثم أغار على قيسارية وهدم أسوارها ثم على أرسوف ، وعاد بالغنائم والأسرى ، ثم سار الى صفد ففتحها وكان قد أرسل حملة الى حمص وقد هاجمها ملك انطاكية ، فقامت بمهمتها خير قيام ، وبعد قليل هاجم أرمينية لمساعدتها التتر حتى اضطر صاحبها إلى نقض عهده معهم — ثم أخذ بيبرس انطاكية وما زال يأخذ من معاقلهم حتى أمن جانبهم ، وتفرغ بعد ذلك الى المغول وأرسل قوة أوقعت بجموعهم بنواحى الفرات ، وقبل موته بسنة أرسل حملة لمساعدة السلاجقة فى قيسارية على النائب المغولى ، ثم سار بعد ذلك فأوقع بهم عند ابلستين ، ثم دخل قيسارية بين الموسيقى والهتاف وعاد الى الشام ، وعلم أبغا فسار الى قيسارية ليأخذ بثار جيشه المنهزم من أهلها شر انتقام لاجلالهم سلطان مصر .

عهد قلاوون (من ٦٧٨) وموقعة حمص :

لم يكد هذا السلطان يجلس على عرش دولته ، حتى إجتاح المغول ولاية حلب ، واستعملوا فظائعهم التى كانوا يرتكبونها من عشرين سنة ، فخاف أهل دمشق ، وهاجر خلق كثير منهم إلى مصر .

وعند ذلك سار السلطان اليهم فولوا مدبرين ، فهاجم الصليبيين حتى طلبوا الأمان ، فهادنهم عشر سنوات وعاد — وبعد قليل ذهب إلى دمشق فعادت جنود المغول إلى اقتحام الشام من الشمال بقيادة أبغا وأخيه منكوتمر ، فجمع لهم السلطان خمسين الف مقاتل وزحف نحو حمص فالتقى بالمغول فانهزم جيشه ولكنه انتهز فرصة اشتغال العدو بالغنائم ، وانقض عليهم فى شرذمه لا تزيد على الف فارس فهزمهم حتى ولوا مدبرين ، مات منكوتمر من جرحه ، وتلاه أخوه أبغا بعد سنة ، فتحطمت بذلك آمال المغول فى سوريه ومصر

ويعتبر هذا الانتصار من الحوادث العظمى فى تاريخ الشرق الأوسط ومصيره ومصير

الدين الاسلامي فيه ، فأن أبغا كان يميل إلى المسيحية ، وقد كاتب البابا وأوربا المسيحية ليتحركوا بحملة صليبية جديدة إلى الشام وشن الغارة على مصر ،فلم يستجب له أحد .

وخلف أبغا على ملكه أخوه بوكدار بن هولاكو وأسلم وحسن أسلامه وتلقب أحمد سلطان ، وحمل عسكره على الاسلام فقتلوه ، وملك من بعده بن أخيه أرغون بن أبغا ، وكان يميل الى النصرانية فكاتب من كاتبهم أبوه فكان حظه منهم كحظ أبيه ، ولذلك وضعت الحرب أوزارها بين السلطان وبين المغول ولم يحاولوا أخذ ثأرهم من جراءهزيمتهم بحمص،حتى مات قلاوون سنة ٦٨٩ .

عهد خليل بن قلاوون (من ٦٩٠) وطرد الصليبيين نهائيا من الشام

خير مايذكر به هذا السلطان الجليل أنه عزم على تطهير الشام من الصليبيين نهائيا . ولذلك استدعى ولاة سورية وأمرهم أن يكونوا على اتم استعداد لنقل ذخائره وجنوده الى اسوار عكا، وحاصر هذه المدنية ونصب حولها ٧٢ منجنيقا فسقطت بعد حصار ٤٣ يوما ثم احرقها بعد ان لبثت بأيدى الصليبيين ١٠٠ سنة كاملة ، وعلى أثر سقوطها ترك الصليبيون عامة حصونهم بالشام ، وصارت كلها للمسلمين ، وانتهت الحروب الصليبية بعد أن مضى عليها ٢٠٠سنة

ولما فرغ من الصليبيين وجه جيوشه الى المغول من حلب ، ففتح قلعة الروم وسماها قلعة المسلمين

عهد الناصر محمد بن قلاوون (من ٦٤٩) وواقعة مرج الصفر

حدث قبيل عودة الناصر الى السلطنة للمرة الثانيه ان السلطان السابق حسام الدين لاشين ارسل حماة- حينما سمع بتحرك المغول-بقياده قبجاق .فهرب هو وامراؤه ومماليكهم الى غازان بفارس،لان السلطان اراد أن يفتك بهم بعد

ماوصلوا الى حلب . فا كرمهم غازان لحرضوه على غزو سوريه ، فزحف فى مائه الف وعبر الفرات وبلغ الخبر مصر وكان لاشين قد قتل بعد أن أرجعوه، فزحف الناصر فى نحو ثلاثين الفا فقط ، والتقى الفريقان عند سلمية فانهزم السلطان وسمع أهل دمشق فهجروها فدخلها غازان ووعد الناس بحمايتهم ، ثم وعد أن يقيم حكومة عادلة بمصر ، اذا انضمت الى دولة المغول ، وعين قبجاق واليا على دمشق مكافأة له ، ثم عاد أدراجه . وأنذر الناس أنه يسارع فى العودة اليهم اذا خرجوا عن طاعته

اما الناصر فعاد الى القاهرة واستعد لمحو هذا العار ، واستخلاص الشام من الاعداء ، فدخلت جنوده دمشق واستوعبت بلاد سورية فتحا ، وكل ذلك من غير قتال ، لان جنود المغول كانوا قد ساروا وراء زعيمهم ، وعفا السلطان عن قبجاق ومن كان معه من الفارين الى غازان

ولما علم غازان أخذ يستعد ، واستعان الدول المسيحية — مع انه مسلم فلم يستجب له أحد ، فاضطر الى مهادنة مصر ، وأرسل الى الناصر رسالة يعيبه فيها ، لانه هجم على بلاده من غير سبب ، ثم توعده بالانتقام اذا لم يقبل الشروط التى عرضها عليه ، فكان رد الناصر عليه من جنس رسالته ، اذ عابه على ماارتكبه آباؤه الوثنيون ضد الاسلام ، وعلى استنجاده بالمسيحيين الذين طالما حاربوا المسلمين ، وختم رسالته بانه اذا نزل غازان عن غطرسة ، وجد الناصر عند رجائه . فتغيظ غازان ، لكنه رأى أن يؤجل الحرب مدة ، تمكن الناصر فيها من اكمال الاستعداد

ثم زحف المغول بجموعهم على بلاد سوربة ، فزحف إليهم الناصر من دمشق ، والتقى الفريقان بمرج الصفر ، ثم دارت رحا الحرب ، وثبت المصريون فأنزل الله نصره عليهم ، وفر التتر إلى ناحية الصحراء ثم تابعوا الفرار شمالا

يقصدون الفرات إلى تبريز ، فهلك منهم فى الطريق خلق كثير ، وأراد بقيتهم العبور فحال فيض الفرات بينهم وبين ما أرادوا . فساروا على جانب النهر الى بغداد ، فأسر العرب منهم جماعة كثيرة .

وعاد السلطان إلى مصر بعد هذا النصر المبين، فدخلها والفرح شامل والزينة عامة ؛ أما الحال فى بلاد الفرس فأن تبريز [1] لبثت أسابيع وأهلها فى عويل وحزن ، اضطر معه غازان إلى اعتزال الملك ؛ ثم عاد فاستعد إلى سورية على أمل أن تأتيه أمداد أوربا ، فعاجلته منيته ، وملك من بعده أخوه، ثم أبو سعيد ابن أخيه، وهو آخر من ملك من بنى هولاكو فكان بينه وبين السلطان الناصر مكاتبات ومراسلات ، وتودد بعد وحشه - وبموت أبى سعيد تفرقت مملكة المغول أو القان بأيدى أقوام ، وصارت شبيهة بملوك الطوائف فى فارس قديماً ؛ وفى بلاد الأندلس بعد نهاية حكم بنى أمية فيها — وصار المغول فى دهماء مظلمة وعمياء مقتمة ؛ لا يفضى ليلهم إلى صباح ؛ ولا فرقتهم إلى اجتماع ولا فسادهم إلى صلاح ، فى كل ناحيـة هاتف ، يدعى باسمه ، وحائف ؛ أخذ جانبا إلى قسمه ، وكل طائفة تتغلب تقيم قائما تقول هو من أبناء القان ، وتنسبه إلى فلان ، ثم يضمحل أمره عن قريب ؛ ولا تلحق دعوته حتى يدعى فلا يجيب .

أما بعد فقد فرغنا من جنكيز وبنيه ، وما كان لهم من دولة وصولة ،وما أحدثوا فى بلاد الاسلام من حروب وكروب ؛ وما صار اليه أمرهم أيام الناصر بن قلاوون من الاضمحلال،وما تحولت اليه دولتهم من انفراط عقدها وذهاب ريحها .

ونشرع بعون الله فى الدور الثانى من أدوار المغول وهو دور تيمورلنك فنقول:

---

(١) بغداد وان كانت أم الممالك ودار الخلافة ؛ قد أغفلها ملوك التتر وصرفوا عنايتهم إلى تبريز والسلطانية وصيروها قاعدتين لمملكتهم .

ظهر هذا الطاغية المسلم على أثر انحلال دولة بنى جنكيز ، سنة ٧٧٣ ،وقد أرخه بعضهم بكلمة (عذاب) أى بما يقابلها بحساب الجمل ، واختلف فى نسبه فقيل أنه من أحفاد جنكيز من جهة أبيه وأمه وقيل من جهة أمه فقط وقيل أنه ابن أحد وزراء جنكيز .

والمعروف من أمره الأول : أن أباه كان إسكافا بقرية من قرى كش بما وراء النهر ،فلما نشأ تيمور ، وكان أبوه فقيرا ، احترف التلصص ، فكان يسرق كثيرا ، وقد أصابه راع بسهمين ، جاء أحدهما فى فخذه والآخر فى كتفه ،فأعابهما فكان أعرج الجانبين ، وكان يقال له نصف إنسان من جراء ذلك ، ومع هذا لم ينته عن السرقة ، فظفر به الحسين ملك هراة فأمر بضربه ثم بصلبه ، فشفع فيه الأمير غياث الدين بن الحسين فشفعه فيه ، ثم صحبه الأمير وقربه وزوجه أخته ورقاه ، فلما مات الملك وتولى الأمير إزدادت منزلة تيمور ، وصار مقدما على الجند فطغى حتى على مولاه ، إذ حصل أن وقع خلاف بينه وبين زوجه أخت الملك فقتلها ، ثم لم ينته عند هذا ، بل خرج وخلع الطاعة ، واستعمل الجند فى الفتح حتى فتح ممالك ماوراء النهر ، وشرع فى استخلاص بقية البلاد ، وأرسل إلى غياث الدين يطلب منه الدخول فى طاعته ، فذكره بماله عليه من يد فلم يذكره ، وعبر جيحون وحاصر هراة وقبض على مليكه وحبسه ، ومنع عنه الطعام والشراب حتى مات عطشا وجوعا ، ثم عاد إلى خراسان بعد أن أفنى أهل سجستان ، ثم أخذ يستخلص بلاد العجم مملكة مملكة ، ومدينة مدينة ، حتى دانت له البلاد ، واستعطفه الملوك بالهدايا ، وقد دخل فى طاعته سلاجقة الروم كما كانوا تحت طاعة التتر من قبل ، وملك العراقين وفارس وكرمان بعد حروب هلك فيها ملوكهم ، وبادت جموعهم ، وخربت ديارهم ، وسبيت نساؤهم

وكان صاحب بغداد بعد التتر يسمى أحمد بن اويس ، فجمع عساكره واستعد له ، ثم صار الى مهادنته ومهاداته ، فلم يغن كل منهما عنه شيئا ، وأخذ

تيمور يخادعه حتى فرق عساكره ، ثم انقض عليه ، ففر من وجهه ، ودخل تيمور بغداد سنة ٧٩٥ وتتبع أثر أحمد فانتهى الى السلطان برقوق بمصر مستصرخا مستنصرا فوعده خيرا .

أما تيمور فانه – بعد أن اتخذ من رءوس القتلى من أهل بغداد مآذن – زحف الى تكريت وانتشرت عساكره فى أرض الجزيرة الى الرها .

وبلغ الخبر الظاهر برقوقا فنادى فى عسكره بالتجهز إلى الشام ، ثم ارتحل ومعه أحمد بن أويس ، وظل تيمور فى عمله حتى دخل بلاد الروم ، فانتهزها أحمد فرصة وعاد إلى بغداد فملكها ، وضرب السكة باسم برقوق ، أما برقوق فقد ظل فى الشام مرابطا ، فلم يجرؤ عند ذلك تيمور على دخول الشام ، وعاد إلى فارس لحصول اضطرابات فيها ثم عاد مسرعا يريد الشام ومصر .

وفى هذا الزمن ظهر بايزيد العثمانى وكان بين تيمور وبين نوابه حروب فى آسيا الصغرى ، إذ انقض على سيواس ودمرها وما جاورها .

وكان بايزيد إذ ذاك مشتغلا بمحاصرة القسطنطينية ، فاشتغل بها عن تيمور مؤقتا ، ولو أن برقوقا هجم على تيمور من خلفه ، لقطع عليه خط الرجعة ، وحصر بين نارين من بين يديه ومن خلفه ، وقضى عليه قضاء عاجلا ، ونجى بلاده وبلاد بايزيد من هذا الطاغية ، ولكنه التزم الحياد ، لئلا يقوى بايزيد فيغير على الاملاك المصرية ، ولهذا كان لدى تيمور الفرصة للايقاع بكل منهما على انفراد .

ثم كتب تيمور إلى برقوق يذكره بصلح أبى سعيد ، وانه يجب أن تكون العلاقة بينهما من الآن ودية ، فلم يرد عليه السلطان ، وقتل رسوله خشية أن يكون جاسوسا ، فأرسل إليه رسالة أخرى من نوع ما كتب هولاكو إلى الناصر ، فرد عليه باحتقار ، وسار بجيشه إلى دمشق ، ثم عاد إلى القاهرة لأمور واضطرابات داخلية فأصابه المرض فمات ، وقد قضى حياته وهو فى خوف من تيمور ، ومن العثمانيين الذين استولوا على مصر فيما بعد .

عهد الناصر فرج — أمر الشام وبايزيد .

بعد أن فرغ تيمور من آسيا الصغرى توجه نحو سورية وانقض عليها كالصاعقة ، وهزم الأمراء الذين كانوا قد تجمعوا فى حلب للدفاع عنها . وقتل من أهلها وأسر ، ودخل المدينة سنة ٨٠٣ ، فأسرف فى القتل والأسر ، ولم يفرق بين رجل وامرأة ، ومسن ووليد ، وانتهك الحرمات وأباح النساء ، وانتهب الأموال ، وطلب أهل القلعة الأمان فأمنهم ، فلما نزلوا أوثقهم فى الحبال ، وأمر أن يبنى من رءوس الرجال أشباه المآذن ، فكان ارتفاعها نحو عشرة أذرع وكان عددها عشرا ، ثم جمع بقية علماء المدينة الذين نجوا من القتل وأخذ يلقى عليهم الأسئلة المحرجة ، يقول : بالأمس قتل مناومنكم ، فمن الشهيد ؟ وماتقولون فى على ومعاوية ويزيد ، فلما أجابه بعضهم بأن الكل مجتهد غضب . وقال : على ، على الحق ، ومعاوية ظالم ، ويزيد فاسق ، وأنتم حلبيون تبع لأهل دمشق وهم يزيديون قتلوا الحسين ....

ثم توجه نحو دمشق وبها عسكر السلطان وهو فيهم ، فلما رأى من كثرة جند تيمور فر الى القاهرة فى حالة يرثى لها ، وتشتت بقية العسكر حفاة عراة ، وأصبح أهل دمشق — وهم لا يعلمون بهروب السلطان — فجاهدوا وانتصروا فطلب تيمور المفاوضة فى الصلح فانتهى الأمر بالأمان لأهل دمشق خاصة ولكنهم أرهقوا فى الجباية وأخذت أموالهم ودوابهم وأسلحتهم ، ومن امتنع عوقب بانواع من العذاب ، وانتهكت حرماته بين يديه ، وبعد ذلك أحرق المدينة ثم تركها تيمور وسار نحو حلب وخرب قلعتها ، واحرق المدينة ، واستعد لمنازلة بايزيد

وسبب عدائه بايزيد ، معاملة اعداء تيمور اللاجئين اليه بالاحسان ، على أن زحفه عليه كان من جراء أن جماعة من ملوك الطوائف ببلاد الروم ساروا اليه يستنجدونه على بايزيد ، وقد ملك بلادهم ، ليردها اليهم ، فأرسل تيمور

الى بايزيد – على عادته من المكر والدهاء – يطلب منه الصلح ويهدده ، وينصح اليه بالوقوف عند ماكان يملكه ابوه وجده ؛ فكتب اليه رافضا ودعاه الى النزال والحرب ، فعاد من حصار القسطنطينية ، وكان تيمور قد نزل انقره وهنالك التقى الجمعان وكان فى عسكر بايزيد عدد من جنود التتر الفارين والمرتزقين ، فكاتبهم تيمور ، وذكرهم بالعصبية ، فوعدوه بالانحياز الى جنده عند اللقاء ، وصدقوه فهزم بايزيد هزيمة منكرة ، وقبض عليه وسجنه فى قفص ، ثم حمله معه الى تبريز فمات بها سنة ٨٠٥ ولكن سمح تيمور بنقله الى بروسة ليدفن بجانب اجداده وقسم تيمور بلاد الروم على الامراء الذين أستنصروا به

ولامر ما كتب تيمور الى سلطان مصر فى الصلح فاجابه وحصلت بينهما المودة والمهاداة وأرسل تيمور الى السلطان فيما أرسل فيلا .

وفى سنة ٨٠٧ هلك تيمور بمدينة أترار ، وحمل الى سمرقند فدفن بها .

وله تسع وستون سنة ، فتمزقت ممالكه ، وصارت نهبا لكل من غاب ، الا ماوراء النهر والاقاليم الشمالية من الهندستان فانها ظلت فى ولده الرابع شاه رخ وقد استرد المماليك بلاد الشام شيئا فشيئا ، وكان تيمور قد منح قره إلك زعيم التركمان سيواس ، فاغار على اطراف سورية أيام برسباى ؛ فذهبت جنود مصر واغارت حتى ملكت الرها ، واسرت ابن قره ، فقام لتخليص ابنه وعاضده الشاه رخ الذى كتب الى برسباى بانه صاحب الحق فى تقديم الكسوة الى الكعبة المطهرة باعتبار أنه عظيم الاسلام

فأجابه السلطان محتقرا ، ثم خرج السلطان فحاصر آمد حتى عقدت مهادنة ورجع السلطان من طريق الرها فأهدى اليه قره إلك هدية من الخيل وعملة مضروبة باسم برسباى .

أما الشاه رخ فما زال على عدائه ، وقد كرر مطالبته فيما يختص بمكة والحرمين ، ثم حلف الايمان المغلظة ليعمان على أن تغطى كسوته الكعبة

وجاء رسوله إلى مصر ومعه حلة ملكية ، وكتاب من شاه رخ يحتم على السلطان أن يلبسها رمزا لتبعيته ، فمزقها السلطان ، وألقى الرسول فى مستنقع ، ثم أذن له أن يفارق مصر ، وقال له : قل لسيدك أننا مازلنا نسخر منه ومن طلبه ، وأنه إذا لم يخرج لينتقم لك منا عددناه إنسانا ضعيفا ، فتقدم جيش شاهى نحو آسيا الصغرى وطاب طابات ، خيفة من مراد العثمانى فانتهزها السلطان فرصة وعقد مع مراد معاهدة حربية كان من نتائجها أن السلطان امر حاكم دمشق بالاغارة على أملاك الأمراء ، الذين منحهم تيمور قبل هلاكه ماكان بأيديهم ، ففعل ، وصار نصف آسيا الصغرى من الشرق لمصر ، والنصف الغربى للعثمانيين ، وقضى بذلك على آخر صوت من أصوات المغول على حدود مصر من نواحى أرمينية .

وبعد فقد رأيت ما كان من وقوف المماليك فى وجه التتر فى أيام هولاكو وتيمور ، وماكان من تضحيتهم فى هذا السبيل بالنفس والمال . وما كان من يقظتهم وحرصهم على مصر وأهليها أن يقعوا غنيمة فى أيدى هؤلاء الطغاة الجبابرة الذين غزوا الدنيا ودمروا مدنها وفتكوا بالمسلمين خاصة فتكا ذريعاً وقضوا على الخلافة الاسلامية العباسية ودمروا بغداد ، كما دمروا من قبلها بخارى وسمرقند ومرو ونيسابور والرى وهمدان وفعلوا الافاعيل فى أهلها ونهبوا كل مايصلح لهم ومالا يصلح لهم أحرقوه ، وهدموا المساجد وقتلوا العلماء وأرادوا إطفاء نور الله من ممالك الاسلام ، والله متم نوره ولو كره الكافرون

ولا بأس من أن تحيط علماً بأن جنكيز لما فتح بخارى دخل الجامع مع جماعته ودعا بالخمور والطبول والزمور ، ثم أحضر العلماء والكبراء وأنزل بهم من الأذى ماشاءت له وحشيته ، ثم أفرغ خزائن المصاحف والكتب وجعلها تحت سنابك الخيل ومواطىء أقدام الكفار ، وجعل أوعيتها ظروفا لعلف الدواب ، ثم استخلص أموالها وأمر بقتل الرجال ، وأسر النساء والأطفال ،

وهدم البلد من أساسها، وخلاها تنعى من بناها .

وأن هولاكو لما أغار على بغداد سنة ٦٥٦ لبث المغول ينهبون فى المدينة سبعة أيام ، وأحرقوا جانباً عظيما من أنفس الكتب المخطوطة ورموا من الكتب فى دجلة ماسود ماءها — فانظر كيف ذهبت علوم المسلمين ، وما آلت اليه فقط نهضة المأمون فضلا عمن سبقه ومن جاء من بعده .

وأفعال التتار من هذا القبيل تدلك دلالة واضحة على فضل المماليك فى ردهم هؤلاء المفسدين عن مصر — ولو تملكها التتار وساروا منها حتما إلى افريقية وشواطىء المحيط الأطلسى ، لقضوا على الاسلام وبلاد المسلمين وعلى حضارة المسلمين وعلوم المسلمين وعلى اللغة العربية لغة القرآن الكريم والديانة الاسلامية، وقتلوا علماءهم وأحرقوا كتبهم ونشروا لغتهم وتعاليمهم الوثنية ، وحملوا الناس عليها حملا ؛ سواء أكانت من الوثنية أولا ؛ أم كانت من ميولهم المسيحية ثانيا ؛ أم كانت من نزعاتهم الشيعية أخيرا ؛ أم كانت من تحريمهم العربية على الناطقين بها وإرغامهم الناس على رطانتهم الأعجمية

وقد فعل ذلك المسيحيون فى الأندلس حينما سلم أبو عبد الله غرناطة ؛ وشرطوا للمسلمين الحرية فى دينهم ولغتهم ؛ وأموالهم ومساجدهم وعاداتهم ؛ وقضائهم ؛ وألا يزاد عليهم شىء من الخراج أو ما كانوا يؤدونه من قبل ؛ فما وفوا للمسلمين بشىء من كل هذا ؛ بل سرعان مانصبوا إشارات المسيحية على مسجد غرناطة ؛ وأمر أحد قوادهم باحراق الكتب العربية المحفوظة منذ قرنين ؛ وبثوا الدعاة يرهبون الناس إن لم يبادروا باعتناق المسيحية، ثم زادوا فطردوا من لم يستنصر ؛ وحكم بعض ملوك الفرنج بعد ذلك بمنع مسلمى غرناطه فى يوم واحد من عاداتهم وشعارهم ؛ والتكلم بلغتهم ، وأمر نساءهم بالسفور ؛ وحرم عليهم الغسل من الحدثين .

وهذا ما عمله النصارى مع الصلح ؛ فما بالك بالذين لا يعرفون إلا السيف

والنار والخراب والدمار ؛ والسلب والنهب ؛ وهم المغول الذين قضوا على آثار العرب فى فارس وما يليها شرقا فى أقل من سنتين ·

إن المماليك فى ردهم غارات التتر عن مصر ، كانوا جنود الله الذين سخرهم لحفظ دينه من أن تطمس معالمه ، ولغة كتابه الكريم من أن تحل محلها العجمة ؛ على أن عداء الترك للعرب والعربية انتهى أخيرا فى الجمهورية الكمالية بمحو كل ما هو عربى بحت ، حتى لقد شرعوا فى ترجمة القرآن الكريم الى التركية ليؤدوا الصلاة ــ اذا أدوها ــ بلسان أعجمى ، لا بالعربى المبين .

هكذا ــ وبصورة أشد منه ــ كان يكون حال اللغة العربية وعلومها إذا دخل المغول مصر ، ولكن الله سلم ، والله ذو فضل على الناس

على أنى لا أكتمك ان هولاكو فى أغارته جمع الكتب العربية الفلكية من خراسان والشام والموصل وبغداد ، وبنى بالمراغة دارا للرصد ، وجمع رجالا من علماء العرب المعروفين بالفلك ، وأغدق عليهم ، فاشتغلوا بالرصد ، وتصحيح الأزياج ومنهم نصير الدين الطوسى ؛ وجاء قبلاى أخو هولاكو ففتح الصين ، ونقل اليها الرسائل التى ألفها علماء بغداد ، وجاء تيمور فاتخذ فى سمرقند دورا للعلم وجمع فيها المشهورين من العلماء فى الفنون الأدبية والصناعية ، وجاء ابنه شاه رخ ، فأنشأ مكتبة فاخرة ، جمع فيها الكتب النادرة فى كل فن ، لما كان بينه وبين ملوك عصره من المودة وجاء من بعده أبنه الوغ بك فاشتغل بالرصد ، وعمل مع علمائه فى تتميم ما كان ضروريا للأعمال الفلكية التى قام بها العرب ؛ وحرر قياس درجة من درجات خط نصف النهار ، ومساحة الكرة الأرضية . وغير ذلك من الأعمال التى تدل على أن اغارات المغول عامة كانت وسيلة لاعادة رونق العلوم العربية ببلاد المشرق — والله يقول الحق وهو يهدى السبيل